جامعة القاهـــرة
كليـة الآداب
قسـم التاريـــخ

==

الحيـاة الاقتصاديـة والاجتماعيـة
فى مدينة الفسطاط حتى العصر الفاطمى

==

رسـالة مقدمة للحصول على درجة الماجستير من قسم التاريخ

مـن

حوريـة عبده عبد المجيد سلام

==

اشـراف

الاستاذ الدكتور حسن أحمد محمـــود
أستاذ التاريخ الاسلامـى

٥٥

يوليـو ١٩٧١

بسم الله الرحمن الرحيم

=

المقدمـــة

=

يتناول هذا البحث دراسة الحياة الاقتصادية والاجتماعية فى مدينـــة الفسطاط منذ الفتح العربى حتى بداية العصر الفاطمى .

وتبدو أهمية هذا الموضوع فى أنه يعنى بالنواحى الاقتصادية والاجتماعية فى أول عاصمة لمصر الاسلامية ، ولا يخفى ما لدراسة النواحى الاقتصادية والاجتماعية من أهمية قصوى ، اذ أن معظم ما ألف فى التاريخ العربى والاسلامى يؤكد على دراسة الحكام دون الشعوب . فهذه الدراسة تتعرض للفسطاط كمدينة فى القرون الأولى للاسلام فى مصر حيث كان التفاعل بين التراث العربى الجديد ، والتراث المصرى القديم ذلك التفاعل الذى انتهى بميلاد حضارة مصرية اسلامية .

ولم تكن هذه الدراسة ميسرة هينة ، فمادتها مبعثرة مشتتة فضلا عن افتقادنا الى المصادر التاريخية التى تعالج النواحى الاقتصادية والاجتماعية بطريقة مباشرة ، فكان علينا أن نلتقط ما يفيدنا فى دراسة هذه الموضوعات حتى نخرج بالصورة التى تبين ما كانت عليه الحياة الاقتصادية والاجتماعية فى الفسطاط فى الفترة المحددة للدراسة .

الا أن التزامنا بالحديث عن الفسطاط ـ كمدينة ـ ألقى علينا مزيدا من العبء فى تقصى ما ذكرته المصادر ـ على قلتها عن الفسطاط وخاصة من الناحية الاقتصادية ،

لأنّ كل من تصدى للحياة الاقتصادية من القدامى والمحدثين تحدثوا عن الحياة الاقتصادية فى مصر الاسلامية عامة لهذا كان من الصعوبة بمكان أن نلق أضواء واضحة على مدينة الفسطاط وحدها .

وكان كتاب عبد الرحمن بن عبد الحكم المتوفى ٢٧٥ هـ / ٨٨٨ م "فتوح مصر وأخبارها" ، أهم المصادر التى اعتمدت عليها وبخاصة فيما يتعلق بتأسيس الفسطاط وخططها والقبائل العربية التى استقرت بها . فان عبد الحكم فسطاطى المولد والنشأة والوفاة وهو أول مصرى كتب عن أول مدينة اسلامية فى مصر بل فى القارة الافريقية كلها . كانت أسرة عبد الرحمن بن عبد الحكم ذات مكانة رفيعة فى الفسطاط تولى أكثرهم رواية الحديث ، فكان أبوه من كبار رواة الحديث فى الفسطاط ومن ثم تجمعت لدى ابنه عبد الرحمن أقدم الروايات التى تتعلق بفترة الفتح .. ونشأة خطط الفسطاط وبداية استقرار العرب فى الفسطاط .

وكان كتاب الكندى " الولاة والقضاة " المصدر الثانى الذى اعتمدت عليه .. فالكندى المتوفى سنة ٣٥٠ هـ / ٩٦١ م كان أول من أفاد من ابن عبد الحكم .. وقد ذكر المقريزى أن الكندى كان حجة ثقة فى معرفة أحوال مصر وأهلها وأعمالها وثغورها . وكتاب " الولاة " هو تاريخ لولاة مصر الذين تعاقبوا عليها من الفتح الاسلامى حتى وفاة محمد الاخشيد سنة ٣٤٤ هـ (٩٥٥م) وهو يشير الى أصحاب الشرط الذين تولوا فى عهد كل منهم والأحداث التى وقعت والشعر الذى قيل ، كما يتحدث عن أنساب العرب وعلاقاتهم ونشاطهم . وفى الجزء الثانى من مصنفه الكبير تحدث عن القضاة وأضاف الى تاريخهم بعض الأخبار والتفاصيل مما ساعد فى القاء الضوء على مظاهر الحياة فى الفسطاط فى ذلك الوقت . وتبدو فى هذا الكتاب كما هو الحال فى كتاب ابن عبد الحكم — النزعة المصرية — فكلاهما عاشا فى الفسطاط . وقد وقف الكندى

بكتابه عند سنة ٢٤٦ هـ / ٨٦٦ م عند ولاية القاضى بكار ابن قتيبة كما وقف ابن عبد الحكم من قبل . واشارة الكندى الى خطط الفسطاط ومنشآتها الأولى يسيرة ترد فى سياق الحديث ولا يفرد لها بابا خاصا كما فعل ابن عبد الحكم . ولعل الكندى قد ألف كتابا خاصا عن خطط الفسطاط كما أشار الى ذلك المقريزى بقوله أن الكندى "أول من رتب خطط مصر وآثارها وذكر أسبابها فى ديوان جمعه أبو عمر محمد بن يوسف الكندى " ولعل هذا الكتاب فقد فلم يصل الينا .

أما كتاب المقريزى المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار فهو ذروة الكتابة الفنية عن الخطط .. فقد مسح المقريزى الفسطاط مسحا شاملا وتحدث عن شوارعها وأسواقها وبيوتها بالاضافة الى وصفه لكثير من مظاهر الحياة الاجتماعية وأحوال المجتمع من الناحية الاقتصادية . وذلك فى القسم الثالث الذى خص فيه الحديث عن " أخبار الفسطاط ومن ملكها " .

كما كان كتاب " المغرب فى حلى المغرب " لابن سعيد الذى نشر القسم الخاص بمصر من المخطوطة مصدرا هاما فى هذه الدراسة فى عصرى الولاة الامويين والعباسيين .

وقد اعتمد ابن سعيد على كتاب أبى يوسف ابراهيم المعروف بابن الداية المتوفى سنة ٣٣٩ هـ / ٩٥١ م فى دراسة العصر الطولونى .

وكان من بين المصادر التى أفادتنى فى دراسة خطط المدينة وأسواقها ودروبها ما صنفه ابن دقماق وهو كتاب " الانتصار لواسطة عقد الأمصار " الا أنه يميل الى السرد فى رواياته وتعداد الأسماء دون أن يحاول الشرح أو التفصيل .. وأهمية كتابه ترجع الى أنها دراسة مستفيضة عن طبوغرافية الفسطاط .

كما تعرض البلاذرى فى كتابه فتوح البلدان عند حديثه عن فتح مصر الى

اشارات عظيمة القيمة من ناحية الحضارة والنظم الاجتماعية والدواوين ومسائل الخراج والسكة وغيرها من المسائل الاقتصادية ، فهو بحق من أعظم ما ألفه مؤرخو العرب فى القرن الثالث الهجرى .

وقد اعتمدت فى دراسة الجزء الخاص بالطولونيين على كتاب البلوى " سيرة أحمد بن طولون " وان كان البلوى يكتفى فى بعض الأحيان بنقل ما أورده ابن الداية فى كتابيه المكافأة وسيرة ابن طولون .

كما لخص السيوطى فى كتابه حسن المحاضرة فى أخبار مصر والقاهرة " كثيرا مما أورده المتقدمون ولا سيما ابن عبد الحكم والكندى عن تاريخ مصر السياسى والاجتماعى .

كما كان لكتب الرحالة والجغرافيين أهمية كبيرة فى الوقوف على كثير من التفاصيل التى أغفل المؤرخون فى كثير من الأحيان الحديث عنها ، وخاصة ما يتعلق منها بالنواحى الاجتماعية . ولما كانت معظم المؤلفات الجغرافية كتبت لتكون دليلا للمسافر أو الجائل فانها تهتم بالاشارة الى وصف المدينة وحياة سكانها وطرق معيشتهم وما يفضلون من طعام وما يجدونه ملفتا للأنظار من العادات والتقاليد . ومن أهمها كتاب المقدسى أحسن التقاسيم فى معرفة الاقاليم .. فقد وصف جامع عمرو وكيف أنه كان أعمر موضع بالفسطاط رغم أنه زارها فى منتصف القرن الرابع الهجرى وتحدث عن مجالس القراء به حديث شاهد عيان . كما وصف أسواق الفسطاط وحماماتها ودروبها . ومن كتب الرحالة أيضا كتاب ناصر خسرو " سفرنامه " فقد وصف أسواق الفسطاط ومساجدها وكثيرا من مظاهر الحياة الاجتماعية بها .

ومن كتب الرحالة التى أفادتنى أيضا كتاب ابن حوقل صورة الأرض فقد تعرض

لوصف كثير من دور الفسطاط من حيث تعداد طبقاتها وملاحظته بأن أسفل دورهم كان غير مسكون غالبا وغيرها من الاشارات الهامة •

وكذلك أفدت من كتاب البكرى : المسالك والممالك حيث يصف الفسطاط وان كان وصفه أقل شأنا مما ذكره المقريزى • هذا فضلا عن كتاب ابن الفقيه " البلدان " حيث وصف الفسطاط وعمارتها وكتاب الادريسى "نزهة المشتاق فى ذكر الأمصار والأقطار " • كذلك كان لكتاب "حفريات الفسطاط " الذى وضعه "على بهجت " أهميته الخاصة اذ أطلعنا على ما أسفرت عنه الحفائر التى أجريت فى أطلال مدينة الفسطاط مما أفادنا فى دراسة مساكن الفسطاط ودروبها وأزقتها وحماماتها •

وكذلك أفدت من كتاب G. Weit

Histoire de la Nation Egyptiene

وبخاصة الجزء الرابع الذى خصه للحديث عن L'Egypte Arabe

والكتاب الذى وضعه comlee عن النقوش العربية :

Repertoire chronologique d'Epegraphie Arabe

وكتاب Casanova

Reconstruction de la Ville d'Fustat

وكتاب شواهد القبور الذى وضعه Weit تحت عنوان :

Stelles Funeraires

وقد قسمت الرسالة الى ثلاثة أبواب ، تحدثت فى الباب الأول عن تأسيس مدينة الفسطاط ، وتتبعت خططها منذ انشائها وما استجد عليها خلال العصر الأموى ثم العباسى وخلال عصرى الطولونيين والاخشيديين من بعدهم • كما تحدثت عن عمارة طرقاتها ودورها ومسجدها الجامع ، وأسواقها وحماماتها ومقابرها ، ونظام توزيع المياه بها ووسائل مواصلاتها • ثم تحدثت عن حكومة الفسطاط : أمراؤها ودار امارتها وشرطتها ودواوينها •

وأفردت الباب الثانى لدراسة الحياة الاقتصادية فى المدينة فتناولت النظم المالية من موارد بيت المال ومصروفاته ثم النقود كأسلوب فى التعامل ثم تجارة الفسطاط الصادر من أسواقها والوارد اليها ، ثم نظم هذه الأسواق نفسها وأسلوب التعامل فيها ، ثم تعرضت للصناعة فى المدينة مع الاشارة الى مستوى المعيشة والأسعار •

وخصصت الباب الثالث لدراسة الحياة الاجتماعية فى المدينة فتحدثت عن عناصر السكان من العرب والموالى وأهل الذمة ، ثم عرضت للحياة الاجتماعية الخاصة لعناصر السكان من حيث الزواج والأزياء والمطاعم والمشارب وعادات الجنائز • كما تحدثت عن الحياة الاجتماعية العامة فى المدينة التى تتمثل فى الأعياد والمواسم والاحتفالات ووسائل اللهو المختلفة ، ثم عرضت فى النهاية لبعض عيوب المجتمع فى الفسطاط •

ولا يسعنى فى النهاية الا أن أتقدم بوافر الشكر للأستاذ الدكتور حسن أحمد محمود فقد كان لعظيم رعايته وارشاده الفضل فى اتمام هذا البحث •

والله ولى التوفيق •

القاهرة فى يوليو ١٩٧١

الباب الأول

الفسطاط المدينة

- تأسيس الفسطاط
- خطط الفسطاط
- دروب الفسطاط وأزقتها
- بيوت الفسطاط
- المسجد الجامع ـ مساجد القبائل
- الأسواق ـ القيساريات
- الحمامات
- توزيع المياه
- وسائل المواصلات بالمدينة
- حكومة الفسطاط ـ أمراؤها ـ شرطتها ـ دواوينها

تأسيس الفسطاط

أسس عمرو بن العاص مدينة الفسطاط سنة ٢١ هـ / ٦٤١ م بعد فراغه من فتح الاسكندرية (١).

وقد تعددت آراء المؤرخين (٢) فى ذكر الاسباب التى دعت عمرو بن العاص الى اختيار هذا الموضع مكانا لعاصمة مصر الاسلامية ، وكلهم يردون اختيار عمرو لموضع الفسطاط للصدفة المحضة . غير أن الثابت أن عمرو أدرك أهمية ذلك الموقع ومزاته . فالاسكندرية فقدت كل مزاتها كعاصمة لمصر على أثر تبعية مصر لبلاد العرب ، ومن ثم كان لزاما على عمرو بن العاص أن يختار العاصمة فى موضع يسهل منه الاتصال بين مصر ومقر الخلافة الاسلامية فى شبه الجزيرة العربية .

كما أن الخلافة درجت على أن تختار عواصم الأمصار المفتوحة بعيدا عن السواحل ، فلما أراد عمرو أن يستقر بالاسكندرية " ورأى بيوتها وبناءها مفروغا منها

---

(١) اختلف المؤرخون فى تحديد السنة التى فتحت فيها الاسكندرية فيذكر الطبرى : تاريخ الأمم والملوك ج ١ ص ٥ عدة روايات عن سنة فتح الاسكندرية فيحددها تبعا لرواية اسحق بن عيسى بسنة عشرين أو ٢١ هـ أو ٢٥ هـ وفى رواية الواقدى عن ابن سعد أن الاسكندرية فتحت سنة ٢٠ هـ ، وفى رواية أخرى سنة ١٦ هـ . ويذكر البلاذرى : فتوح البلدان ص ٢٢٠ أنه تم فتح الاسكندرية فى سنة ٢٠ هـ أو ٢١ هـ ويذكر ابن عبد الحكم : فتوح مصر وأخبارها ص ٨٠ أنها فتحت سنة ٢٠ هـ ، ويذكر ابن الأثير الكامل فى التاريخ ج ٢ ص ٤٤٠ أن مصر فتحت سنة ٢٠ هـ وأعتقد استنادا لرواية ابن عبد الحكم أن الاسكندرية فتحت فتحها الأول سنة ٢٠ هـ .

(٢) ابن عبد الحكم : فتوح مصر ص ٩١ ، أبو المحاسن : النجوم

هم أن يسكنها وقال مساكن قد كفيناها " . وقد سأل الخليفة عمر بن الخطاب : " هل يحول بيني وبين المسلمين ماء قال : نعم اذا جرى النيل فكتب الى عمرو قائلا : " انى لا أحب أن تنزل المسلمين منزلا يحول الماء بيني وبينهم فى شتاء ولا صيف " (١).

ولنفس هذا السبب تحول سعد بن أبى وقاص من مدائن كسرى الى الكوفة، كما تحول عتبة بن غزوان الى البصرة (٢). هذا فضلا عن أن عمرو أدرك أهمية موقع الفسطاط بالنسبة لوجهى مصر القبلى والبحرى، اذ أن هذا الموقع يسهل منه الاشراف عليهما معا.

لكل تلك الاسباب التى تبعد عن مجرد الصدفة اختار عمرو الحاضرة الجديدة فى ذلك الفضاء الذى يقع بين النيل والمقطم والذى لم يكن به من البناء سوى حصن بابليون الذى عرف جزء منه بقصر الشمع. (٣)

الزاهرة ج ١ ص ٦٤، ٦٥ المقريزى : الخطط ج ١ ص ٧٦ فهم يسرد دون قصة اليمام الذى فرخ فى فسطاط عمرو الذى كان قد تركه عند ذهابه للاسكندرية فقال عمرو : " لقد تحرم منا بمتحرم فأمر به فأقر كما هو وأوصى به صاحب القصر " فلما رجع المسلمون من فتح الاسكندرية سألوا أين ينزلون فنزلوا الفسطاط لفسطاط عمرو الذى كان خلفه ابن عبد الحكم : فتوح مصر ص ٩١.

(١) ابن عبد الحكم : فتوح مصر ص ٩١.

(٢) المرجع السابق نفس الصفحة.

(٣) يذكر أ. بتلر فى كتاب فتح العرب لمصر " ترجمة محمد فريد أبو حديد " ص ١٨١ — ١٨٢ أن اسم بابليون قد سبب ارتباكا كبيرا لكتاب العرب وبقى ذلك الاسم الى اليوم ولكنه لا يطلق على الحصن نفسه فاسمه الآن (قصر الشمع) بل يطلق على دير صغير على مسافة قليلة من الحصن نحو الجنوب هو " دير بابليون " وكان اسم الحصن باللغة القبطية وقت الفتح (بابليون آن خيمى) ومعناه (بابليون مصر) فكان من السهل تعريفه فى اللغة العربية لان أول جزء منه (باب). وليس

وكانت الفسطاط بعد تأسيسها تشغل مسطحا طوله نحو خمسة آلاف متر ، حده من الشمال " جبل يشكر " ومن الجنوب دير " ماريوحنا " وفى وسطه جامع عمرو بن العاص ممتدا على ضفة النيل مقابلا لجزيرة الروضة • لكن عرض هذا المسطح لم يكن يزيد على ألف متر ، وكان مجرى النيل يومئذ أقرب الى الفسطاط من وضعه الحالى (١) ، فقد كان يمر بجوار جامع عمرو •

وشهدت الفسطاط أول اتساع لها نحو الشمال الشرقى فى سنة ١٣٢ هـ / ٧٤٩ م حين نزل صالح بن على وأباعون بجيوشهما فى الشمال الشرقى فيما وراء جبل يشكر وبنوا هناك دارا جديدة للامارة ، ومسجدا جامعا عرف ذلك الموضع باسم العسكر (٢) •

---

(١) من السهل أن نعرف أصل تسميته بقصر الشمع فى اللغة العربية ، فقد يكون لفظ الشمع تحريفا للكلمة القبطية (خيمى) ولكن نصت الأخبار على أنه كان فى حصن بابليون القديم هيكل للنار •• ومهما يكن من أمر العرب وتحريفهم لاسم الحصن فقد ظل كتاب أوربا فى العصور الوسطى يطلقون على ذلك الموضع اسم بابليون وليس اسم مصر وحفظوا تلك التسمية الى ما بعد بناء القاهرة فصاروا يطلقون على مدينة مصر اسم بابليون ويسمون حاكمها سلطان بابليون • ويذكر الدكتور جمال الدين الشيال فى مقال له بمجلة كلية الآداب ــ جامعة الاسكندرية ــ عدد ١٢ سنة ١٩٥٨ ص ١٣١ ! أنه " كان فى مصر وقت الفتح مدينتان هامتان احداهما الاسكندرية وتعتبر العاصمة الأولى وذلك لقربها من الدولة الرومانية الشرقية صاحبة السيادة ، وبابليون وتعتبر العاصمة الثانية وذلك لموضعها من رأس الدلتا بحيث تشرف على الوجهين القبلى والبحرى ، ولوقوعها على شاطئ النيل بحيث تكون سهلة الاتصال بواسطة هذا النهر بكل أطراف القطر المصرى ولتوسطها بين النيل غربا وبين جبل المقطم شرقا ، ولهذا نلاحظ أن المصريين منذ القدم كانوا يختارون هذا المكان لحكمهم •• فاتخذوا منف عاصمة لهم •• وكانت هليوبوليس حاضرة مصر لمدة طويلة " وهو يعتمد فى ذلك على ابن دقماق جـ ٤ ص ١٣ الذى ينقل عن ابن سعد " كانت مبانيها فى قديم الزمان متصلة بمبان عين شمس • " كما يعين ابن الفقيه فى كتاب البلدان موقع الفسطاط بالنسبة للمدينتين بقوله : " وعين شمس على ثلاث فراسخ من الفسطاط ومنف مساكن بينها وبين عين شمس ثلاث فراسخ " كما يذكر ابن حوقل فى كتاب المسالك والممالك : " عين شمس ومنف قريتان قد خربتا كانتا متنزها لفرعون ••• عين شمس ...

(٢) ، ١

كما شهدت اتساعا آخر حين أسس أحمد بن طولون القطائع سنة ٢٥٦ هـ/ ٨٦٨ م فامتدت حدود الفسطاط الى المنطقة الواقعة بين جبل يشكر وبين سفح المقطم وهو الموقع الذى عرف بقبة الهواء (١) . ولم يكن بهذا الموضع سوى بضع قبور لليهود والنصارى فهدمها ابن طولون (٢) . وهكذا نلاحظ أن اتساع حدود الفسطاط كان دائما من الناحية الشمالية الشرقية . كما أن من المعروف أن ساحل النيل لم يثبت على حالة واحدة بل كان يتنقل من الشرق الى الغرب فتذكر المصادر أن جامع عمرو بن العاص بنى على شاطئ النيل (٣) . وكذلك كان قصر الشمع ، فقد كان بابه الغربى مطلا على النيل مباشرة . (٤)

عن شمال الفسطاط ومنف عن جنوبه . " ويؤيد هذا الرأى قول المقريزى : " وكان بجوار هذا الحصن (بابليون) من بحريه أشجار وكروم صار موضعها الجامع العتيق وفيما بينها وبين الحصن والجبل عدة كنائس وديارات للنصارى " . ويرى الدكتور الشيال أن المعابد منذ أقدم العصور الى اليوم لا تبنى الا فى المدن الآهلة بالسكان فوجود هذه الكنائس والديارات يثبت وجود مساكن آهلة ومبان عامرة فى هذه المدينة وقت الفتح .

(1) Guest : J. R. A. S. : 1907. p. 46 - 60

(٢) الكندى : الولاه والقضاه ص ١١٥ ، ابن سعيد : المغرب ص ٣٠ – ٣١ ، أبو المحاسن : النجوم الزاهرة جـ ٤ ص ٤٩ ، المقريزى : الخطط جـ ١ ص ٣٠٤ .

---

(١) البلوى : سيرة أحمد بن طولون ص ٥٣ ، أبو المحاسن : النجوم الزاهرة جـ ١ ص ٣٠٦ – ٣٢٧ ، جـ ٢ ص ٤٩ .

(٢) الكندى : الولاه ص ٢١٥ ، البلوى : سيرة أحمد بن طولون جـ ١ ص ٣٢٧ .

(٣) المقريزى : الخطط جـ ١ ص ٣٤٣ ، جـ ٢ ص ١٣٢ .

(4) Casanova : reconstruction de la ville de Fustat p. 217.

وقد وصف المقريزى حدود الفسطاط عند بلوغها أوج ازدهارها ونموها فذكر أن الحد الشرقى يبدأ من قلعة الجبل الى باب القرافة الى كوم الجارح الى الرصد حيث أول بركة الحبش . والحد الغربى من قناطر السباع على امتداد شاطئ النيل الى دير الطين والحد الجنوبى من شاطئ النيل بدير الطين حيث ينتهى الحد الغربى الى بركة الحبش تحت الرصد حيث ينتهى الحد الشرقى وقد أوضح أنه فى عهده لم يكن عامرا من تلك المناطق سوى الجهة الغربية فقط . (١)

خطط الفسطاط :

اتبع فى تخطيط مدينة الفسطاط نفس النظام القبلى الذى اتبع فى تنظيم الجيش القادم مع عمرو بن العاص لفتح مصر ، فقد كان جيش الفتح يتكون من جنود ينسبون الى قبائل مختلفة تمثل كل قبيلة وحدة مستقلة لكل منها رايتها الخاصة (٢).

ومن المعروف أن عمرو بن العاص استبقى نصف قواته للاقامة بالفسطاط بينما أرسل فريقا من قواته للمرابطة بالاسكندرية ، وفريقا آخر للمرابطة فى سائر الثغور المصرية (٣).

ولقد خصص عمرو أربعة من كبار الصحابة للاشراف على عملية توزيع الخطط على القبائل هم : معاوية بن حديج التجيبى ، وشريك بن سمى الغطيفى وعمرو بن قحزم الخولانى (٤) ، وحيويل بن ناشرة المعافرى فقسموا الخطط (٥) بين القبائل ، وجعلوا

---

(١) المقريزى : الخطط ج ١ ص ٣٤٣ ، السيوطى : حسن المحاضرة ج ١ ص ٧٠ – ٧١ (٢) ابن خلكان : وفيات الاعيان ج ١ ص ٣٤٧
(٣) ابن عبد الحكم : فتوح مصر ص ٥٦ ، ٨٠ ، الكندى : الولاه ص ٩ . (٤) المقريزى : الخطط ج ١ ص ٢٩٧
(٥) [illegible] لغة بالكسر الارض والدار يختطها .

على كل قبيلــة عريفا (١) . كما كان لكل قبيلــة محرسا " ـ وهو مكان يخصــــص لحراســة القبيلــة ، وراية تميزها عن غيرها .

وكان العرب القحطانيون يشكلون الغالبيــة العظمى من سكان الفسطاط اذ بلغ عددهم ما يقرب من ثلاثــة أضعاف العرب العدنانيين .
وكانت قريش أكثر القبائل العدنانية عددا فى مصر ، كما كانت قبائل عريب أكثر القبائل القحطانية (٢) . وكان مجموع القبائل نحوا من مائتين وأربعة وأربعين قبيلة .

= الرجل فى أرض غير مملوكة ويبنى فيها وذلك اذا أذن السلطان لجماعة مـــن المسلمين أن يختطوا الدور فى موضع بعينه ويتخذوا فيه مساكن لهم . " لسان العرب لابن منظور ج ٩ ص ١٥٩ طبعة بولاق .

(١) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ١ ص ٦٥ ، ابن دقماق : الانتصار ج ٤ ص ٣ ، السيوطى : حسن المحاضرة ج ١ ص ٧٠ ـ ٧١ .
ويعرف ابن منظور العريف لغويا بقوله : " العريف لغة هو العليم ورجل عروف أو عريف أى عارف يعرف الأمور ، وقال سيبويه هو فعيل بمعنى فاعل كقولهم خريب والجمع عرفاء ، والتعريف الاعلام والتعريف أيضا ارشاد الضالة ، وعريف القوم سيدهم ، والعريف القيم والسيد لمعرفته بسياسة القوم وهو النقيب دون الرئيس . " ابن منظور ج ١١ ص ١٤١ ـ ١٤٣ .
وفى الفسطاط كان على كل قبيلــة عريفا ينظم شئونها ويلى أمورها مثال ذلــك ما ذكره ابن عبد الحكم من أنه كان على قبيلــة المعافر " رجل يقال له الحسن يصبــح كل يوم فيدور على مجالس القبيلــة حيث يجتمع رجالها فيقول : هل ولد الليلة فيكــم مولود وهل نزل بكم نازل فيقال ولد لفلان غلام ولفلان جاريه فيقول سموهم فيكتب ويقـــال نزل بنا رجل من أهل اليمن وعياله . " ويبدو أن عريف القبيلة هو الذى كان يساعـــده على أداء مهمته لانه أدرى بشئون القبيلة ومن استجد فيها من مواليد أو قادمـــين جدد .

(٢) تنقسم القبائل القحطانية وهى القبائل العربية التى عاشت فى جنـــوب شبه الجزيرة العربية الى قسمين كبيرين هما : كهلان وحمير وتتفرع قبائل كهلان الـــى فرعين رئيسيين هما مالك وعريب وتنقسم قبائل عريب بدورها الى أربعة أفرع هى قبائـــل مرة ومذحج وطى والاشعر . عبد الله خورشيد : القبائل العربية فى مصر ص ٥٩ ، ١٤٠ ، ١٧٢ .

وقد زادت أعداد القبائل العربية باضطراد في الفسطاط خلال الفترة التي تقوم بدراستها سواء عن طريق الهجرة أو التكاثر . فقد كان عدد القوات التي اختطت بالفسطاط عند بداية التأسيس سنة ٢١ هـ / ٦٤١ م أيام عمرو بن العاص كما ذكرت ستة آلاف وبلغت في عهد معاوية ٤٠ ــ ٦٠ هـ / ٦٦٠ ــ ٦٧٩ م أربعين ألفا . (١) وفي عهد مروان بن الحكم ٦٤ ــ ٦٥ هـ / ٦٨٣ ــ ٦٨٤ م أكثر من ثمانين ألفا (٢) . مما يدل على ازدياد العرب في الفسطاط ازديادا سريعا حتى أنهم تضاعفوا ما يقرب من سبع مرات في أقل من نصف قرن . وقد أدى هذا الى اعادة تدوين الديوان أربع مرات في فترات متقاربة ــ التدوين الأول قام به عمرو بن العاص سنة ٤٣ هـ / ٦٦٣ م ثم دون عبد العزيز بن مروان تدوينه الثاني سنة ٨٦ هـ / ٧٠٥م . كما دون قرة بن شريك التدوين الثالث سنة ٩٥ هـ / ٧١٣ م ثم التدوين الرابع سنة ١٠٢ هـ / ٧٢٠ م في عهد بشر بن صفوان (٣) .

---

(١) ابن عبد الحكم : فتوح مصر ص ١٠٢ فيذكر أنه كان على قبيلة المعافر في مصر " رجل يقال له الحسن يصبح كل يوم فيدور على مجالس القبيلة حيث يجتمع رجالها فيقول : هل ولد الليلة فيكم مولود وهل نزل بكم نازل فيقال : ولد لفلان غلام ولفلان جاريه فيقول : سموهم ، فيكتب ويقال نزل بنا رجل من أهل اليمن وعياله فاذا افرغ من القبائل كلها أتى الديوان حيث يسجل أسماء القادمين الجدد ليخصص لهم نصيب في العطاء " .

(٢) السيوطي : حسن المحاضرة ج ١ ص ٧٥ .

(٣) الكندي : الولاة ص ٧١ ،
المقريزي : الخطط ج ١ ص ٩٤ .

وكانت خطط القبائل العربيـة قائمة حول المسجد الجامع وعلى مقربة من قصر الشمع (١) • كما كان لكل منها مجلس بجامع عمرو •

وبمقارنة خطط الفسطاط بخطط البصرة نجد تشابها كبيرا بينهما فقـد استقرت القبائل العربيـة فى البصرة على شكل قبلى أيضا ، ومنذ بداية تأسيسهـا استقرت بها مجموعات من قبائل تميم وبكر والازد ، ولما أعاد زيادة تنظيم البصـرة قسمها الى خمسة أقسام كبيرة سمى كلا منها خمسا ، وكل خمس يشمل عددا مـن العشائر • (٢)

ولم يختلف الامر كثيرا فى الكوفة فطيلة الخمس سنوات الاولى لتأسيسها كانـت عبارة عن خيام من قصب استقرت بها القبائل العربيـة المختلفة • وفى سنة ٢٢ هـ / ٦٤٢ م فى امارة المغيرة تحولت هذه المخيمات الى سبع مناطق مقسمة بين القبائـل العربية التى استقرت بها • فكانت الخطـة الاولى للكنانة والثانية لقبيلة قضاعة وغسـان وبجيلة والثالثة لمذحج وحمير وهمدان والرابعة لتميم والرباب والخامسة لاسد وغطفـان والسادسة لاياد والسابعة لطىء (٣) •

---

(١) اليعقوبى : كتاب البلدان ص ٣٣٠ ،
الطبرى : تاريخ الرسل والملوك ج ١ ص ٢٤٩٦ ،
ابن قتيبه : عيون الاخبار ج ٢ ص ٤٤

(٢) صالح أحمد العلى : التنظيمات الاجتماعيـة والاقتصادية فى مدينة البصرة ص ٧٠

(٣) لويس ماسنيون : خطط الكوفة ص ٩ ـ ١٠

وظل هذا التقسيم متبعا فى الكوفة حتى ولاية زياد بن أبيه سنة ٥٠ هـ / ٦٧٠ م فغير من هذا النظام وجعله على غرار ما كان عليه الحال فى البصرة حيث أصبحت الاسباع أربعة أقسام تسمى أرباعا . وقد ضمت هذه الاقسام وحدات من العجم كما كان الحال فى الفسطاط الا أنها تختلف عنها فى أن هذه الاقليات من العجم أدمجت مع بعض القبائل العربية للموازنة بين أعداد القبائل فأدخلت مع اياد وعاد وعبد قيس والحمراء (١) ، بينما استقرت الاقليات غير العربية فى الفسطاط فى خطط خاصة بها لم تندمج فى خطط القبائل العربية كما سنوضح عند تفصيل حديثنا عن خطط الفسطاط .

وسنحاول أن نتتبع تاريخ خطط الفسطاط فى عصر الراشدين والامويين والعباسيين .

(أ) خطط الفسطاط الاولى زمن الخلفاء الراشدين :

اختط حول مسجد عمرو مجموعة من القبائل العربية التى اشتركت فى الفتح لم يكن لكل منها من العدد ما يسمح بأن تستقل بخطة خاصة فرأى عمرو بن العاص أن يجمعهم معا وجعل لهم راية خاصة هى رايته فعرفوا بأهل الراية ، وهم قبائل قريش والانصار ، خزاعة ، اسلم ، غفار ، مزينة ، اشجع ، جهينة ، ثقيف ، دوس عبس (٢) . وسجل اسم أهل الراية فى الديوان على هذا الوضع .

كما اختطت قبيلة مهرة عند أسفل التل المطل على بركة الحبش (٣) كما

---

(١) محمد حسين الزبيدى : الحياة الاجتماعية والاقتصادية فى الكوفة ص ٧٣ .

(٢) ابن عبد الحكم : فتوح مصر ص ٩٨ ، ١١٦ ـ ١١٧ ،
ياقوت الحموى : معجم البلدان جـ ٤ ص ٢١٩ ،
ابن دقماق : الانتصار جـ ٤ ص ٣

(٣) ابن عبد الحكم : فتوح مصر ص ١٢٦ ـ ١٢٧ .

انظر خريطة رقم (١)

اختطت احدى بطونها وهى " هذيل " بجوار خطة الحمراوات الثلاث وهى خطط القبائل غير العربية التى سيأتى الحديث عنها .

واختطت قبيلة قريش التى شهدت الفتح وان لم تستقل فى خطة خاصة نظرا لقلة عددها فكانوا أول الأمويين أهل الراية (١) وذلك بسبب السياسة التى انتهجها ازاءهم عمر بن الخطاب فقد منعهم من الخروج الى البلدان الا باذنه (٢) الا أنه فى عهد عثمان بن عفان سمح لهم بالخروج فجاءوا باعداد كبيرة الى الفسطاط فاستقر منهم بها عدة بطون مثل " بنو سهم " الذين شهدوا الفتح ثم قدموا بأعداد كبيرة الى الفسطاط وبنى لهم عمرو دارا غرب المسجد الجامع (٣) . ويذكر ابن عبد الحكم أن " بنى جمح " (٤) اختطوا بجوار دار عمرو وكذلك اختطت بالفسطاط من المضرية قبائل " قيس " ممثلة فى قبائلها أشجع وعبس وثقيف وفهم وعدوان ، وكان لهم مجلس فى جامع عمرو شأن القبائل جميعا (٥) . أما أشجع فلقلة عددها اختطت مع أهل الراية وكذلك فعلت عبس . أما فهم فقد شهدت الفتح واختطت فى الحمراوات الثلاث كما شهدت عدوان الفتح وان لم يذكر ابن عبد الحكم موضع خطتهم بالضبط غير أنه يذكر أنه كانت لهم سويقة باسمهم فى الفسطاط عند زقاق يعرف باسم زقاق المكى (٦) . كما

---

(١) ابن عبد الحكم : فتوح مصر ص ١١٦ - ١١٧

(٢) الطبرى : تاريخ الرسل والملوك ج ٣ ص ٤٢٧ يذكر أن عمر بن الخطاب قال : " ألا وان قريشا يريدون أن يتخذوا مال الله معونات دون عباده ألا فأما وابن الخطاب حى فلا يأتى قائم دون شعب الحرة آخذ بملاقيم قريش وحجزها أن يتهافتوا فى النار " .

(٣) الكندى : الولاة ص ١١٤ ،
النويرى : نهاية الأرب ص ٢٤٦ ،

(٤) ابن عبد الحكم : فتوح مصر ص ١٠٨

(٥) المصدر السابق ص ١١٠ ، ١١١ .

(٦) المصدر نفسه ص ١١٢ .

اختطت ثقيف منذ الفتح فى الركن الشرقى لمسجد عمرو مع أهل الراية •
كما اختطت قبيلة "عنزة" وهى من قبائل ربيعة فى الفسطاط وكان لهم بها ما يقرب من عشرة دور (١) •
كما اختطت قبيلة "سبأ" (٢) وهم من القبائل العربية القحطانية شرقى خطة جنب كما كان لهم مسجد خاص فى الفسطاط •
واختطت الازد فى الفسطاط وكانت قد شهدت الفتح وهم من مجموعة كهلان القحطانية وكانوا جزءا كبيرا من جيش عمرو بن العاص (٣) •

كما اختطت "الانصار" و "خزاعة" وهم من بطون كهلان أيضا فى الفسطاط منذ الفتح وكان لهم بها داران كما أوضح ابن عبد الحكم أنهم كانوا بين أهل الراية لقلة عددهم •

كما اختطت قبيلة "الحجر" الذين شهدوا الفتح فى الفسطاط أسفل عقبة تنوخ • وكذلك قبيلة عك التى اشتركت فى الفتح باعداد كبيرة فابن عبد الحكم يذكر أن جيش عمرو "كله من عك" (٤) •

وكانت غافق أحد بطون عك تمثل ثلث الجيش الذى قدم به عمرو لفتح مصر فيذكر ابن عبد الحكم "كانت غافق ثلث الناس" (٥) • ولذا اتسعت مساحة خطتها

---

(١) الكندى : الولاة والقضاة ص ٩٠ ، ١٧٤ ـ ١٧٦
(٢) ابن عبد الحكم : فتوح مصر ص ١٢٦ ـ ١٢٧
(٣) المصدر السابق ص ١٢١ •
(٤) المصدر نفسه ص ٥٦
(٥) المصدر السابق نفس الصفحة ، الكندى : الولاة ص ٨ •

التى كانت تقع بين خطتى مهرة ولخم (١) . ومن بطون غافق اختطت بالفسطاط قبيلة " حمير " وكان لهم بها زقاق باسمهم (٢) . " وخذ ران " (٣) وكان لهم بالفسطاط مسجدان ، ودهنه وبنو عبد الجبار حيث كان لهم بالفسطاط دارا عرفت بهم (٤) .

كما اختطت فى الفسطاط قبائل سلامان وكانت خطتها فى الحمراوات الثلاث (٥) وغنث (٦) وان لم يحدد ابن عبد الحكم موضع خطتهم الا أنه يؤكد أنهم اختطوا بالفسطاط منذ الفتح . كما اختط بنو بحر فى الحمراوات الثلاث (٧) . وكذلك اختط منهم " شراد " فى الحمراوات أيضا (٨) .

كما اختط بنو شبابة الأزد " فى الفسطاط منذ الفتح وان لم يحدد ابن عبد الحكم موضع خطتهم الا أنه يذكر أنه كان لهم مسجد عرف بالمسجد ذى المنارة (٩) . كما اختطت خثعم ومازن فى الفسطاط أيضا منذ الفتح وان لم يحدد ابن عبد الحكم موضع خطتها (١٠) .

كما اختطت قبيلة همدان وهى احدى قبائل كهلان منذ الفتح الذى لعبت فيه دورا بارزا (١١) .

---

(١) ابن عبد الحكم : فتوح مصر ص ١٢١ ، ١٢٢
(٢) المصدر نفسه ص ١٢٢
(٣) المصدر السابق ص ١٢٢
(٤) المصدر نفسه ص ١٢٢
(٥) السمعانى : كتاب الأنساب ص ٣٢٠
(٦) ابن عبد الحكم : فتوح مصر ص ١١٩ ــ ١٢٠
(٧) المصدر السابق : ص ١١٦ ، القلقشندى : صبح الاعشى ج ١ ص ١٤٩ ، ابن دقماق : الانتصار ج ٤ ص ٥
(٨) ابن دقماق : الانتصار ج ٤ ص ٥ ، القلقشندى : نهاية الارب ص ١٩٢
(٩) ابن عبد الحكم : فتوح مصر ١٢٠ (١٠) المصدر نفسه ص ١١٩
(١١) المصدر السابق ص ٦٢ .

كما اختطت قبيلة " كنده " وهى احدى قبائل مرة الكهلانية وقد شهدت الفتح باعداد كبيرة وان لم يحدد ابن عبد الحكم موضع خطتها • كما اختطت قبيلة السكاسك (١) وهم أحد بطون قبيلة كندة وقد اختطوا مع قبيلتى المعافر والسكون • كما اختطت قبيلة " تجيب " (٢) التى شاركت فى الفتح بدور كبير ممثلة فى بطونها : " بنو سعد " (٣) الذين اختطوا بالفسطاط وعرف أحد الطرقات باسمهم • وبنو سوم وكانت خطة أشهر شخصياتها قيسبة بن كلثوم بجوار حصن بابليون فتنازل عنها لتكون موضع المسجد الجامع ، كما اختطت قبيلة بنى عامر أحد بطون تجيب أيضا شرقى حصن بابليون (٤) •

كما اختطت قبيلة " لخم " وهى احدى قبائل كهلان أيضا فى الفسطاط خطة كبيرة كانت بمثابة ثلاث خطط (٥) • وقد انضم الى خطتهم فى بادئ الأمر بعض من اللفيف (٦) وهم مجموعة من القبائل العربية خرجت من الفسطاط وراء عمرو حين ذهب لقتال البيزنطيين فى الاسكندرية تشد أزره فسموا اللفيف لالتفافهم حوله وسنفصل الحديث عنهم فيما بعد • كما تبعهم فى الديوان قبيلة " خشين " احدى قبائل قضاعة • واختط من بطونهم " راشدة " و "يشكر " الأولى ظاهر الفسطاط حيث كان المسجد الذى عرف باسمهم • واختطت الثانية عند سفح الجبل (٧) الذى عرف باسمهم والذى أقام عليه ابن طولون مسجده فيما بعد •

---

(١) ابن عبدالحكم : فتوح مصر ص ١٢٦ ، ١٢٨

(٢) الكندى : الولاة ص ٤٤ ، ياقوت : معجم البلدان ج ١ ص ٧٦ — ٧٧ •

(٣) ابن عبدالحكم : فتوح مصر ص ١٢٢ ، الكندى : الولاة ص ١٦ •

(٤) السمعانى : الانساب ص ٥٤ ، ٤٤

(٥) ابن عبدالحكم : فتوح مصر ص ١١٩ ، ابن دقماق : الانتصار ج ٤ ص ٣ ، القلقشندى : نهاية الارب ص ٤١١

(٦) الكندى : الولاة ص ٧١ ، ابن دقماق : الانتصار ج ٤ ص ٤

(٧) ابن عبدالحكم : فتوح مصر ص ١١٨ ، ١٢١ ، النويرى : نهاية الارب ص ٣٦ •

كما شهدت قبيلة "جذام" الفتح واستقر بعضهم في الفسطاط في خطة لخم ، كما كان بعضهم في اللفيف كما كان الحال مع لخم .

كما شهدت "المعافر" الفتح وكانت خطتهم في بادئ الأمر حول جامع عمرو ثم نقلوا الى الجبل المشرف على البركة التي عرفت باسمهم بعد أن ضاقوا بالبعوض في خطتهم الاولى وبخاصة وقت الفيضان وقد شاركتهم حمير خطتهم الجديدة (١) ذات الموقع الممتاز حيث كانت تشرف منه على القبائل جميعا .

ومن بطونها التي اختطت في الفسطاط قبيلة "القرافة" حيث كانت خطتهم في الموضع الذي عرف باسمهم فيما بعد واتخذ موضعا لمقابر المسلمين (٢) . كما شهدت "خولان" الفتح واختطت بالفسطاط ، وكان لهم بها مصلى عرف باسمهم (٣) . وكان عمرو بن قحزم أشهر أفراد هذه القبيلة اذ كان أحد الاربعة الذين أسند اليهم عمرو مهمة توزيع الخطط بين القبائل (٤) .

كما اختطت قبيلة "مذحج" بعد أن شاركت في الفتح بين خطتي خولان وتجيب (٥) . ومن أشهر بطونها قبيلة مراد التي اشتركت في الفتح واختطت في الفسطاط . ومن بطون مراد اختطت قبيلتي زوف وعبس وكان لهم زقاق باسمهم في الفسطاط (٦) .

---

(١) ابن عبدالحكم : فتوح مصر ص ١١٩ .
(٢) المقريزى : الخطط جـ ٤ ص ٣١٨ـ ٣١٩ ، السمعانى : الأنساب ص ٤٤٥ .
(٣) ابن عبدالحكم : فتوح مصر ص ١٢٥ ، ١٤٢ ، المقريزى : الخطط جـ ٤ ص ٢٣٤ .
(٤) الكندى : الولاة ص ٦٠ و ٩٣ و ١٠١ و ١٠٢ و ١٠٦ ـ ١٠٧ و ١٤٩ .
(٥) ابن عبدالحكم : فتوح مصر ص ١٢٦ ، ابن دقماق : الانتصار جـ ٤ ص ٤ .
(٦) المصدر السابق : ص ١٢٦ ، ١٤٢ .

كما اختطت " وعلان " وهى احدى بطونها أيضا وراء حصن بابليون واتسعت خطتها حتى جاورت خطة خولان وتجيب . (١)
كما اختط " الاشمريون " (٢) ـ الذين شهدوا الفتح ـ فى الفسطاط وكانت خطتهم جزءا من خطة المعافر لقلة عددهم وأضيفوا الى المعافر فى الديوان .

كما اختطت قبيلة " حمير " وهى من القبائل القحطانية أيضا الى الجنوب من خطة خولان وفى شرقيها عند سفح الجبل (٣) الذى اختطت عليه المعافر .
كما شهدت قبيلة " قضاعة " الفتح واختطت فى الفسطاط ولقلة عددها فى بادئ الأمر لم يفرد لها سجل خاص فى الديوان وانما وزعت فى القبائل الاخرى .
ويذكر ابن عبد الحكم (٤) أن عمر بن الخطاب حول قبيلة " بلى " التى كانت تمثل ثلث قضاعة بالشام الى مصر . ومن بطون قضاعة التى اختطت فى الفسطاط " مهرة " (٥) التى لعبت دورا بارزا فى الفتح واختطت على سفح جبل يشكر فى بادئ الأمر ثم نقلهم عمرو فاختطوا بجوار المسجد الجامع وكان لهم بالفسطاط مسجدا ذو قبة سوداء (٦) وان لم ينفردوا فى الديوان بل أضيفوا الى السجل الخاص بكندة . كما اختطت بلى وهى أحد بطون قضاعة أيضا فى الفسطاط منذ الفتح الذى لعبت فيه دورا كبيرا حيث تولت ضرب حصن بابليون بالمنجنيق (٧) ، وكانوا ميمنة جيش عمرو وقد اختطوا فى الحمراوات الثلاث (٨) . وقد قدمت أعداد كبيرة منهم بعد معركة اليرموك

---

(١) ابن عبد الحكم : فتوح مصر ص ١٢٦ ، ١٤٢
(٢) المصدر السابق ص ١٢٦ ، السمعانى : الأنساب ص ٣٥٥
(٣) ابن عبد الحكم : فتوح مصر ص ١٢٦ ، ١٤٢
(٤) المصدر السابق ص ١١٦ ، المقريزى : البيان والاعراب ص ٣٠
(٥) ابن عبد الحكم : فتوح مصر ص ٧٦ ـ ٧٧
(٦) ابن عبد الحكم : فتوح مصر ص ١١٨ ، ١١٩ ،
ابن دقماق : الانتصار جـ ٤ ص ٣
(٧) ابن عبد الحكم : فتوح مصر ص ٦٢
(٨) المصدر نفسه ص ١١٦

باذن من عمر بن الخطاب (١) .
كما اختطت قبائل حضرموت التى شهدت الفتح مع خطة تجيب (٢) لقلة عددهم فى بادئ الأمر الا أنه فى عهد عثمان بن عفان قدم الى الفسطاط من الحضارمة ما يقرب من مائة نفس فاتخذوا لأنفسهم خطة مستقلة بالفسطاط شرقى خطة " سلهم " و " الصدف " (٣) وكانت الصدف أيضا قد شهدت الفتح وسجل لها عمرو دورها فيه بقوله " يوم لهمدان ويوم للصدف " (٤) كما أشرنا واختطت جنوب خطة مهرة ، وكما كانوا فى موطنهم الأصلى فى حضرموت مختلطين مع قبيلة كندة فقد احتفظوا بعلاقتهم تلك فى الفسطاط فلم ينفردوا بسجل خاص (٥) فى الديوان رغم كثرة عددهم فانضموا مع كندة فى الديوان .
كما اختطت " رعين " منذ الفتح شرقى خطة خولان الى الجنوب من خطة " مذحج " (٦) وكذلك اختطت قبيلة " الكلاع " (٧) واتصلت خطتها بخطة " رعين " كما اختطت قبيلة " يحصب " (٨) جنوب خطة المعافر . وهى جميعا بطون من قبائل حمير القحطانية التى اختطت فى الفسطاط منذ الفتح .

---

(١) ابن دقماق : الانتصار ج ٤ ص ٥
(٢) ابن عبد الحكم : فتوح مصر ص ١٢٢ ـ ١٢٣
(٣) المصدر السابق ص ١٢٣
(٤) المصدر نفسه ص ٦٢
(٥) ابن خلكان : وفيات الأعيان ج ٢ ص ٥٥٥
(٦) ابن عبد الحكم : فتوح مصر ص ١٢٥ ، ١٢٦ ، ابن دقماق : الانتصار ج ٤ ص ٤ ، النويرى : نهاية الارب ص ٢١٩ .
(٧) ابن عبد الحكم : فتوح مصر ص ١٢٦ ، ابن دقماق : الانتصار ج ٤ ص ٤
(٨) ابن عبد الحكم : ص ١٢٣ ، ١٢٦ ، الكندى : الولاة ص ٧٧ ـ ٧٨ ، ٤٠٢ ـ ٤٠٣ ، ابن دقماق : الانتصار ج ٤ ص ٤ .

الى جانب خطط القبائل التى فصلنا الحديث عنها آنفا ، كان بالفسطاط خطط ذات طابع خاص تشذ عن القاعدة العامة التى اتبعت وهى تخصيص خطة مفردة لكل قبيلة وهى خطة أهل الراية التى سبق الحديث عنها . والثانية خطة " اللفيف " وهم مجموعة من القبائل العربية خرجت من الفسطاط وراء عمرو حين ذهب لقتال البيزنطيين فى الاسكندرية تشد أزره فما أن رآها حتى قال : " تا الله ما رأيت قوما قد سدوا الأفق مثلكم وانكم لكما قال سبحانه : " فاذا جاء وعد الآخرة جئنا بكم لفيفا " (١) . فأطلق هذا الاسم عليهم (٢) ، وكان معظمهم من الأزد من قبيلة "الحجر " ومن غسان ومن شجاعة وبعض من جزام ولخم وتنوخ . وبعد عودتهم من الاسكندرية نزلوا معا فى خطة واحدة فى الفسطاط غير أن ابن عبد الحكم لم يحدد موضعها تماما .

أما الخطة الثالثة ذات الطابع المميز فهى خطط الحمراوات الثلاث :
يشير المؤرخون (٣) الى أن السبب فى اطلاق هذه التسمية على تلك الخطط هو نزول الروم بها ، وأولها الحمراء الدنيا وهى خطة بلى بن عمرو وخطة ثراد من الأزد وخطة بحر بن سوادة من الأزد أيضا . وثانيها الحمراء الوسطى وهى خطة ينه وهم قوم من الروم حضر الفتح منهم مائة رجل (٤) ، ومنها خطة هذيل بن مدركة بن الياس ومنها خطة بنى سلامان من الأزد وخطة عدوان . والحمراء القصوى وهى الثالثة وتشمل خطة بنى الأزرق وكان عددهم اذ ذاك أربعمائة وخطة بنى روبيل (٥) .

---

(١) سورة الاسراء آية ١٠٤ من القرآن الكريم .
(٢) المقريزى : الخطط ج ١ ص ٩٥
(٣) ابن عبد الحكم : فتوح مصر ص ١١٦ ، ١٢٩ ،
المقريزى : الخطط ج ١ ص ٢٩١ ،
ابن دقماق : الانتصار ج ٤ ص ٥
(٤) المقريزى : الخطط ج ٢ ص ٦٠
(٥) المصدر السابق نفس الصفحة ، ابن دقماق : الانتصار ج ٤ ص ٥ .

هذا ويذكر Casanova أنه كانت هناك حمراء رابعة سماها الحمراء الاولى .
ويذكر ابن عبدالحكم أنه " قدم مع عمرو بن العاص قوم من العجم يقال لهم الحمراء والفارسيون فأما الحمراء فقوم من الروم فيهم بنو ينه وبنو الازرق ، وبنو روبيل ، والفارسيون قوم من الفرس . وكان حامل لوائهم ابن ينه فقالت الروم والفارسيون انهم العرب وانا لا نأمنهم ونخاف الغدر من قبلهم . قالوا ما الرأى قالوا ننزل نحن فى طرف وأنتم فى طرف فان يكن منهم غدر كانوا بيننا ... فنزلت الروم الحمراء التى بالقنطرة ونزلت الفرس بناحية بنى وائل فمسجد الفارسيين هناك مشهور معروف ." (١)

ولكن تتضح من رواية ابن عبدالحكم أنه لم يكن بالفسطاط سوى حمراوين فقط وربما زيدت خطة ثالثة بعد أن ازدحمتا بالنازحين ويذكر المقريزى (٢) ان اسم الحمراء كان يطلق على المنطقة الواقعة بين الحصن وبين جبل يشكر حيث كانت موضعا لعدد من كنائس وديارات النصارى .

ومن ذلك يبدو أنه كانت بالفسطاط خطة لاقليات من الروم والفرس استقرت بها منذ الفتح .
كانت هذه خطط الفسطاط الاولى زمن الراشدين وسنحاول تتبع ما استجد عليها خلال العصور التى نقوم بدراستها .

---

(١) ابن عبدالحكم : فتوح مصر ص ١٢٩
(٢) المقريزى : الخطط ج ٢ ص ٢٠

(ب) اضافات العصر الأمـــوى :

شهدت الفسطاط فى العصر الأموى قدوم كثير من بنى أمية اليها وان لم تبدأ اقامتهم الفعليـة فى الفسطاط الا فى النصف الثانى من القرن الأول حتى أن عبد العزيز ابن مروان شعر بأنه ازاء بلد " ليس به أحد من بنى أبيه ." (١)
ومنذ بداية القرن الثانى بدأت هجرة قيس الكبرى الى مصر حين طلب ابن الحبحـاب من الخليفـة هشام سنة ١٠٩ هـ / ٧٢٧ م الموافقـة على انتقال عدد من قبيلـــة قيس الى مصر .. هذا وان كانت الفسطاط قد شهدت منذ الفتح استقرار عـــدد من القبائل القيسية ممثلـة فى قبائل أشجع وعبس وثقيف وفهم وعدوان (٢) . وقـــد ازداد عدد عبس بعد توليـة قرة بن شريك مصر ٩٠ ـ ٩٦ هـ / ٧٠٨/٧١٤ م . كما اختط فى الفسطاط فى منتصف القرن الاول جماعة أخرى من الأزد الذين كـــان بعضهم قد شهد الفتح واختط فى الفسطاط منذ البداية حيث كانوا جزءا كبيرا من جيش عمرو (٣) . واختطت جماعة الأزد الجديدة فى الظاهر بجوار خطتى تجيـــب وغافق سنة ٤٥ ـ ٥٣ هـ / ٦٦٥ ـ ٦٧٢ م حين نفى زياد بن أبيه حاكم البصـــرة قوما منهم فاتجهوا الى الفسطاط (٤) .

ويذكر ابن عبد الحكم أن معاوية كتب الى والى مصر مسلمة بن مخلد ٤٧ ـ ٦٢ هـ / ٦٦٧ ـ ٦٨١ م " لا تولى عملك الا أزدى أو حضرى فانهم أهل الأمانة" (٥).

---

(١) الكندى : الولاة ص ٤٧
(٢) ابن عبد الحكم : فتوح مصر ص ١٠٨ ـ ١٣١ ، ١١٧ ، ١٢٦
(٣) ابن عبد الحكم : فتوح مصر ص ١٢٢
(٤) المصدر نفسه ص ٩٨ ، ١١٦ ، ١١٩ ، ١٢٠ ، ١٢١
(٥) المصدر نفسه ص ٩٥

مما يبين كثرة عددهم من جهة والمركز الوضع الذى كان لهم من جهة أخرى .

وفى عهد بشر بن صفوان الكلبى ١٠١ هـ / ٧١٩ م والى مصر زاد عدد أفراد " قضاعة " لأنه كان أحد أبنائها ، وقد أعاد تنظيم الديوان فاستخرج بطون قضاعة من القبائل الملحقة بها ، وجعل لها سجلا خاصا وذلك فى التدوين الرابع للديوان سنة ١٠٢ هـ / ٧٢٠ م (١) . فأخرجت قبيلة مهرة التى كانت قد اختطت على سفح جبل يشكر (٢) فى بادئ الأمر ، ثم نقلهم عمرو فاختطوا بجوار المسجد الجامع الا أنهم ظلوا مسجلين فى الديوان مع كندة حتى أخرجهم بشر بن صفوان فى تدوينه الرابع للديوان (٣) . ومن بطون قضاعة اختطت فى الفسطاط أيضا قبيلة " كلب " وذلك فى أوائل القرن الثانى الهجرى (٤) . كما سجلت قبيلة تنوخ التى اختطت مع اللفيف (٥) بينما كانت مسجلة فى الديوان مع الأزد . سجلت مع سائر بطون قضاعة (٦) .

(جـ) اضافات العصر العباسى :

اختط بالفسطاط مع قيام الدولة العباسية بنو طابخة وهى احدى القبائل المضريه متمثلة فى قبيلتى تيم ومزينه التى كانت قد شهدت الفتح وأدمجت فى خطة أهل الراية لقلة عددها (٧) . ويذكر الكندى منهم فى الفسطاط الفقيه الشافعى

---

(١) الكندى : الولاة ص ٩٧ ، ٩٨
(٢) ابن عبدالحكم : فتوح مصر ص ٧٦ ، ٧٧
(٣) الكندى : الولاة ص ٧٠ ـ ٧١
(٤) المصدر السابق ص ٧٠ ـ ٧١
(٥) ابن دقماق : الانتصار جـ ٤ ص ٤
(٦) الكندى : الولاة ص ٧٠ ـ ٧١
(٧) الكندى : الولاة ص ١٠٦ و ١٠٨ و ١٢٣ ، أبو المحاسن : النجوم جـ ١ ص ٣٤٥ ، جـ ٢ ص ٤٧ ، ابن دقماق : الانتصار جـ ٤ ص ٣ .

أبو ابراهيم المازنى (١) الذى توفى سنة ٢٦٤ هـ / ٨٧٧ م .

كما اختط فى الفسطاط بنو شيبان ـ وهم أحد قبائل ربيعة ـ فى بداية القرن الثالث الهجرى حين تولى امرة مصر أحد أمراء بنى شيبان وهو خالد بن يزيد الشيبانى ١٤٤ ـ ١٤٧ هـ / ٧٦١ ـ ٧٦٤ م فقدم مع جيش من ربيعة وشيبان بخاصة فاختطوا فى الفسطاط منذ ذلك الوقت .

كما اختط فى الفسطاط فى أواسط القرن الثانى كثيرون من الأنصار وخزاعة التى كانت قد اشتركت فى الفتح وكان لهم بالفسطاط داران ولكن نظرا لقلة عددهم كانوا من أهل الراية (٢) . وحين ولى مصر محمد بن الاشعث ١٤١ ـ ١٤٣ هـ / ٧٥٨ ـ ٧٦٠ م جاء كثير منهم واختطوا بالفسطاط كما قدم آخرون مع قدوم المطلب الذى ولى مصر سنة ١٩٩ هـ / ٨١٤ م واستقروا بالفسطاط وعرف أحد أزقة الفسطاط باسمهم فسمى زقاق المطلبية (٣) .

كما ازداد عدد أفراد قبيلة " خشين " احدى قبائل قضاعة حين استقدم العباسيون عددا كبيرا منهم من فلسطين فى أواخر القرن الثانى وكانوا من قبل لقلة عددهم يتبعون قبائل لخم فى الديوان (٤) .

---

(١) الكندى : الولاة ص ٥٠٨ ، ٥٠٩

(٢) ابن عبدالحكم : فتوح مصر ص ٩٨ و ١١٤ ـ ١١٧ ،
الطبرى : تاريخ الرسل والملوك ج ٣ ص ٢٦٤ ، ٢٦٥ ،
ابن دقماق : الانتصار ج ٤ ص ٣

(٣) الكندى : الولاة ص ١٠٨ و ١٠٩ ،
أبو المحاسن : النجوم ج ١ ص ٣٤٧ ، ابن دقماق : الانتصار ج ٤ ص ٢٣ .

(٤) الكندى : الولاة ص ٧١ ، ابن دقماق : الانتصار ج ٤ ص ٤ .

لم يشر ابن عبد الحكم الى أية تغييرات طرأت على خطط الفسطاط بعد انشاء الطولونيين لعاصمتهم الجديدة التى لم تكن فى الواقع سوى امتداد للفسطاط ونموها لها كما سنوضح فيما بعد .. ويمكننا أن نستنتج مما أشار اليه الكندى من حفر ابن طولون لعين للمياه فى خطة المعافر (١) بعد أن شكوا اليه بعد الماء عنهم أنه كان حريصا على حل مشاكل القبائل المستقرة فى الفسطاط ، فلم يشغله عنهم اهتمامه بالقطائع التى كانت خططا للعناصر الجديدة التى طرأت على المجتمع العربى فى القرن الثالث الهجرى من الفرس والترك والروم . (٢) بينما ظلت الفسطاط خططا للقبائل العربية التى اختطت بها منذ الفتح واستمرت فى الهجرة اليها .

من أهم ما استجد فى العصر الاخشيدى ارتفاع مكانة الطالبيّن أو العلويين فكانوا يخاطبون الواحد منهم بالشريف (٣) . وقد ولى نقابة الطالبيين فى الفسطاط زمن كافور الاخشيد الشاعر أبو القاسم أحمد بن محمد بن اسماعيل طباطبا المتوفى سنة ٣٥٢ هـ / ٩٦٢ م .

وقد كان للطالبيين نقيب بالفسطاط يعينه الوالى .. وقد ارتفع شأن أسرة طباطبا فى الفسطاط ، وفى القرافة مشاهد كثيرة لافراد هذه الاسرة (٤) . وقد كانت وساطة العلويين وشفاعتهم تجد قبولا لدى الأمراء الاخشيديين (٥) .

---

(١) الكندى : الولاة ص ٢٥٥ ـ ٢٥٦ ، ١١٥ ويذكر أنهم كانوا قد شكوا من قهل ليزيد بن حاتم بعد الماء عنهم " فبنى لهم سقاية عرفت باسمهم " وأجرى الماء اليها من ساقية أبى عون وأنفق عليها مالا عظيما " .

(٢) البلوى : سيرة ابن طولون ص ٥٤ ـ ٥٥ .

(٣) ابن الزيات : الكواكب السيارة ص ٦١

(٤) المرجع السابق ص ٥٩ ـ ٦٤

(٥) الكندى : الولاة والقضاة ص ٥٧٦ ، ابن خلكان : وفيات الاعيان ج ١ ص ١٣٧ ـ ١٣٨ .

امتداد حواضر مصر الاسلامية :

وفى سنة ١٣٣ هـ / ٧٥٠ م نزل جند العباسيين فى ذلك الفضاء الذى كان يقع شمالى الفسطاط فيما وراء جبل يشكر وبنوا فيه دارا جديدة للامارة ومسجدا جامعا عرف بجامع العسكر (١).

وفى سنة ٢٠٠ ـ ٢٠٥ هـ / ٨١٥ ـ ٨٢٠ م أذن للناس بالبناء حول العسكر وكثرت فيها العمارة حتى اتصلت بالفسطاط " وصارت العسكر مدينة ذات محال وأسواق ودور عظيمة ". (٢)

واذا كانت المصادر لا تذكر خطط العسكر على وجه التفصيل الا أن أبا المحاسن (٣) يشير الى خطة من خطط العسكر سميت " بالموقف " فى معرض حديثه عن الدار التى شيدها ابراهيم بن صالح بن على حين قدم العسكر.

ويبدو أن سبب تسمية تلك الخطة بالموقف الى أن هذا الموضع كان قد اتخذ موقفا لدواب المسلمين ، نستنتج ذلك مما ذكره المقريزى فى خططه (٤). فقد أشار الى أن العسكر كانت تمثل خطة من خطط الفسطاط التى سكنتها قبائل من غير العرب وهى خطة الحمراء القصوى وذكر أنه انحسر بعد الفتح بأعوام ماء النيل عن أرض تجاه الحصن والجامع العتيق فصار المسلمون يوقفون هناك دوابهم ثم اختطوا فيه

---

(١) المقريزى : الخطط جـ ١ ص ٣٠٤ ،
الكندى : الولاه ص ١١٥

(٢) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة جـ ٢ ص ٤٩

(٣) المصدر السابق نفس الصفحة ، ابن عبد الحكم : فتوح مصر ص ١٢٠

(٤) المقريزى : الخطط جـ ١ ص ٣٠٤ ـ ٣٠٥ ، جـ ٢ ص ٦٠

المساكن شيئا فشيئا .» (١)

والواقع أن مدينة العسكر لا تعدو أن تكون امتدادا للفسطاط من جهة الشمال الشرقي وليس أدل على ذلك من أن شرطة العسكر كان يطلق عليها اسم " الشرطة العليا " على اعتبار أنها في الشمال في حين كان يطلق على شرطة الفسطاط " الشرطة السفلى " (٢) لأنها تقع الى الجنوب منها .. مما يشهد باتصال العمارة بينهما ، وأن العسكر لم تكن سوى امتداد طبيعي للفسطاط ، ولم يتغير من الوضع القائم في الفسطاط شيئا سوى انتقال دار الامارة الى العسكر ، وأن العسكر والفسطاط لم تكونا سوى مدينة واحدة .

ثم شهدت الفسطاط امتدادا آخر حين أسس أحمد بن طولون القطائع سنة ٢٥٦ هـ / ٨٦٩ م فاختار المنطقة الواقعة بين جبل يشكر حد الفسطاط الشمالي وبين سفح المقطم ، وكان هذا الموقع يعرف بقبة الهواء (٣) وهي الدار التي شيدها حاتم بن هرثمة في العسكر سنة ١٩٤ هـ / ٨٠٩ م وأطلق عليها ذلك الاسم . وكان ابن طولون قد نزل كمن سبقه من أمراء العباسيين دار الامارة بالعسكر ، وقد

---

(١) المقريزي : الخطط جـ ٢ ص ٦٠

(٢) المصدر السابق جـ ١ ص ٣٠٤ ،

M. Sohernheim : History of the town of Fustat. Ency. of Islam p. 817.

(٣) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة جـ ١ ص ٣٠٦ ـ ٣٢٧ ، جـ ٢ ص ٤٩ ، البلوى : سيرة أحمد بن طولون ص ٥٣ .

وصفها البلوى (١) فذكر مدى اتساعها وتعدد أبوابها .

اختط ابن طولون قصره الشهير فى الموضع الذى كان فضاء بين جبل يشكر وبين سفح المقطم ، وكانت هناك بضع قبور لليهود والنصارى فهدمها (٢) . ثم أمر أصحابه وغلمانه أن يختطوا حوله فأقطع كلا منهم قطعة بنى بها دارا ، وكانت كل قطعة تعرف باسم من اتخذها ، فكانت قطيعة السودان وقطيعة الروم ، كما جعل قطائع خاصة للحرف والتجارات " سمى منها سوق العيارين يجمع فيه البزازين والعطارين ، وسوق القيامة يجمع فيه الجزارين والبقالين والشوائين ، وسوق الطباخين يجمع الصيارفة والخبازين وأصحاب الحلواء ، ثم لكل صنف من جميع الصنائع أفرد له سوقا حسنا . " (٣)

ولقد كان هذا التخطيط تقليدا للأساليب العراقية أو تقليدا لتخطيط مدينة سامرا التى أنشأ المعتصم . وقد التزم نفس الأسلوب فى تقسيم الأسواق وافراد القطائع لأرباب الحرف (٤) فعرفت المدينة لذلك باسم القطائع (٥) . وهى فى ذلك تختلف عن تخطيط الفسطاط التى اختطت على أساس قبلى حيث وزعت خططها على القبائل المختلفة .

---

(١) البلوى : سيرة أحمد بن طولون ص ٥٣

(٢) الكندى : الولاة ص ٢١٥ ، البلوى : سيرة ابن طولون ص ٣٢٧ .

(٣) البلوى : سيرة أحمد بن طولون ص ٥٤

(4) Wiet : l' Egypte Arabe p. 109.

(٥) الكندى : الولاة ص ٢٥١ ، ابن دقماق : الانتصار ج ٤ ص ١٢١ — ١٢٢ .

ويشير البلوى الى عمارة القطائع بقوله " اختط الناس وبنوا حتى اتصل البناء بعمارة البلد وهى هذه الدور الشارعة من حد قيسارية بن بسدر الى سوق الدواب واتصل البناء والعمارة من الجانب الآخر الى أن جاوزت المدينة (١).

وقد حول ابن طولون السهل الممتد بين قصره وبين جبل يشكر الى ميدان كبير للاستعراضات الرياضية والعسكرية (٢) . وامتدت عمارة القطائع حتى اتصلت بالفسطاط وصارت امتدادا لها .

وقد وصف ابن حوقل مدينة الفسطاط كما شهدها فى النصف الأخير من القرن الرابع الهجرى بقوله : " والفسطاط مدينة حسنة ينقسم النيل لديها وهى كبيرة ثلث بغداد ومقدارها نحو فرسخ " (٣).

وهو هنا يصف الفسطاط بضاحيتها أو امتداديها المسكر والقطائع حيث غلب اسم الفسطاط عليها ، فابن حوقل يصف الفسطاط فى أوج ازدهارها وعمارتها . كما يقول ابن سعيد : " كان خارج الفسطاط أبنية بناها أحمد بن طولون ميل فى ميل تعرف بالقطائع كما بنى بنو الاغلب خارج القيروان رقادة " (٤).

---

(١) البلوى : سيرة أحمد بن طولون ص ٥٣

(٢) الكندى : الولاة ص ٢١٥

(٣) ابن حوقل : صورة الارض ص ١٤٦

(٤) ابن سعيد : كتاب الاغتباط فى حلى مدينة الفسطاط ص ١٠

دروب الفسطاط وأزقتها :

يذكر ابن عبد الحكم في معرض حديثه عن خطط الفسطاط أسماء بعض الدروب المشهورة مثل درب حوّى البحري الذى ينسب الى دار مشهوره فى ذلك الدرب تعرف باسم دار حوى" . يستنتج من هذا أن أسماء بعض الدروب كانت تأخذ نسبتها الى أسماء الدور المشهورة بها (١) أو نسبة الى بعض من اشتهر من أهلها بحرفة معينة مثل درب السراجين (٢) .

هذا ويعدد ابن دقماق والمقريزى أسماء دروب أخرى بالفسطاط مثل درب " بادى" ودرب " عمار " ودرب " البقالين " ودرب الحبالين " ودرب الأعلام " حيث كانت تنصب عليه البنود فى الأعياد (٣) .

كما يصف المقريزى دروب الفسطاط وأزقتها بالضيق بقوله : " وأزقة الفسطاط وشوارعها ضيقة " . (٤)

والواقع أن الحفريات التى قام بها على بهجت (٥) كشفت عن مجموعة مختلفة الاتساع والامتداد من الطرقات لا يزيد عرض أكبرها عن ستة أمتار ، وأضيقها لا يتجاوز مترا ونصف متر . ومن العسير التوفيق بين الدروب والحوارى التى كشفت وبين ما ذكره كل من ابن دقماق والمقريزى لأنّ المنطقة التى تم الحفر فيها كانت خرابا وقت أن كتب

---

(١) ابن عبد الحكم : فتوح مصر ص ١٢٠

(٢) المصدر السابق ص ١٠٨ و ١١٢ و ١١٩ و ١٢١ و ٢٤٤ .

(٣) ابن دقماق : الانتصار ج ٤ ص ٢٥ - ٢٦

(٤) المقريزى : الخطط ج ١ ص ٣٣٩ .

(٥) على بهجت : حفريات الفسطاط ص ٣٧ .

ابن دقماق والمقريزى كتابيهما فى خطط الفسطاط (١).

يخيل الى أن تسمية طرقات الفسطاط باسم شارع أو حارة أو درب أو زقاق ترتبط بعرضها واتساعها . فالاكثر اتساعا سمى شارعا والاقل حارة والاقل دربا والاقل من الدرب اتساعا أطلق عليه اسم زقاق .

يستنتج مما ذكره المقريزى عن والى مصر يحيى بن داود ١٦٢ هـ ـ ١٦٤ هـ / ٧٧٨ ـ ٧٨٠ م ومنعه اغلاق الدروب والحوانيت (٢) أنه كانت للدروب أبوابا تغلق ليلا . وقد أثبتت الحفريات ذلك فقد عثر على عتبة باب من " قبيل عتبات الابواب التى كانت تغلق فى ذلك العهد وكان لهذا الباب مصراعان "(٣).

ولم تظهر الحفريات أن تلك الدروب كانت مبلطة اذ لم يعثر مطلقا فى أى موقع من مواقع المدينة على أثر للبلاط أى مادة أخرى فرشت بها الارض (٤). كما لم تثبت الحفريات ما اذا كانت الدروب يعلوها قباب أو سقائف وان كان ابن دقماق (٥) يحدثنا عن كثير من السقائف مثل سقيفة الزوايا التى تعلو سويقة ابن العجمية ، وسقيفة مسجد العتبة ، كما يبدو من رواية ابن دقماق أن بعض الدروب المسدودة كانت مسقوفة كسقيفة الكباد " التى كان أسفلها كباد عنده أقواس يعلم الرمى ."(٦)

كما يذكر ابن عبد الحكم أسماء بعض السقائف مثل سقيفة الغزل وسقيفة تركى (٧) وان لم يفسر سبب تسمياتها بتلك الاسماء ، ولكنه يضيف أن سقيفة جواد كانت تفصل

---

(١) على بهجت : حفريات الفسطاط ص ٣٧.
(٢) المقريزى : الخطط ج ١ ص ٣٠٧
(٣) على بهجت : حفريات الفسطاط ص ٣٨
(٤) المرجع السابق ص ٣٩
(٥) ابن دقماق : الانتصار ج ٤ ص ٤٦
(٦) المرجع السابق ج ٤ ص ٣٦
(٧) ابن عبد الحكم : فتوح مصر ص ١٢٠

ما بين خطة غافق عن يسارها وخطة الصدف عن يمينها (١). كما يذكر أن سقيفة ابن بنه كانت فى خطة الحمراء (٢).

أما الرحاب : فهى عبارة عن اتساع عند ملتقيات بعض الدروب ولم يذكر ابن عبدالحكم (٣) سوى رحبة واحدة هى رحبة السو... التى بنى بها مسجد لبنى شبابه احدى قبائل فهم ولم يذكر سبب تسميتها بذلك الاسم . بينما يعدد ابن دقماق أسماء بعض الرحاب مثل "رحبة دار الانماط " التى تقع أمام الدار المشهورة بدار الانماط (٤) ، و" رحبة عقيل " و " رحبة أبى رجب " ويبدو أن هذه الرحاب لم تكن من السعة بحيث يمكن أن نطلق عليها اسم " ميدان " . وكان بالكوفة ما يشبه تلك الرحاب أو مفارق الطرق وكان يطلق عليها اسم " جهارسوج " وهى كلمة فارسية معناها الجهات الاربع وكان من أشهرها جهارسوج خنيس ، وجهارسوج كنده وجهارسوج همدان (٥).

ويذكر ابن عبدالحكم (٦) أسماء بعض الأزقة المشهورة بالفسطاط مثل " زقاق القناديل " الذى كان يطلق عليه اسم زقاق الاشراف لأن دار عمرو بن العاص كانت تقع على طرفه ودار كعب بن ضنة على الطرف الآخر وفيما بينهما دور كبار

---

(١) ابن عبدالحكم : فتوح مصر ص ١٢١ - ١٢٢

(٢) المصدر نفسه ص ٩٣ ؟

(٣) ابن عبدالحكم : فتوح مصر ص ١٢٠

(٤) ابن دقماق : الانتصار ج ٤ ص ٣٥ - ٣٦

(٥) ابن سعد : الطبقات الكبير ج ٦ ص ٢٤٢ ، ٢٨٥

(٦) ابن عبدالحكم : فتوح مصر ص ١١١ - ١١٢ " كانت توضع القناديل على أبواب دور الاشراف التى بالزقاق ولذا سمى بزقاق القناديل " المقريزى : الخطط ج ١ ص ٣٣٩ ، ويذكر ابن دقماق أن سبب تسمية زقاق القناديل بذلك الاسم بأنه " كان برسمه قنديل على باب عمرو . " ابن دقماق : الانتصار ج ٤ ص ١٣

الشخصيات التى اشتركت فى فتح مصر ويذكر كذلك زقاق أشهب الذى تقع على جانبيه كل من خطتى غافق والازد ، وزقاق الهلالية وزقاق أبى حكيم ، وزقاق المكى ، وزقاق الموزه ، وزقاق وردان (١) . كما يشير ابن دقماق الى " زقاق الصنم " ويقول أنه سمى بهذا الاسم لوجود صنم به كان يسمى " سرية أبى الهول " ويتفق هذا مع ما رواه ابن الفقيه (٢) عن وجود تمثال من الحجر لامرأة بالفسطاط ، وما رواه المقدسى من أن " فى الفسطاط عند قصر الشمع امرأة ممسوخة على رأسها سفرة من حجر" (٣) .

وبمقارنة دروب الفسطاط وأزقتها بمثيلاتها فى مدينة الكوفة نجد أن شوارع الكوفة التى كانت تسمى بالسكك أكثر اتساعا فعرض السكة كان خمسون ذراعا مثل سكة " شبث " فى منازل تميم وسكة " العلاء بن محرز " فى منازل قريش (٤) . وكان يطلق على كثير من السكك أسماء بطون القبائل التى كانت تسكن جوانبها وهى من هذه الناحية لا تختلف عن الفسطاط فمنذ تخطيط الكوفة قسمت فيها الشوارع والطرقات العامة ابتداء من الجامع باعتباره مركز الحياة (٥) كما كانت سككها تضاء ليلا (٦) بواسطة مشاعل كما كان الحال فى الفسطاط .

أما فى البصرة فكان هناك الطريق التجارى الكبير الذى يخترقها من الغرب الى الشرق أى من " المربد " محل اناخة الابل وتفريغ البضائع الى الفرض. (٧)

---

(١) ابن دقماق : الانتصار ج ٤ ص ٢١ ـ ٢٢
(٢) ابن الفقيه : كتاب البلدان ص ٦٠
(٣) المقدسى : أحسن التقاسيم ص ٢١١ طبعة ليدن
(٤) ماسينيون : خطط الكوفة ص ١٧ ـ ١٨
(٥) الطبرى : تاريخ الطبرى ج ٣ ص ١٤٨
(٦) ماسينيون : خطط الكوفة ص ١٧
(٧) صالح العلى : التنظيمات الاقتصادية والاجتماعية بمدينة البصرة ص ٦ .

بيوت الفسطاط :

أشار ابن عبد الحكم عند حديثه عن خطط القبائل فى الفسطاط الى الدور التى أنشئت بتلك الخطط فعددها وذكر أسماءها ، الا أن وصفه لها لا يتعدى الوصف العام .

ويمكننا أن نستنتج مما ذكر أن الدور[١] فى أول الأمر كانت بسيطة فى تخطيطها ، كما كانت ذات مساحة كبيرة اذ يذكر أن عبدالله بن عمرو بن العاص اختط " هذه الدار الكبيرة التى عند المسجد وهو الذى بناها هذا البناء وبنى فيها قصرا على تربيع الكعبة الأولى . "[٢] فهذا يدل على مدى اتساعها بحيث كان يسمح ببناء قصر بداخلها كما يدل على بساطة تخطيطها على نسق الكعبة الأولى .

كما يدل تعدد أبواب بعض الدور التى تطل على شوارع مختلفة على اتساع الرقعة التى بنيت عليها مثل دار العمد التى ذكرها ابن عبدالحكم وذكر أن " بابها فى زقاق القناديل وبابها الآخر مما يلى دار البركة من هناك راجعا الى سوق بربر الى قصر ابن جبر . "[٣]

والواقع أن اتساع رقعة الفسطاط وخلوها من الأبنية فيما عدا الحصن الذى كان يعرف بقصر الشمع أتاح لأهلها فرصة اقامة دور فسيحة ، الا أنه بمرور الوقت وزيادة عدد السكان وازدياد المساكن صغر حجم المساحة المخصصة للمسكن .

---

(١) ابن عبدالحكم : فتوح مصر ص ٩٧ .
(٢) المرجع السابق نفس الصفحة
(٣) ابن عبدالحكم : فتوح مصر ص ١٠٩

ويستنتج أيضا من رواية ابن عبد الحكم أن المادة التى كانت تبنى بها الدور لم تكن كلها الحجارة (١) .

ويرجح أنها كانت مبنية باللبن حيث أن سمك جدارها كان ذراعين بذراع البناء وهذا لا يتأتى الا باستعمال اللبن (٢) . وقد أدى استعمال اللبن كمادة لبناء الدور فى تلك الفترة المبكرة الى سرعة تهدم تلك الدور واختفائها . كما أن المساكن التى أنشئت بالعسكر اندثرت هى الأخرى حتى ان السرى بن الحكم ٢٠٠ هـ ٢٠٥ هـ / ٨١٥ ـ ٨٢٠ م أذن الناس بالبناء فى العسكر مرة ثانية فامتدت عمارتها حتى اتصلت بالفسطاط (٣) .

ولكن هذا لا يعنى أن الدور الأولى بالفسطاط لم تكن تبنى الا من اللبن اذ تشير المصادر (٤) الى استخدام الحجارة والأعمدة الرخامية التى كانت تؤخذ من مبان قديمة مثل دار عبد الرحمن الفهرى التى جعلها " تدور بعمد رخام وجعل قاعتها مستديرة ولم يجعل فوقها بناء . " (٥) وكذلك الدار التى شيدت على جبل المقطم وعرفت "بقبة الهواء " التى بناها حاتم بن هرثمة أحد ولاة مصر سنة ١٩٥ هـ / ٨١٠م واستمرت قائمة حتى عصر الطولونيين . (٦)

ويبدو أن بعض الدور كان بها حمامها الخاص مثل الدار التى اختطها أبو ذر الغفارى " دار العمد ذات الحمام " (٧) ودار السلسلة التى أقطعها عبد العزيز الفهرى مولى ابن رمانة وبناها له يزيد بن رمانة وجعل بها حماما (٨) .

---

(١) ابن عبد الحكم : فتوح مصر ص ١١٢

(٢) على بهجت : حفريات الفسطاط ص ٢٩ ـ ٣٠

(٣) المقريزى : الخطط جـ ١ ص ٣٠٤ " فلما خرج صالح بن على من مصر خرب أكثر ما بنى فيه الى زمن موسى بن عيسى الهاشمى فابتنى فيها دارا نزل فيها حشمه وعبيده وعمر الناس ثم ولى السرى بن الحكم فاذن للناس فى البناء فيه وصار مملوكا بأيديهم واتصل بناؤه ببناء الفسطاط . "

(٤) ابن عبد الحكم : فتوح مصر ص ١٣٥ . (٥) المصدر السابق نفس الصفحة

(٦) المقريزى : الخطط جـ ٢ ص ٢٠٢ (٧) ابن الحكم : فتوح مصر ص ١٠٩

(٨) المرجع السابق ص ١٣٥ .

أما الدور التى عثر على أطلالها بعد الحفريات التى أجريت فى موقع الفسطاط ، فانها ترجع جميعا الى الفترة التى ولى فيها حكم مصر أحمد ابن طولون. والمعروف أنه الى القرن الرابع الهجرى كانت الفسطاط آخذة فى النمو الا أنه سعى اليها الخراب فى نهاية عهد المستنصر سنة ٤٨٧ هـ / ١٠٩٧ م ومعنى هذا أن المنطقة التى تم الكشف عنها (١) وأجريت فيها الحفريات كانت فى خرائب المدينة التى وصفها كل من ابن دقماق والمقريزى .

على كل حال أسفرت تلك الحفريات عن العثور على بقايا دور لم يزد ارتفاع جدرانها عن ثلاثة أمتار فى معظم الأحوال ولم تكن هذه الجدران تحمل أى نوع من السقوف الأمر الذى جعل الاهتداء الى التخطيط الأصلى بالغ الصعوبة . وقد اهتم على بهجت بثمانية من هذه الدور فاستكمل الكشف عن بقاياها وسجل ما عثر عليه فى رسوم لمساقطها الأفقية بالاضافة الى ثلاثة منازل اكتفى بوصفها .

لوحظ أن كل دار منها كانت تحتوى على فنائين متجاورين الفناء الاول تحيط الأروقة بثلاثة من جوانبه . والرواق يفضى الى قاعة كبيرة تكتنفها حجرتان أو أكثر . ويبدو أن نظام الدار ذات الفنائين المستقلين اللذين تحيط بكل منهما قاعات وملحقات أملته ظروف احتجاب النساء عن الغرباء فخصص لهن فناء مستقل بملحقاته وجعل الفناء الاخر لرب الدار والغرباء . (٢)

---

(١) على بهجت : حفريات الفسطاط ص ٢٩ ـ ٣٠

(٢) المرجع السابق ص ٥٢ .

كما لوحظ أن تصميم الدار يعتمد على محورين متعامدين يلتقيان فى فنـاء تختلف الغرف المحيطة به فى المساحة والنسب وفى كل جانب من جوانب الفنـاء رواق له ثلاثـة فتحات تختلف فى الضيق والسعة ، الفتحة الوسطى أوسع من الفتحتـين الجانبيتين ويفصلهما كتفان مبنيا ن بالآجر • وفى سمت الرواق قاعة كبيرة يزيد طولهـا عن عرضها وتكتنفها من الجانبين حجرتان صغيرتا ن منعزلتان عنها • وفى الجوانـب الثلاثـة الأخرى من هذا الفناء أواويـن مختلفـة الاتساع (١) •

ويلاحظ من تخطيط تلك الدور أن الرواق ذو الفتحات الثلاث الذ ى يوءد ى الى الغرف الرئيسية بالمسكن كان يتجه الى الشرق أو الى الشما ل الشرقى رغبة فـى تلطيف هواء المنزل • كما كان الفناء غير مسقوف حتى يوفر للقاعة الكبيرة الهواء الطلق •

ويرجح على بهجت وجود شبه بين هذا الرواق ذ ى الفتحات الثلاث وبـين البروستاس (الصدر من قسم الحريم) فى البيوت الهللنستية • ووجود شبه أيضـا بينه وبين القاعة (الأيوكس) (٢) وهى غرفـة الاستقبال •

كما حلت فى الفسطاط الاواوين محل الأروقة فى البيت اليونانى (٣) • ولكـن على بهجت ينفى وجود أى علاقـة بين الأواوين التى تلازم الفناء وتعد فى طليعـة الغرف وبين الوضع الأفقى الصليبى المشاهد فى الكنائس اليونانية والسوريـة ذات القباب الدائرية • (٤)

---

(١) على بهجت : حفريات الفسطاط ص ٨٥

(2) R.E . Wycherley : How the Greeks built cities p. 175 - 207.

(3) ibid

(٤) على بهجت : حفريات الفسطاط ص ٩٢ ـ ٩٣ •

وكان يراعى عند التخطيط أن يكون مدخل الدار من احدى الفتحات بجوانب الاواوين أى أن يكون على خط منكسر " على شكل كوع " لحجب ما يجرى فى الفناء أو القاعة عن أنظار من بالخارج • وهذا تطور جديد فى عمارة المنازل والدور اذ أن هذا المدخل ـ بهذا الشكل ـ كان وقفا على العمارة الحربية ، فى حين أن المنازل السابقة على العصر الاسلامى كانت مداخلها جميعا على خط مستقيم مع محور الدار أو الفناء الداخلى •

ويتبين من الحفريات كذلك أن سكان الفسطاط كانوا يتعمقون فى حفر الأساس حتى الصخر ، وأن الأسس كانت من ثلاثة أنواع : نوع بنى (بالدبش) والآخر بالآجر وهو الغالب ، ونوع آخر بكتل الطين واللبن وهو نادر • والآجر الذى كان يستخدم فى البناء كان أحمر داكنا متجانسا مستوفى الحرق ، شديد الصلابة ، مستطيل الشكل • وكان البناءون يدخلون فى بعض الأحيان مداميك من الآجر القائم على سيفه لتزيد قوة مقاومته للضغط الواقع عليه (١) •

كما لوحظ فى بعض الدور متقنة البناء أن أصحابها كانوا يفرشون الحيطان وأرض الغرف ببلاط من الحجر المستطيل يوضع متواترا أو بترابيع مختلفة الشكل والمقاسات أو على شكل فسيفساء مؤلفة من قطع صغيرة من الحجر الأبيض • (٢)

كانت معظم الدور فى بادئ الأمر فى الفسطاط ذات طابق واحد اذ لم يكن هناك داع للارتفاع بالمسكن رأسيا لتوفر المساحة الأفقية ، ويضيف ابن عبد الحكم (٣)

---

(١) على بهجت : حفريات الفسطاط ص ١٠١ ـ ١٠٣

(٢) المرجع السابق ص ١٠٥ ـ ١٠٦

(٣) ابن عبد الحكم : فتوح مصر ص ١٠٤ ، ١٠٨

سببا آخر اذ يذكر أن خارجة بن حذافه "أول من بنى غرفة بمصر فبلغ ذلك عمر بن الخطاب فكتب الى عمرو بن العاص .. أنه بلغنى أن خارجة بن حذافة بنى غرفة ولقد أراد خارجة أن يطلع على عورات جيرانه فاذا أتاك كتابى هذا فاهدمها ."

ومعنى هذا أن التقاليد الاسلامية فى صدر الاسلام كانت ترى فى ذلك استعلاء على الناس غير محبب ، الا أنه بمضى الوقت صار تعدد الطوابق أمرا معتادا فيذكر ابن عبد الحكم أن معاوية بن أبى سفيان " جعل دار الرمل للمسلمين تنزلها ولا تهم ولم يكن بنى منها الا سفلها حتى بنى علوها القاسم ابن عبد الله بن الحبحاب (١)

واستمر الحال على ذلك حتى أن ابن حوقل (٢) حين زار الفسطاط وصف دورها بقوله : " والدار تكون بها طبقات سبعا وستا وخمس طبقات وربما سكن فى الدار المائتان من الناس ، وبالفسطاط دار تعرف بدار عبد العزيز بن مروان كان يسكنها ويصب لمن فيها فى كل يوم عهدنا هذا أربعمائة راوية ماء ، وفيها خمسة مساجد وحمامان وغير فرن لخبز عجين أهلها .. وأكثر سفل دورهم غير مسكون ."

كما وصفها ناصر خسرو بقوله : " وبمصر بيوت مكونة من أربع عشرة طبقة ، وبيوت من سبع طبقات وسمعت من ثقات أن شخصا غرس حديقة على سطح بيت من سبعة أدوار وحمل اليها عجلا رباه فيها حتى كبر ونصب فيها ساقية كان هذا الثور يديرها ويرفع الماء الى الحديقة من البئر ." (٣)

---

(١) ابن عبد الحكم : فتوح مصر ص ١٠١
(٢) ابن حوقل : صورة الارض ص ١٤٦
(٣) ناصر خسرو : سفرنامه ص ٥٨ .

وعلى هذا فان هذه المصادر تقطع بتعدد أدوار المنازل بالفسطاط وقد أسفرت الحفريات عما يؤكد ذلك . فعلى بهجت يرى أن وجود سلم فى بعض الدور ذا قلبتين بزاوية قائمة "يكفى دليلا على أنه كان يوصل الى دور أعلى كان الغرض منه الوصول الى الأحواض التى تستخرج مياهها من البئر ." (١) لكن وجدت فى بعض الجدران قنوات مستطيلة القطاع شبيهة بالمداخن التى تستعمل الآن مدهونة من الداخل تصل الى المجارير والبيارات ، لكنه يستبعد أن يكون الغرض منها تهوية البيارات والمجارير ، ويرى أن الأقنية كانت مصاريف مراحيض الطبقة العليا .
كما أنه وجد فى الجدران العالية مواضع أطراف العروق وهى منخفضة قليلا عن قمة الجدران ووضعها على هذا النحو يوحى بأنها كانت تحمل سقف الطبقة العليا أو على الأقل سقفا متوسطا بين الطبقتين السفلى والتى تليها .

كما أن قطاعات المجارى التى كانت تبلغ أحيانا حوالى ١ × ٠ر٤٠ مترا تعتبر شاهدا من الشواهد على تعدد الطوابق الأمر الذى يؤدى الى تعدد دورات المياه بكل طابق فيزداد بالتالى اتساع مجارى الصرف الرأسيه بالدور الأرضى حتى تتحمل ضغط هذه الدورات . كما أنه لوحظ أن الأدوار السفلى بهذه الدور كان يصعب استخدامها للسكنى لخلوها من الأقنية الداخلية للتهوية مما يرجح أنها كانت تستخدم كمخازن بينما الأدوار العليا خصصت لسكنى التجار ، مما يوحى بأن هذا بداية لنشأة الوكالات ، فالقاعات التى كانت تتخذ كحوانيت مفتوحة على الشارع تقع فى الجهة البحرية من الدار كما أثبتت الحفريات (٢) . والملحقات التى خلفها والتى رجح على بهجت أنها مرافق تابعة للدار لم تكن سوى مخازن لتلك الحوانيت .

---

(١) حفريات الفسطاط ص ٥٣ ـ ٥٤
(٢) على بهجت : حفريات الفسطاط ص ٥٣

وهكذا نجد تطابقا بين ما ذكره المؤرخون والجغرافيون عن تعدد طبقات الدور بالفسطاط وبين ما أسفرت عنه الحفريات مما يؤكد وجود نظام الطبقات المتعددة بالدور في الفسطاط .

كما يشير ناصر خسرو (١) في روايته عن دور الفسطاط أنه " بمصر دور كثيرة فيها حجرات للاستغلال أي للايجار . " كما يذكر ابن حوقل (٢) " والدار تكون بها طبقات وربما سكن في الدار المائتان من الناس . " مما يبين أن الطابق الواحد كان يؤجر بالغرفة الى أكثر من عائلة يؤدون الايجار لصاحب الدار الذي كان يشغل عادة الدور الأرضي المنعزل .

---

(١) ناصر خسرو : سفرنامه ص ٤٨

(٢) ابن حوقل : صورة الأرض ص ١٤٥ .

المرافق العامة فى الفسطاط

كان المسجد أهم مرفق فى المدينة الاسلامية وأهم ما تتمثل فيه العمارة العربية ، والواقع أن انشاء مدينة جديدة فى المصر المفتوح كان يقترن دائما بانشاء مسجد جامع بها ، فمسجد البصرة (١) كان أول مسجد أنشىء بعد الفتوحات الاسلامية ١٤ هـ / ٦٣٥ م فى أول مدينة أسست فى الاسلام ، كما كان مسجد الكوفة (٢) ثانى مسجد أسس فى ثانى مدينة أسست فى الاسلام . وكذلك كان الحال فى الفسطاط . اذ كان أول ما يهتم به المسلمون عند تأسيس المدن فى الأمصار المفتوحة انشاء مسجد جامع بها . فتأسيس المدينة الجديدة رمز لبداية عهد جديد . لقاعدة اسلامية فى المصر المفتوح ، وانشاء مسجد جامع بها أمر حيوى بالنسبة للمسلمين لضمان وحدتهم وجمع شملهم . وقد كتب عمر بن الخطاب الى أبى موسى الأشعرى والى البصره يأمره أن يتخذ مسجدا للجماعة ، وكتب بذلك الى سعد ابن أبى وقاص عامل الكوفة ، كما كتب الى أمراء أجناد الشام أن ينزلوا المدائن وأن يتخذوا فى كل مدينة مسجدا واحدا جامعا ولا تتخذ القبائل مساجد منفردة حتى يضمن وحدة صفهم . (٣)

كذلك كان السوق مرفق هام آخر من مرافق المدينة الاسلامية . ولم تكن الأسواق فى حياة العرب تقتصر على البيع والشراء وانما كانت دارا للقضاء لفض المنازعات القبلية ، تعقد فيها الأحلاف ، وترفع المظالم ، كما كانت مدرسة الشعر والنثر يتبارى

---

(١) البلاذرى : فتوح البلدان : ص ٣٤٦ ـ ٣٥١ ، ١٩٧

(٢) المسعودى : التنبيه والاشراف ص ٣٥٧ ـ ٣٥٨

(٣) المقريزى : الخطط جـ ٢ ص ٢٤٦ .

فيها الشعراء والخطباء ، وقد نقل العرب معهم الى الأمصار المفتوحة نظامهم هـــذا في الأسواق فلم يجعلوا لها حدودا مصطنعة بل تركوها دون بناء •

ولم يكن الأمر يختلف في مرفق حيوى هام آخر في المدينة الاسلامية وهو الحمـام فقد عرفت المدن الاسلاميـة المختلفـة الحمامات العامة واهتم بها المسئولون كمرفـق حيوى هام •

كما لم تخل أى من المدن الاسلامية من مقبرة عامة للناس يدفنون فيها موتاهـم وان اختلفت في كل منها من حيث موقعها من المدينة •

هذه هى المرافق على سبيل الايجاز وسنتحدث عنها بالتفصيل •

يشير ابن عبد الحكم الى موضع المسجد الذى أنشأه عمرو بن العاص فيذكـــر أن ما حوله كان حدائق وأعنابا (١) ، بينما يشير غيره من المؤرخين (٢) الـــى أن موضعه كان خطة لقيسبة بن كلثوم التجيبى •

كان طول الجامع حين بناه عمرو خمسين ذراعا ، وعرضه ثلاثين ، كما كـــان مسقوفا بالجريد ، وعمده من جذوع النخل ، ولم يكن به محراب مجوف أو صحن متسع • وكان في واجهته الشماليـة بابان ، وفي واجهته الغربيـة بابان يقابلان دار عمـــرو ، وكانت القبلـة التى اشترك في اقامتها ثمانون رجلا من الصحابة (٣) منهم الزبير بـــن العوام ، والمقداد بن الأسود ، وعبادة بن الصامت ، وأبو الدرداء وأبو ذر الغفارى

---

(١) ابن عبد الحكم : فتوح مصر ص ٩١ ــ ٩٢

(٢) أبو المحاسن : النجوم ج ١ ص ٦٦ ــ ٦٧ ، ابن دقماق : الانتصار ج ٤ ص ٦٤ ، ياقوت الحموى : معجـــم البلدان ج ٣ ص ٨٩٨ •

(٣) ابن عبد الحكم : فتوح مصر ص ٩١ ــ ٩٢ ، أبو المحاسن : النجـوم ج ١ ص ٤٧ ، ابن دقماق : الانتصار ج ٤ ص ٥٩ •

تنحرف نحو الشرق ، وكان الطريق يحيط بهذا المسجد من جهاته الأربع • كما لم يكن بجدرانه شيء من البياض أو الزخرف ، وكانت أرضه مفروشة بالحصباء (١) •
وقد أمر عمر بن الخطاب بازالة المنبر الذى أقامه عمرو (٢) •

وأول من زاد فى جامع عمرو مسلمة بن مخلد الانصارى والى مصر من قبل معاوية فى سنة ٥٣ هـ / ٦٧٢ م وبنى به أربعة صوامع فى أركانه الأربعة ولم يغير فى البناء القديم وانما زاد من جهة الشمال رحبة واسعة وقيل انه زاد كذلك فى شرقيه حتى ضاق الطريق بينه وبين دار عمرو وفرشه بالحصر (٣) • وفى سنة ٧٩ هـ — ٦٩٨ م أمر عبد العزيز بن مروان (٤) بهدم جدرانه وزيادته فى كل من وجهتيه الغربية والشماليه •

وفى سنة ٨٩ هـ / ٧٠٧ م فى ولاية عبد الملك أمر برفع سقف المسجد (٥) • وفى ٩٢ هـ / ٧١٠ م قام قرة بن شريك والى مصر من قبل الوليد بن عبد الملك بهدم المسجد واعادة بنائه وأدخل فيه جزءا من دار عمرو بن العاص والطريق الذى كان يفصل بينها وبين المسجد (٦) • كما أمر بعمل محراب مجوف بجدار القبلة فى موضع المحراب القديم ومن ثم عرف باسم محراب عمرو (٧) • وأصبح للمسجد أحد عشر بابا أربعة فى كل من واجهتيه الشرقية والغربية ، وثلاثة فى واجهته الشمالية ، وأصبح جدار القبلة يمتد ٥٧ مترا ونصف كما أصبح طول الجدار الشرقى ٩٨ مترا (٨) • كما نصب له منبرا خشبيا ونزع المنبر القديم •

---

(١) ابن عبد الحكم : فتوح مصر ص ٩١ — ٩٢ ، أبو المحاسن : النجوم ج ١ ص ٦٧ ، القلقشندى : صبح الاعشى ج ٣ ص ٣٤١ •
(٢) أرسل عمر الى عمرو : " بأنه بلغنى أنك اتخذت منبرا ترقى به على رقاب المسلمين أما بحسبك أن تقوم قائما والمسلمون تحت عقبيك • " ابن عبد الحكم : فتوح مصر ص ٩٢ ، أبو المحاسن : النجوم ج ١ ص ٦٧ •
(٣) ابن عبد الحكم : فتوح مصر ص ١٣١ ، أبو المحاسن : النجوم ج ١ ص ٦٨ الكندى : الولاة والقضاة ص ٣٨ — ٣٩ • (٤) الكندى : الولاة والقضاة ص ٦٥١
(٥) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ١ ص ٦٦ — ٦٧ (٦) ابن عبد الحكم : فتوح مصر ص ١٣١ ، أبو المحاسن : النجوم ج ١ ص ٦٦ — ٦٧ (٧) أبو المحاسن : النجوم ج ١ ص ٦٦ ، المقريزى : الخطط ج ٢ ص ٢٤٦ (٨) أبو المحاسن : النجوم ج ١ ص ٦٦ •

وفى سنة ١٣٣ هـ / ٧٥٠ م زاد صالح بن على أربعة أروقة فى مؤخرة المسجد فزاد بذلك طول الجدارين الشرقى والغربى ما يزيد عن عشرين مترا . كما أدخل فى الجامع دار الزبير بن العوام كما عمر مقدم المسجد عند بابه الأول (١) .

كما زاد موسى بن عيسى والى مصر من قبل الرشيد سنة ١٧٥ هـ / ٧٩١ م رحبة فى مؤخرة المسجد وخارج جداره الشمالى (٢) .

على أن أهم ما طرأ على المسجد من تعمير كان على يد عبد الله بن طاهر والى مصر من قبل المأمون سنة ٢١٣ هـ / ٨٢٧ م فقد تضاعفت مساحة المسجد من الناحية الغربية فأدخل فيه الزقاق المعروف بزقاق البلاط ، وجزء كبير من دار الرمل وكان ذلك خاتمة الزيادات التى لحقت بالمسجد (٣) .

وكان تخطيطه فى ذلك الوقت عبارة عن صحن مكشوف تحيط به أربعة أروقه يشتمل رواق القبله منها على سبعة صفوف من العقود موازيه لجدار المحراب ، ومثلها فى رواق المؤخرة ، كما يشتمل كل من الرواقين الجانبيين على سبعة صفوف من العقود موازية لجدار المحراب أيضا وتنتهى عند الصحن . وكان للجامع ثلاثة عشر بابا ثلاثة منها بالجدار البحرى وخمسة فى الجدار الشرقى وأربعة فى الجدار الغربى وواحد فى الجدار القبلى . كما فتح بأعلى حوائطه أربعة شبابيك معقوده بين كل اثنين منها تجويف مغطى بطاقية مخصوصة ، وما زال برواق القبلة زخارف بارزة يرجع عهدها الى

---

(١) المقريزى : الخطط ج ١ ص ٢٤٦ ـ ٢٥٣ ،
الكندى : الولاة ص ١٠٠

(٢) ابن عبد الحكم : فتوح مصر ص ١٣١ ، الكندى : الولاة ص ١٣٤

(٣) ابن عبد الحكم : فتوح مصر وأخبارها ص ١٣٢ ، أبو المحاسن : النجوم ج ١ ص ٢١٧ ، ابن دقماق : الانتصار ج ٤ ص ٦٥ ـ ٦٦ .

عمارة عبدالله بن طاهر ، وما زالت بالحوائط الخارجية بعض شبابيك بالوجهة الغربية ذات زخارف محفورة على الخشب .

هذا وقد ظلت صلاة الجمعة تقام فى جامع عمرو باعتباره أول مسجد أنشئ فى عاصمة مصر الاسلامية حتى أنه فى منتصف القرن الرابع الهجرى حين زار مصر الرحالة المقدسى لفت نظره جامع عمرو ووصفه بالفخامة وحسن البناء " وبأنه أعمر موضع فى مصر . " (١) غير أنه لم يتبق غير قليل من عمارة المسجد العتيق وزخرفته ، وأن أقدم آثاره ترجع الى عهد عبدالله بن طاهر . (٢)

وقد وصفه ناصر خسرو حين زار مصر بقوله : " هو مكان اجتماع سكان المدينة الكبيرة ولا يقل من فيه فى أى وقت عن خمسة آلاف من طلاب العلم والغرباء والكتاب الذين يحررون الصكوك والعقود وغيرها .. وفى هذا المسجد مجلس قاضى القضاة ... ويوقدون فى ليالى المواسم أكثر من سبعمائة قنديل (٣) .

والواقع أن المسجد الجامع بالفسطاط كان له أثر كبير فى الناحية الثقافية فى المدينة .. ففى مسجد عمرو هذا درست علوم الدين من تفسير للقرآن الكريم ورواية الحديث الشريف . وقد تولى مهمة التدريس فيه فى بادئ الأمر الصحابه الذين شاركوا فى فتح مصر ، وكان أول من أقرأ القرآن بمصر أبو أمية عبيد بن مخمر المعافرى

---

(١) المقدسى : أحسن التقاسيم ص ١٩٩

(2) Creswell : Early Moslem Architecture II p. 181.

(٣) ناصر خسرو : سفرنا من ص ٥٩ ، كما يذكر الكندى أن مجلس القاضى كان يعقد فى الجامع العتيق عادة كتاب الولاة والقضاة ص ٥٣٩ وما بعدها .

فى مسجد عمرو بالفسطاط عن رواية نافع (١).

كما يذكر السيوطى أن عمر بن عبد العزيز أرسل نافعا الى مصر ليعلم المصريين " فأقرأ القرآن بجامع عمرو مدة طويلة ." (٢)

كما كانت رواية الحديث تحظى بنصيب كبير فى أول مدرسة أنشئت فى الفسطاط فى مسجدها الجامع فقد كان عبد الله بن عمرو بن العاص أكثر الصحابة رواية للحديث (٣) . ويذكر ابن عبد الحكم (٤) الأحاديث التى رواها المصريون . وكذلك أشار اليهم السيوطى فى كتابه در السحابه فيمن دخل مصر من الصحابة " . ولقد بلغ من دقة تلك الأحاديث أنه قد اعتمد عليها أصحاب الكتب الستة المشهورة فى الأحاديث (٥) . فكان عبد الله بن وهب المصرى من أوائل جامعى الحديث ، أخذ كثيرا من مادته عن مالك بن أنس ، الذى دخل مذهبه الفسطاط ، حيث كان يدرس فى المسجد الجامع وعنه أخذ كثير من المسلمين . ولم يكن هو وحده أستاذ المدرسة المالكية بجامع عمرو ، فقد شاركه أيضا مجموعة من العلماء مثل أشهب بن عبد العزيز العامرى الذى قال عنه الشافعى " ما أخرجت مصر أفقه من أشهب لولا طيش فيه ." (٦)

وكان أساس المدرسة المالكية بجامع عمرو هو رواية الموطأ الذى كتبه الامام مالك ، ولم يكتف ابن وهب بتدريسه بل كان يناقشه ، ويدقق فى اختيار أحاديثه . وقد انتهت رياسة المالكية فى الفسطاط بعد أشهب الى أبى القاسم عبد الرحمن بن القاسم (٧).

---

(١) المقريزى : الخطط ج ٤ ص ١٤٣
(٢) السيوطى : حسن المحاضرة ج ١ ص ٢٧٨
(٣) المصدر السابق ص ١٢٤
(٤) ابن عبد الحكم : فتوح مصر ص ٢٤٨ وما بعدها
(٥) محمد كامل حسين : فى الأدب المصرى الاسلامى ص ٣٨
(٦) السيوطى : حسن المحاضرة ج ١ ص ١٦٦ .
(٧) ابن خلكان : وفيات الأعيان ج ١ ص ٧٨ — ٧٩ .

المدرسة الشافعية :

وكما شهد المسجد الجامع ازدهار المدرسة المالكية وانتعاشها شهد مدرسة جديدة منافسة هي المدرسة الشافعية ، بقدوم الامام الشافعي ، واشتد التنافس بين المدرستين ، وكان الأمر يصل الى حد القتال أحيانا فقد ذكر ابن سعيد وفي سنة ٣٢٦ هـ / ٨٤٠ م عاد أصحاب مالك والشافعي الى القتال في المسجد الجامع العتيق ، وكان في الجامع للمالكية خمس عشرة حلقة وللشافعية مثلها ولأصحاب أبي حنيفة ثلاث حلق ، فلما زاد قتالهم أرسل الاخشيد ونزع حصرهم ومساندهم وأغلق الجامع وكان يفتح في أوقات الصلوات ثم سئل الاخشيد فيهم فردهم . " (١)

ومهما يكن من أمر فان الروح العلمية والتنافس بين المذاهب قد أخذ ينمى في عقول المسلمين روح المناظرة والمناقشة . وكان المسجد الجامع مسرحا لتلك المناظرات والمناقشات العلمية (٢) . كما أخذ المصريون يؤلفون كتبا في المذاهب والدفاع عنها ومن ثم انتعشت الحياة الثقافية والعلمية في الفسطاط الى حد كبير .

المدرسة الحنفية : لم يكن لمذهب أبي حنيفة جمهور كبير في جامع عمرو في بادئ الأمر ، وقد نقل المذهب الى مصر القضاة الذين كانوا يعينون من العراق (٣) وقد كان " الطحاوى " أستاذ المالكية في جامع عمرو لكثرة تلاميذه في أوائل القرن الرابع سنة ٣٢١ هـ / ٩٣٣ م وقد ترك عدة كتب في الفقه لقيت نجاحا كبيرا وخاصة كتابة " المختصر في الفقه " .

---

(١) ابن سعيد : المغرب في أخبار المغرب جـ ٢ ص ٢٤

(٢) يذكر الكندى أن قاضي مصر عبدالله بن محمد الخصيب لبس السواد من دار الاخشيد وحضر المسجد الجامع العتيق .. وعقد مجلس الاملاء ومجلس المناظرة وكان يحضر فيه جماعة من الفقهاء الموافقين والمخالفين ويتكلم معهم أحسن كلام . " الكندى : الولاة والقضاء ص ٥٧٧ .

(٣) الكندى : الولاة ص ٥٧١ .

ولقد بلغ اشتداد التنافس بين المذاهب أنه اذا قلد قاض شافعي كاد لأصحاب المذاهب الأخرى كالقاضي اسماعيل بن عبد الواحد المقدسي الذى ولى قضاء الفسطاط سنة ٣٢١ هـ / ٨٣٥ م الذى استطاع أن يخرج من كان بمسجد عمرو من المالكيين والحنفيين عن طريق الشرطة (١). كما أمر القاضي الحارث بن مسكين باخراج أصحاب أبى حنيفه من المسجد وأصحاب الشافعى وأمر بنزع حصرهم (٢). كما يروى الكندى أن القاضي أبن أبى الليث انتهز محنة خلق القرآن فأوقع بأصحاب مالك والشافعي ومنع فقاءهم من الجلوس فى المسجد الجامع بالفسطاط .

هكذا ظل المسجد الجامع حتى آخر عهد الاخشيديين مركزا للحياة الثقافية والعلمية فى الفسطاط (٣) . ويذكر الكندى أن أحد قضاة الفسطاط وهو عبدالله بن محمد بن الخصيب " لبس السواد من دار الاخشيد وحضر المسجد الجامع العتيق .. وعقد مجلس الاملاء ومجلس المناظرة ، وكان يحضر فيه جماعة من الفقهاء والمخالفين ويتكلم معهم أحسن كلام ." (٤)

ويصف المقدسى جامع عمرو حين زار الفسطاط فى القرن الرابع الهجرى بأنه كان يضم مائة مجلس وعشر فقال : " انه أعمر موضع بمصر .. وهذا الجامع أبدا بين العشائين غاص بحلق الفقهاء وأئمة القراء وأهل الأدب والحكمة ودخلته مع جماعة من المقادسة فبما جلسنا نتحدث فنسمع النداء من الوجهين دوروا وجوهكم الى المجلس

---

(١) الكندى : الولاة ص ٥٤٤

(٢) المرجع السابق ص ٤٦٩

(٣) يذكر ابن سعيد : المغرب ص ٢٥ (طبعة ليدن) أن صلاة الجمعة ظلت تعقد بمسجد عمرو حتى الاخشيديين : " وعاد الاخشيد الى مصر فسر برجوعه الناس وزينت له الطرق والأسواق فلما كان من الغد ركب الى الجامع العتيق لصلاة الجمعة " . (٤) الكندى : الولاة والقضاه ٥٧٧ .

فننظر فاذا نحن بين مجلسين .. ولا نرى أجل من مجالس القراء به .(١) . هذا رغم أن جامع عمرو لم يكن المسجد الوحيد .. فقد كان هناك فى ذلك الوقت جامع العسكر وجامع ابن طولون والجامع الأزهر .

وفضلا عن هذا الدور الثقافى الكبير، كان المسجد الجامع بالفسطاط يحوى بداخله بيت المال . اذ يشير أبو المحاسن (٢) الى أن أسامة ابن زيد التنوخى صاحب الخراج بمصر فى ولاية عبد الملك بن رفاعة ٩٦ ـ ٩٩ هـ / ٧١٤ ـ ٧١٧ م هو أول من بنى بيت المال فى الفسطاط بالمسجد أمام المنبر ويذكر أنه كان شبه قبة عليها أبواب من حديد .

وقد أشار ابن عبد الحكم (٣) الى بيت المال كجزء من المسجد الجامع فى قوله : " وكانت دار عبد الله بن الحرث الزبيدى تلى المسجد وقبلى بابها اليوم مرحاض بيت المال . "

كما كانت مجالس القضاة تعقد فى الجامع العتيق ويذكر الكندى أنه لم يكن للقضاة قمطر فى أول الأمر وأن أول من استحدثه هو القاضى محمد بن مسروق فكانت سجلات القضاء تودع فى بادئ الأمر فى دار عمرو بن العاص (٤) . كما يذكر أنه " حين قدم هرون بن عبد الله سنة سبع عشرة جعل مجلسه فى الشتاء فى مقدم المسجد واستدبر القبلة وأسند ظهره بجدار المسجد ومنع المصلين أن يقربوا منه وباعد كتابه وباعد الخصوم .. وكان أول من جعل ذلك واتخذ مجلسا للصيف فى الـ...ـر وأسند ظهره للحائط الغربى ." (٥)

---

(١) المقدسى : أحسن التقاسيم ص ١

(٢) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة جـ ١ ص ٧١ ، ويذكر ابن دقماق الانتصار جـ ٤ ص ٦٤ " وبيت المال الذى فى علو الفوارة من بناء قرة وقيل أن بيت المال بالجامع بناه أسامة بن زيد التنوخى فى سنة تسع وتسعين وكان مال المسلمين فيه . (٣) ابن عبد الحكم : فتوح مصر ص ١٠٣ (٤) الكندى : الولاة والقضاة ص ٥٧٧ (٥) المصدر السابق صفحة ٣٩٠ .

وهكذا كان للمسجد الجامع دور كبير فى حياة الناس فى مدينة الفسطاط ، فكانت له آثاره السياسية والثقافية الكبيرة •

مساجد القبائل :

الى جانب المسجد الجامع الذى أنشأه عمرو فى الفسطاط كانت هناك عدة مساجد أنشأتها القبائل المختلفة فى خططها • ويذكر ابن عبد الحكم أن أول مسجد خاص عرفته الفسطاط كان " فى أصل حصن الروم " • " عند باب الريحان قبالة الموضع الذى يعرف بالقالوس " وكان يسمى مسجد القلمة [١] •

كما يشير الى مساجد أخرى أنشئت بالفسطاط مثل مسجد بادى [٢] الذى كان يقع فى خطة قبيلة غافق ، ومسجد ابراهيم القراط فى خطة قبيلة " دهنة " احدى بطون غافق ،"ومسجد سيبان " [٣] وهو مسجد تملوه قبة كان يقع فى أحد خطط قبيلة مهرة وهى قبيلة سيبان • ومسجد" أحدب " الذى كان يجاور خطة قبيلة الصدف • ومسجد " القرون " الذى كان يقع جنوب سوق دروان فى خطة بلى [٤] ، ومسجد عبدالله ابن عبدالملك بن مروان [٥] •

ويذكر الكندى [٦] أنه "كان موضع مسجد عبدالله يجلس فيه أهل المدينة يتحدثون فمر بهم عبدالله بن عبدالملك بن مروان وهو أميرهم بمصر فسألوه أن يبنى لهم

---

(١) ابن عبد الحكم : فتوح مصر ص ١٣٢

(٢) المرجع السابق ص ١٢٢

(٣) المرجع السابق ص ١٢١ •

(٤) المرجع السابق ص ١١٦، ١٣٥

(٥) المرجع السابق ص ١٢٢ •

(٦) الكندى : الولاة ص ٤٠٦

فيه مسجدا وشكوا اليه ما يلقون من الشمس فبناه لهم فكانوا يجتمعون فيه • " وينفـــى الكندى نسبة هذا المسجد الى عبدالله بن عمر بن الخطاب موكدا أنه لعبد الله بن عبدالملك (١) • ويحدد موقعه على الوجه الآتى : " يحده من قبليه الطريـــق الاعظم الى المسجد الجامع ومن بحريه الطريق الذى يوءدى الى سوق بربر وشرقـــه السويقه المسماه بسويقة مسجد عبدالله وغربيه الطريق الذى يسلك منه على الجب الـذى يقال له جب عبدالله " (٢)

وقد تجددت عمارة هذا المسجد وتم اصلاحه باذن من القاضى عبدالرحمـــن بن عبدالله •

كما يشير ابن عبدالحكم الى مسجد سمى مسجد " الابيض " وكان قاضـــى الفسطاط يجلس فيه للقضاء سنة ١٤٤ هـ / ٧٦١ م (٣) •
كما يشير الكندى (٤) الى مسجد عند سفح المقطم كان يسمى " مسجد محمـــود " كان يركب " الى مسجد محمود لالتماس هلال رمضان كالمادة " • ويذكـــر أن الاخشيد قد أمر أبا الذكر قاضى الفسطاط فى ذلك الوقت بأن يعلن الى النـــاس روءية هلال رمضان من هذا المسجد ويبدو أن السبب فى ذلك أن موقع المسجد كان من الارتفاع بحيث يسمح بروءية الهلال • ويذكر أن أول من خرج بالناس الى مسجـــد محمود لروءية هلال رمضان القاضى أبو عثمان اسماعيل بن اسحق الذى تولى قضـــاء

---

(١) الكندى : الولاة ص ٤٠٧
(٢) الكندى : الولاة ص ٤٠٧ ـ ٤٠٨ ، ص ٥٩
(٣) ابن عبدالحكم : فتوح مصر ص ٢٤٣
(٤) الكندى : الولاة والقضاة ص ٤٦٩ •

الفسطاط سنة ٣١٦هـ / ٩٢٨م " وهو أول من خرج بالناس الى مسجد محمود بالقرافة لرؤية هلال رمضان . "(١)

هذا ولم يشر ابن عبدالحكم الى هذا المسجد ويبدو أنه لم يكن قد أنشىء الا فى وقت متأخر نسبيا الا أنه كان موجودا أيام الطولونيين حيث يشير الكندى أنه حين " تزايدت علة أحمد بن طولون فأمر الناس بالدعاء له فغدا الناس بالدعاء له الى مسجد محمود بسفح المقطم سنة ٢٧٠هـ ". (٢) / ٨٨٣م .

---

(١) الكندى : الولاة والقضاة ص ٥٣٨
(٢) الكندى : الولاة والقضاه ص ٢٣١

الأســـواق :

يشير ابن عبد الحكم الى الأسواق التي عرفتها الفسطاط منذ تأسيسها ويمكننا أن نستنتج مما ذكره أن الأسواق كانت تقع في الخطط نفسها بين الدور العامرة بسكانها ، وأنها لم تكن في أماكن منعزلة خاصة بها . وكان أكثرها ازدهارا القريبة من المسجد الجامع (١) بالفسطاط حيث يكثر الناس وتكثر عملية البيع والشراء . فيذكر اليعقوبي أن " الأسواق محيطة بالمسجد الجامع في الجانب الشرقي من النيل (٢) . " ومن أمثلة ذلك " سوق بربر " الذي كان يقع في خطة غفار قريبا من الزقاق المشهور بالفسطاط بزقاق القناديل ، كان الى جواره كثير من الدور المشهورة مثل دور مطر ، ودار النخلة وهي خطة كعب بن ضنة . ويذكر الكندي أنه سمي بسوق البربر لنزول قوم من البربر على كعب بن ضنه فنسب الموضع اليهم (٣) .

وكذلك سوق وردان الذي كان يقع بين دور مسلمة بن مخلد الأنصاري وأبي رافع وعقبه بن عامر المهني (٤) ، ودار الزبير بن العوام . " وسوق الحمام " الذي كان يقع بين خطط عبادة بن الصامت وابن رمانة ودور بني وردان . " وسوق القناديل " الذي كان يقع على الجانب الشمالي لمسجد عمرو أشهر أسواق الفسطاط جميعا وأكثرها ازدهارا (٥) .

---

(١) ابن عبد الحكم : فتوح مصر ص ١٠٩ - ١١١ ، ١١٩

(٢) اليعقوبي : كتاب البلدان ص ٣٣١ طبعة ليدن

(٣) الكندي : الولاة والقضاة ص ٣٠٥

(٤) ابن عبد الحكم : فتوح مصر ص ١٠٠ - ١٠١

(٥) الكندي : الولاة والقضاة ص ٣٦٢ ،
المقدسي : أحسن التقاسيم ص ١٩٩ ،
العمري : مسالك الأبصار ج ١ ص ٢٣٤ .

والى جوار المسجد الجامع كانت هناك عدة سويقات مثل " سويقة دار فـــرج "(١) الواقعة فيما بين رحبة دار جوهر وباب مسجد عمرو ، "وسويقة مسجد الهيثـم " ، " وسويقـة مسجد القـرون " في ظاهر مسجد القرون الذى يقع في خطة الحمراء السوسطى(٢) ، وسويقـة مسجد عبد الله في الظاهر جنوب الطريق المؤدى الـــى المسجد الجامع ، وكانت هذه السويقة شرقي مسجد عبد الله هـذا(٣) .

والواقع أن العرب نقلوا معهم صورة الأسواق العربية التي عرفوها منــذ الجاهلية الى الأمصـار الجديدة ، فلم تكن لها أسـوار تحددها وانما تركوهـــا دون بناء ، وقد ذكر عمـر بن الخطاب " الأسواق على سنـة المساجد من سبــق الى مقعد فهولـه حتى يقوم منه الى بيته ويفـرغ من بيعـه(٤) " .

لهـذا نجد أن ابن عبد الحكم لم يشر الى شـيء عن عمارة تلك الأسواق وان كنا نرجـح أنها كانت بها خيام تقى الناس والبضائع حـرارة الشمس في الصيـف ، والمطر والبرد في الشتاء وهذا أمـر طبيعي .

يمكننا أن نستخلص من روايـة ابن عبد الحكم أن بعض أسواق الفسطاط قـد تخصصت فـي أنواع معينة من السلـع ، فبعضهـا تخصص في بيع الأقمشـة مثـــل "دار الأنمـاط " التي كانت تباع بها الأقمشة الحريرية وعديد من البضائع الواردة مـن البلاد المختلفـة(٥) . وسوق السماكين لتجارة السمـك(٦) ، وسوق الزياتين لتجـــارة الزيت وسوق الرقيـق وكان مخصصا لبيع وشـراء الرقيـق وكان يقع عنـد رحبــــة

---

(١) ابن دقماق : الانتصار جـ ٤ ، ص ٣٣ .
(٢) المرجع السابق ، ص ٨٦ .
(٣) الكندى : الولاة والقضـاة ص ٤٠٧ ـ ٤٠٨ .
(٤) الطبرى : تاريخ الطبرى جـ ٣ ، ص ١٤٩ ،
ابن الأثـير : الكامل في التاريخ جـ ٢ ، ص ٤١٢ .
(٥) ابن عبد الحكم : فتوح مصـر ص ١٠٠ ـ ١٠١ ،
ابن فضل الله العمـرى : المسالك جـ ١ ، ص ٢٢٤ .
(٦) الكندى : الولاة والقضـاة ص ٥٦٩ .

أمام دار أحمد بن المدبر عامل خراج مصر أيام المتوكل ، وفي عهد أحمد بن طولون ازداد ازدهار هذا السوق وأصبح عامرا بالرقيق .

كما اشتهرت بعض الأسواق بأسماء بعض الجنسيات مثل سويقة المغاربة نظرا لوجود عدد من تجار المغرب يقومون بالتجارة بها ، وكذلك سويقة المراقيين نسبة الى وجود كثير من المراقيين وذلك منذ أن قدم عدد كبير من المراقيين الى الفسطاط في عهد زياد . وسوق البربر لنزول عدد من البربر على كعب بن ضنة فسمى السوق بأسمهم (١).

وقد عمرت أسواق الفسطاط بمختلف انواع السلع التى تنتجها مصر من مختلف انحائها ، وكذلك بالسلع التى ترد اليها من بلاد الشام والعراق والمغرب وبلاد الروم والحبشة . ويصف الرحالة الذين زاروا الفسطاط مدى ماكانت تتمتع به أسواقها من عمارة وازدهار حيث " تكثر بها المتاجر والأسواق والمعايش وساحلها كثير المراكب وسكانها كثيرون (٢). "

كما يذكر ناصر خسرو " أنه " كانت تباع فيها جميع السلع كسوق القناديل الزاجر بالتحف النادرة وبها مالا يقل عن عشرين الف وكان يتراوح ايجار الواحد منها مابين دينارين وعشر دنانير مغربية (٣). " وقد وصفه ايضا بقوله : "لا يعرف سوق قبله فى أى بلد وفيه كل مافى العالم من طرائف (٤). " ويذكر من بين تجارته الأدوات الخاصة بالمائدة مثل الأوعية ومقابض السكاكين ، كما شاهد صناع مهرة ينحتون بلورا غاية فى النقاء ، كما كانت به بضائع واردة من بلدان مختلفة مثل زنجبار حيث استوردت أنياب الفيل بينما كان يباع به نعال صنعت من جلد الأبقار

---

(١) المرجع السابق ، ص ٢٠٥ .

(٢) المقدسى : أحسن التقاسيم ص ١٩٨ .

(٣) ناصر خسرو : سفرنامه ص ٥٩ .

(٤) المصدر السابق ص ٥٩ - ٦٠ .

المستوردة من الحبشة . فيذكر : " ورأيت كذلك معلمين مهرة ينحتون بلورا غاية في الجمال وهم يحضرونه من المغرب وقيل انه ظهر حديثا عند بحر القلزم بلورا ألطف وأكثر شفافية من بلور المغرب ورأيت أنياب الفيل أحضرت من زنجبار ... ورأيت في يوم واحد هذه الفواكه والرياحين : الورد الأحمر والنيلوفر والنرجس والنارنج والليمون . والتفاح والياسمين والبطيخ .. وتجلب كل الحاجيات لمدينة مصر من جميع البلاد (١) . "

كما أشاد ابن حوقل (٢) بأسواق الفسطاط وعمارتها بقوله : " والفسطاط مدينة كبيرة نحو ثلث بغداد ومقدارها نحو فرسخ على غاية العمارة والخصب والطيب واللذة ذات رحاب في محالها وأسواق عظام ومتاجر فخام ومحالك جسام ".

كما ذكر ناصر خسرو (٣) أن بعض أسواق الفسطاط كانت تضاء فيها القناديل دائما لأن الضوء لا يصل الى أرضها . كما جرت العادة في أسواق الفسطاط على أن " يعطى التجار في مصر من بقالين وعطارين وبائعي خردوات الأوعية اللازمة لما يبيعون من زجاج أو خزف أو ورق حتى لا يحتاج المشترى أن يحمل وعاء (٤) . "

كما يصف تجار مصر بالأمانة فيقول : " وتجار مصر يصدقون في كل مايبيعون واذ كذب أحدهم على مشتر فانه يوضع على جمل ويعطى جرسا بيده ويطوف في المدينة وهو يدق الجرس وينادى قائلا " قد كذبت وها أنا أعاقب وكل من يقول الكذب فجزاؤه العقاب (٥) . "

---

(١) ناصر خسرو : سفرنامة ص ٦٠ .
(٢) ابن حوقل : صورة الأرض ١٤٦ .
(٣) ناصر خسرو : سفرنامه ص ٥٨ .
(٤) المصدر السابق ص ٦١ .
(٥) المرجع السابق نفس الصفحة .

واذا قارنا بين أسواق الفسطاط وأسواق الكوفة (١) نجد أن أسواق الكوفة قد بدأت مثلها بداية بسيطة فلم تكن مسقوفة أو مسورة (٢) وكانت تمتد أيضا من القصر والمسجد الى دار الوليد بن عقبة من جهة والى منازل القبائل ثقيف من جهة وأشجع من جهة أخرى • ثم وضعت لها بعد ذلك أسقف من الحصر واستمرت على ذلك حتى زمن الوالى خالد القسرى ١٤١ = ١٤٤ هـ/ ٧٥٨ – ٧٦١ م حيث عقدت بالأحجار (٣) •

وقد تخصصت أيضا فى انواع معينة من السلع كما كان الحال فى الفسطاط • ومن أشهر أسواق الكوفة " الكناسه " وكان موقعها بين مسجد الكوفة ومسجد السهلة من ناحية البادية • وكانت تعتبر محطة تجارية كبيرة تضم عدة أسواق بداخلها تخصص بعضها فى أنواع معينة مثل الماشية وتجارة الرقيق (٤) • وهى تشبه ماكان فى البصرة أيضا حيث كان " المربد " محطة تجارية كبيرة ذات أسواق عديدة تقام فى ثلاث نواح منها كل يوم • ففى الصباح يجرى التبادل فى سوق خزاعة وفى الظهر فى سوق عثمان وفى المغرب فى سوق القداحين (٥) • وهى هنا تختلف عن الفسطاط حيث كانت أسواق الفسطاط تقام جميعا طيلة اليوم • وان كنا نرجح أن الكناسة بالكوفة والمربد بالبصرة لم يكونا الا صورة من القيساريات التى عرفتها الفسطاط •

---

(١) ماسينيون : خطط الكوفة ص ٢٢ •

(٢) ماسينيون : خطط الكوفة ص ٢٢ •

(٣) المرجع السابق نفس الصفحة •

(٤) البراقى : تاريخ الكوفة ص ١٤٦ •

(٥) ناصر خسرو : سفرنامه ص ٩٦ •

القيســـاريـــات :

تختلف القيسارية عن السوق من حيث أنها أسواق مسقوفة تعلـــو دكاكينهـــا بوائـــك . وقد ذكر ابن عبد الحكم أسماء عدد منها مثل " قيسارية العسل " الواقعة بجـوار المسجـد الجامع ،وقد كانت تشغل موضع منبره الـــذى عدمه قرة بن شريك فيقـول (١) : " وكان الناس يصلون فيها الصلوات ويجمعـون فيها الجمع حتى فرغ من بنيانه والقبلـة في القيساريـة الى اليوم . " وهـــذا يدل على أنهـا كانت مسقوفـه بلا شـــك .

وقد تخصصت بعض القيساريات فـي بيـع أنواع معينـة من البضائـــع مثـل " قيساريـة هشام بن عبد الملك . " التي كان يباع فيهـا البز الفسطاطـي (٢) كما كانت القيساريـة التي بناها عبد العزيز بن مروان فـي خطة بلى قد تخصصـت أيضا فـي بيع البز . كمـا بنى " قيسارية الحبال " ويبدو أنها قد تخصصت فـي تجـارة الحبال وما شابهها من لوازم العقادين " وقيسارية الكباش " الـــتي (٣) تخصصت فـي بيـع وشـراء الكباش وغيرها من سائـر المواشـي (٤) . " وقيسارية البز " التي أنشأها الاخشيد فـي سوق الحمـام .

---

(١) ابن عبد الحكم : فتوح مصـر ص ١٣١ .

(٢) ابن عبد الحكم : فتوح مصـر ص ١٣٦ .

(٣) المرجع السابق نفس الصفحـة يذكر الكندى أن حفص بن الوليد كتب الى هشام " يعلمه أن النيـل قد انكشف عن أرض ليست لمسلم ولا لمعاهد فـــان رأى امير المؤمنين أن يأذن بالبناء فيها فان الناس مضطرون اليها فأذن له فـي بنائها قيسارية فابتدأ في بنائهـا سنة سبـع ومائـة وفرغ منها فى سنة ثمـان ومائة وهي قيساريـة هشام التي عند الجســر ".
الكندى : الولاة ص ٧٤ .

(٤) الكندى : الولاة والقضـاة ص ٥٦٢ .

كما يمكننا أن نستنتج من رواية ابن وقماق أن بعض القيساريات كان يشتمل على أكثر من باب بل كان لبعضها ستة أبواب موزعة حسب اتجاهاتها في الجنوب والشرق والغرب (١)، مثل " قيسارية ابن ميسر " الكبرى بسوق وردان فكانت ذات أبواب خمسة اثنان في شرقيها واثنان في شمالها والخامس في غربيها . أما " قيسارية ابن ميسر الصغرى " فكانت بسوق القشاشين تباع بها الصنادبق وهي تشتمل على ثلاثة أبواب الأول في شمالها واثنان في شرقيها أحدهما يقابل باب القيسارية الكبرى والآخر في جنوبه ثم قسمها من نصفها باب يفصل بين شمالها وجنوبها فصارت قيسارتين .

وكذا كانت القيسارية ذات اتساع كبير وكان ببعضها حمامات مثل القيسارية التي اشتراها عبد العزيز بن مروان وهي المسماة بقيسارية أبي مرة في خطة كعب بن عدى وكان بها حمام معروف باسم " أبي مره " به تمثال من الزجاج على هيئة امرأة سماها العامة قيسارية أبي مرة نسبة الى التمثال الذى كان على باب الحمام (٢) .

كما تخصصت بعض القيساريات في الاتجار بانواع معينة من التجارة مثل قيسارية (٣) " دار الأنماط القديمة " في خطة عمرو بن أبي سحابة وكانت تعرف بدار " الابل العظمى " ، وان كان هذا لا يمنع من وجود أنواع أخرى بجانبها .

---

(١) ابن وقماق : الانتصار ج ٤ ص ٣٧ - ٤٠ .

(٢) ابن وقماق : الانتصار ج ٤ ص ٣٨ - ٣٩ .

(٣) المرجع السابق ص ٣٧ - ٤٠ .

كما يتبين كذلك أن بعض الأسواق كانت تشتمل على قيسارية أو أكثر وهي كما ذكرت مسقوفة ذات أبواب .

ويتبين من الحفريات التي أجريت في الفسطاط والتي كشفت عن أبنية ترجع لعصر العباسيين والطولونيين مايمكن أن يفيد في تحديد تخطيط بعض القيساريات . فقد تضمنت الدور المكتشفة قاعات كانت تتخذ كمحال ذات فتحات على الطريق تعلوها عقود . وكانت تلك المحال تقع في أغلب الاحوال في شمال الدار . مما يشير الى احتمال كونها مخازن تجارية أقيمت على الطريق . وهي تشبه في هذا القيساريات أو الوكالات حيث يمكن اعتبار الأدوار العليا أماكن خصصت لسكنى التجار الوافدين .

الحمامات :

يذكر ابن عبد الحكم أن الفسطاط عرفت الحمامات العامة وأن أقدم تلك الحمامات حمام الفأر الذي بناه عبد الله بن عمرو بن العاص وقد سمي بهذا الاسم لصغر حجمه اذا ماقورن بحمامات الروم الكبيرة (١) .

وبعض هذه الحمامات كان يقع في الأسواق مثل حمام سوق وردان (٢) ويبدو أنها كانت عامة يقصدها الناس . وبعضها الآخر كان ملاصقا للبيوت وفي موضع مستقل عنها يقول ابن عبد الحكم : " ودار سهل التي فيها السراجين وحمام سهل كان ذلك لعبد الله بن عمرو بن العاص (٣) " ومعنى هذا أن الحمام كان منفصلا عن البيت ولم يكن جزءا منه .

---

(١) ابن عبد الحكم : فتوح مصر ص ٩٦ .

(٢) المرجع السابق ص ١٣٧ .

(٣) المرجع السابق ص ١١٢ .

كما أشار ابن عبد الحكم أيضا الى حمام أبى مرة " الذى كان خطة لرجل من تنوخ فسأله اياه عبد العزيز بن مروان فوهبه له فبناه حماما لزبان ابن عبد العزيز ." (١) ومعنى هذا أن الحمام المشار اليه كان ملكا لزبان ابن عبد العزيز وأنه قد تأنق فيه وأحسن اعداده وجعله قاصرا على الصفوة من الناس . كما كان لمعافسة بن عمرو حماما خاصا له ذكره الكندى وذلك فى عهد ابراهيم بن صالح ١٦٥ هـ - ١٦٧ هـ / ٧٨١ - ٧٨٣ م أمير مصر وقتذاك (٢).

ورغم أن الحفريات كشفت عن نظام دقيق لتوزيع المياه داخل بيوت الفسطاط غير أن المنقبين لم يعثروا على شئ مفيد فى معرفة عمارة الحمام وكيفية بنائه وتطور عمارته .

المقابر :

كانت أول مقبرة للمسلمين فى الفسطاط تقع عند سفح المقطم (٣) وقد سمى موضع هذه المقابر بالقرافة نسبة الى طائفة من قبيلة المعافر يقال لهم بنو قرافة نزلوا عند هذا الجبل (٤) .

وقد خصص المسلمون جزءا فى جنوبها لدفن الموتى من الأقباط وتشير المصادر الى أن عامل ابن الزبير على مصر لما خشى أن يأخذه مروان على غرة

---

(١) المرجع السابق ص ١١٣ - ١١٤ ؛ الكندى : الولاة والقضاة ص ٧١ - ٧٢ يذكر أن حمام زبان الذى كان به تمثال كسر حين كتب يزيد بن عبد الملك فى سنة ١٠٤ هـ يأمر بكسر الأصنام فكسرت كلها وكسر فيها صنم حمام زبان بن عبد العزيز الذى يقال له حمام أبى مرة . "

(٢) الكندى : الولاة والقضاة ص ٣٧٣ .

(٣) ابن عبد الحكم : فتوح مصر ص ١٥٦ - ١٥٧ .

(٤) ابن عبد الحكم : فتوح مصر ص ١٢٦ .

فى عاصمة ولايته أمر فى سنة ٦٥ هـ / ٦٨٤ م بحفر خندق يبتدأ من موضع القرافة ويخترقها الى بركة الحبش • وقد أعيد حفر هذا الخندق سنة ٢٠٠ هـ / ٨١٥ م عند وقوع الشقاق بين الأمين والمأمون (١) •

كما تذكر الروايات أيضا أن المقابر كانت "فى غاية الحسن والعمارة ترى البلد غبراء والمقابر بيضاء • " (٢) ويبدو أن طلاء المقابر باللون الأبيض هذا لم يكن معروفا الا فى منتصف القرن الثانى وذلك حين بيض قبر ابراهيم بن صالح بن على سنة ١٦٥ هـ/ ٧٨١ م وهو أول قبر بيض فى الفسطاط (٣) •

والواقع أنه بمقارنة مقابر المسلمين بالفسطاط ـ القرافة ـ بمقابر المسلمين بالكوفة (٤) نجد اختلافا كبيرا فبينما كانت المقابر فى الفسطاط تقع فى موضع منعزل مستقل عن بقية المدينة نجدها فى الكوفة تقع فى خطط القبائل " كجبانة كنده " حيث كانت تجرى فيها الاجتماعات العامة والتجمعات العسكرية أو " جبانة السبيع " التى اختير فيها الوزير العباسى الملقب بولى السبيع البيعة من أهل الكوفة (٥) •

أما فى البصرة فكانت أغلبية الناس تدفن موتاها فى بيوتها كما لم تكن بالبصرة مقابر خاصة لكل قبيلة كما كان الحال فى الكوفة •• ويبدو أن القبور فى البصرة كانت مجرد حفر يوضع فيها جسد الميت ثم يسوى التراب ولا يبنى عليه شئ سواء كان فقيرا أوعظيما • حتى أنه عندما مات بشر بن مروان أمير البصرة دفن قرب قبر حبش ثم اختلط القبران على الناس فيما بعد (٦) • كما لم تكن لقبور الكوفة قباب أو بنايات ضخمة تميزها •

---

(١) المقريزى : الخطط ج ٢ ص ٤٥٨ ـ ٤٥٩ •
(٢) المقدسى : أحسن التقاسيم ص ٢٠٩ •
(٣) ابن دقماق : الانتصار ج ٤ ص ٩ •
(٤) ماسنيون : خطط الكوفة ص ١٨ ـ ١٩ •
(٥) اليعقوبى: كتاب البلدان ص ٣١١ •
(٦) اليعقوبى : كتاب البلدان ص ٣١١ •

ولم تشر المصادر الى عمارة المقابر وطريقة بنائها ٠ الا أن شواهد القبور تبين اسم المتوفى وقبلته ٠ وان كان ماذكره المقدسي عن المقابر بقوله أنها " في غاية الحسن والعمارة ترى البلد غبراء والمقابر بيضاء ٠ " مما يوضح أن أهل الفسطاط قد اهتموا بنظافة وعمارة مقابرهم وان لم تشر المصادر الى تطور تلك العمارة أو الى نظامها ٠

توزيع الماء على أهل الفسطاط :

يصف ناصر خسرو نظام توزيع المياه على أهل الفسطاط بقوله : " ويجلب ماء الشرب من النيل ينقله السقاءون على الجمال ٠ والآبار القريبة من النيل عذب ماؤها وأما البعيدة فماؤها ملح ٠ ويقال أن في القاهرة ومصر اثنين وخمسين ألف جمل يحمل عليها السقاءون الروايا ٠ وهؤلاء عدا من يحمل الماء على ظهره في الجرار النحاسية أو القرب وذلك في الحارات الضيقة التي لا تسير فيها الجمال ٠ "(١)

كما يشير الى أن بعض البيوت كانت بها آبار تحمل منها المياه الى الدور بقوله : " ... وسمعت من ثقات أن شخصا غرس حديقة على سطح بيته من سبعة أدوار وحمل اليها عجلا رباه فيها حتى كبر ونصب فيها ساقية كان هذا الثور يديرها ويرفع الماء الى الحديقة من البئر .. وزرع على هذا السطح شجر النارنج والموز وغيرها ٠ "(٢)

---

(١) ناصر خسرو : سفرنامه ص ٤٩ كما أنه من المعروف أن المياه الجوفية تزداد ملوحة كلما ابتعدت عن النيل ولذلك كان يؤتى بالماء من النيل يوزعه السقاؤون ٠

(٢) المرجع السابق ص ٥٨ ٠

ويذكر الكندى أن بعض الولاة كانوا يستجيبون الى شكوى الأهالى من عدم وصول الماء اليهم مثلما حدث عندما " شكت المعافر الى يزيد بن حاتم بعد الماء عنهم فابتنى يزيد بن حا تم فسقيه المعافر وأجرى اليها الماء من ساقية أبى عون وأنفق فيهما مالا عظيما (١) • "

الا أن الحفريات التى أجريت بالفسطاط قد كشفت عن نظام دقيق لامداد المنازل بالمياه العذبة من الآبار المنقورة فى الصخر فكانوا اذا حفروا بئرا يجعلون فى جوانبه فتحات يدخلون فيها عروقا من الخشب ليسهل النزول فى البئر أثناء حفرها أو عندما يراد تطهيرها (٢) •

وكانت المياه توزع عن طريق قنوات من الفخار تتكون من أنابيب أسطوانية يتصل بعضها ببعض ، كما وجد المنقبون قطعا من الفخار على شكل زاوية قائمة كانت تستخدم فى التفريغ والتوصيل • وكان يراعى فيها الميل اللازم لضمان جريان المياه وعدم ركوده ، ثم تصرف فى النهاية فى مجارير وبيارات متسعة منحوتة خصيصا فى صخر الموقع • كما يستلفت النظر وجود خزانين للمياه أحدهما يعلو الآخر لتغذية الطوابق العليا بالماء ، وكان يراعى أن تكون تلك الخزانات قريبة من البئر أو من السلم ليسهل ملؤها بالمياه المجلوبة بالقرب (٣) •

وقد عثر على بهجت فى أحد الدور على ثلاث قنوات رأسية من الفخار معقود عليها قبو من الآجر ويرجح أنه كان فوق هذا القبو خزان تأخذ منه القنوات الثلاث المياه ، التى كانت تجلب من البئر القريبة الواقعة وسط الطريق •

---

(١) الكندى : الولاة والقضاه ص ١١٥ •

(٢) على بهجت : حفريات الفسطاط ص ١١٣ •

(٣) المرجع السابق ص ٤٩ •

(٤) على بهجت : حفريات الفسطاط ص ٧٢ •

كانت المياه تؤخذ من البئر اذن لملء الخزان ومنه ينقل الماء الى قناطر تخترق الطريق تحاذى السور الخارجي للمنزل من الشمال ثم تصب في الخزان • كانت القناة الأولى تصب في الفسقية الواقعة في وسط الدار أما القناة الثانية فكانت تحمل المياه الى الحوض المستطيل بالزاوية القبلية من الدار ، أما الثالثة فكانت تتجه الى الشمال وتتفرع الى فرعين يملآن الخزان •

وكانت القنوات كلها تابعة لدار واحدة ، وكانت المياه تصرف في البهارة الكبيرة (١) • كما كانت بهارات الدور تقع عند حافة الشارع ويصر علها جدار الواجهة وكانت مستديرة عادة ولكي يسهل نزحها كانت تصنع لها فتحة بمستوى أرض الطريق أو منخفضة عنها قليلا بنهايتها عقد مبنى بناء محكما (٢) • كما كان فناء الدار ينفرد بالفسقية وكان جوفها وحافاتها الأفقية مغطاة ببلاط كلسي أو بلاط مائي (٣) •

وقد أثبتت الحفريات ماذكره ابن دقماق من أن بعض الآبار كان قائما في وسط الطريق (٤) ، فقد عثر المنقبون على بئر واقعة في وسط رحبة صغيرة (٥) كانت تمد بمائها حوضا في احدي الدور القريبة منها •

---

(١) على بهجت : حفريات الفسطاط ص ٧٢ ـ ٧٣ •

(٢) المرجع السابق ص ١١٠ ـ ١١١ •

(٣) عثر على بهجت في حفرياته على بعض الفساقي التي يوجد في " جوانب جوفها المثمن قواديس من الفخار مثبته يرجح أنها كانت متخذه كبيوت للأسماك الصغيرة • " على بهجت : حفريات الفسطاط ص ١١٤ ـ ١١٥ •

(٤) ابن دقماق : الانتصار ج ٤ ص ٣٦ ، ٤٧ ، ٤٨ •

(٥) على بهجت : حفريات الفسطاط ص ٣٩ •

وسائل المواصلات بالمدينة :

كانت الدواب هي وسيلة المواصلات الرئيسية داخل مدينة الفسطاط " ويركب أهل السوق وأصحاب الدكاكين الحمير المسرجة في ذهابهم وإيابهم من البيوت الى السوق ، وفي كل حي على رأس الشوارع حمر كثيرة فيها برادع مزينة يركبها من يريد نظير أجر زهيد (١) " .

هذا وان كان ناصر خسرو يصف الفسطاط في فترة زيارته لها فاننا نرى أن الأمر لم يكن ليختلف كثيرا عما كان عليه في القرنين الاول والثاني . الا أنه من المعروف أن الجند والعسكر لم يكونوا ليتنقلوا داخل العاصمة الا على ظهور الخيل التي لم يكن يركبها التجار والسوقة اذ كانت قاصرة على الجند والعسكر والعلماء (٢) .

كما كان هناك موقف للدواب يوقف فيه الناس دوابهم اذ يذكر المقريزي (٣) أنه حين " اختط الجامع المعروف بالجامع العتيق وبجامع عمرو بن العاص واختطت قبائل العرب من حوله فصارت مدينة عرفت بالفسطاط ونزل الناس بها فانحسر بعد الفتح بأعوام ماء النيل عن أرض تجاه الحصن والجامع العتيق فصار المسلمون يوقفون هناك دوابهم . " وهي الخطة التي ذكرها ابن عبد الحكم باسم الموقف (٤) .

---

(١) ناصر خسرو : سفرنامه ص ٦١ — ٦٢ .

(٢) المرجع السابق ص ٦٢ .

(٣) المقريزي : الخطط ج ٢ ص ٦٠ .

(٤) ابن عبد الحكم : فتوح مصر ص ٩٩ ، ١٢٠ ، ١٢١ ، ١٣٣ .

كما كانت المراكب تستخدم في الانتقال من الفسطاط الى جزيرة الروضة وكذلك الى الجيزة . فيذكر ابن حوقل (١) " والفسطاط على شمال النيل وهي مدينة حسنة ينقسم النيل لديها قسمين فيعدى من الفسطاط الى عدوة أولى فيها أبنية حسنة ومساكن جليلة تعرف بالجزيرة ويمد اليها بجسر فيه نحو ثلاثين سفينة ويعبر من هذه الجزيرة على جسر آخر الى القسم الثاني كالجسر الأول الى أبنية جليلة ومساكن على الشط الثاني تعرف بالجيزة . "

---

(١) ابن حوقل : صورة الأرض ص ١٤٦ .

حكومة الفسطاط

لعبت الفسطاط - كغيرها من الأمصار الجديدة التى ظهرت منذ أوائل القرن الأول الهجرى - دورا هاما فى الأحداث السياسية الاسلامية فالتاريخ الاسلامى فالقرن الأول الهجرى هو فى حقيقته تاريخ تلك الأمصار (١) •

ورغم أنه لم يكن لتلك الأمصار - والفسطاط من بينها - مجالس سياسية خاصة تحد من سلطة الخلافة الا أن العرب فى الفسطاط كما كان الحال فى الكوفة والبصرة كانوا يكونون ارستقراطية عسكرية فخورة بلذتها وقوانينها وتقاليدها •

وتتمثل الحكومة فى الفسطاط فيما يأتى :-

١ - أمراؤها
٢ - شرطتها
٣ - دواوينها

أما عن أمراء الفسطاط :

فانه لم يكن فى الفسطاط فى بداية عهدها دار امارة خاصة بل كانت الدار التى يقيم بها الوالى بمثابة دار امارة (٢) • وقد اختط عمر بن العاص

---

(١) صالح أحمد العلى : التنظيمات الاجتماعية والاقتصادية فى مدينة البصرة ص ١ •

(٢) ابن عبد الحكم : فتوح مصر ص ٩٦ ، المقريزى : الخطط ج ١ ص ٢٩٦ ، القلقشندى : صبح الأعشى ج ٣ ص ٣٣٥ •

دارا له بجوار المسجد الجامع لا يفصل بينها وبين المسجد سوى الطريق (١) . وقد ظل هذا الوضع قائما حتى آخر الدولة الأموية ، هذا وان كان عبد العزيز بن مروان قد بنى فى خلافة اخيه عبد الملك دارا سميت " بدار الذهب " سنة ٦٧ هـ / ٦٨٦ م ذات قبة مذهبة لفرط سمتها " كانت تعرف بالمدينة اتخذها مقرا له ثم مقرا لأمراء مصر من بعده (٢) . فيذكر الكندى أن عبد العزيز ابن مروان " أمر ببنيان الدار المذهبة فى سنة سبع وستين التى تدعى بالمدينة بسوق الحمام وهى غربى المسجد الجامع . "

---

(١) كما يروى ابن عبد الحكم ص ٩٧ رواية أخرى تفيد بأن دار عمرو التى اتخذها هى تلك التى اختطها ابنه عبد الله عند المسجد الجامع حيث بنى فيها قصرا " على تربيع الكعبة الاولى " كما يذكر فى ص ٩٢ أن عمرو قد اختط الى جوار المسجد دارا أراد أن يجعلها لعمر بن الخطاب الا أن الخليفة رفض وكتب لعمرو " انى لرجل بالحجاز تكون له دار بمصر . " وان كنا نلمح هنا رغبة عمرو بأن يكون بالفسطاط دارا أو مركزا للخليفة وكأنه أراد أن يعطى مصر مزيدا من الأهمية . "

(٢) الكندى : الولاة والقضاه ص ٤٩ ويذكر فى ص ٩٥ أن مروان بن محمد عزم على تعدية النيل " فأمر بدار آل مروان المذهبة فأحرقت فقال له زبان بن عبد العزيز انها دار بنى عبد العزيز وقد أعظمت فيها النفقة فقال مروان : ان أبق ابنها لبنة من ذهب ولبنة من فضة . " وقد قال عيسى بن شافع يبكى الدار المذهبة :

ياطللا أقوى وحل البلى	منه لدار العلو وفى السفل
قد كنت مغنى لعيون المها	وكنت ناديى لظبى الرمل
وكان أربابك ما ان لهم	فى الناس من نوع ولا شكل

وقد كان للخليفة الأموى دارا فى الفسطاط وذلك أنه فى سنة ٦٥ هـ / ٦٨٤ م حين دخل مروان مصر نزل دارا فى جنوب المسجد الجامع هى " دار الفلفل " وقال : " انه لاينبغى لخليفة أن يكون ببلد ليس له فيهـا دار فأمر بالدار البيضاء فبنيت له (١) • "

وقد ظلت الدار المذهبة منزلا لأمراء الفسطاط الى أن أمر باحراقها مروان بن محمد أثناء تعقب العباسيين له (٢) •

ولما تم النصر للعباسيين اختط صالح بن على وأبا عون دار الامارة فى الموضع الذى نزلا فيه بجنودهما وهو الواقع شمال شرقى الفسطاط فى احدى خططها المسماة بالحمراء القصوى • فى هذا الموضع أسس أبا عون بدار الامارة وأمر الناس بالبناء والعمارة فى العسكر (٣) • وقد ذكر الهلوى أن دار الامارة هذه كان يطلق عليها اسم " بلد الامارة (٥) " وقد وصفها بقوله : " كان لها بابان أحدهما

---

(١) الكندى : الولاة ص ٤٥ •
(٢) المرجع السابق ص ٤٩ •
(٣) أبو المحاسن : النجوم ج ١ ص ٣٢٥ — ٣٢٦ •
(٤) كان يطلق على شرطة العسكر الشرطة الفوقانية أو الشرطة العليا على اعتبار انها فى الشمال فى حين كان يطلق على شرطة الفسطاط الشرطه السفلى أو التحتانية لأنها تقع الى الجنوب منها مما يبين اتصال العمارة بين المدينتين ويؤكد أن العسكر لم تكن سوى امتداد طبيعى للفسطاط نحو الشمال الشرقى •
المقريزى : الخطط ج ١ ص ٣٠٤ •

بالحارة المعروفة بحوض أبي قديرة وبابها الآخر الملاصق للشرطة الفوقانية " وكان باب الشرطة أيضا أحد أبوابها وكانت كلها دار واحدة ولها باب الى المسجد الملاصق للشرطة (١) . "

ومعنى هذا أن دار الشرطة كانت جزءا من دار الامارة فلما نزل أحمد بن طولون مصر نزل دار الامارة بالعسكر ، ولما وجد أنها تضيق بعسكره بنى في سنة ٢٥٩ هـ / ٨٧٢م قصره وحول السهل الممتد بين هذا القصر وجبل يشكر الى ميدان كبير للاستعراضات العسكرية (٢) والرياضية وقد سمى القصر كله " الميدان (٣) " .

وكان للقصر الذى جعله دارا للامارة ثلاثة أبواب عاليه متصلة بعضها ببعض خصص الباب الأوسط منها وهو الباب الرئيسى له (٤) ، بينما كانت الحاشية والعسكر تخرج من البابين الآخرين . وكان له أيضا باب للصلاة بمحازاة جامعه الشهير وباب الميدان حيث كان يمر منه الجند وباب الحرم الخاص بالنساء ، ثم أبواب أخرى تسمى بأسماء حجابها : باب الدرمون ، وباب دعناج ، وباب آخر صنع من خشب الساج فسمى باب الساج ثم باب آخر سمى بباب السباع " وصور عليه سبعين من جص . "

ويبدو أن واجهته هذا القصر العظيم كانت تتألف من أبواب عظيمة متعددة " لم يكن يكتنفه باب واحد ولا بابان فقطعه بحائط وعمل فيه ثلاث

---

(١) البلوى : سيرة أحمد بن طولون ص ٥٥ .

(٢) الكندى : الولاة ص ٢١٥ ، ٢٦٠ ـ ٢٦٣ ، أبو المحاسن : النجوم ج ١ ص ٣٢٦ ـ ٣٢٧ .

(٣) الكندى : الولاة ص ٢١٥ ، المقريزى : الخطط ج ١ ص ٣١٣ .

(٤) البلوى : سيره أحمد بن طولون ص ٥٥ ومابعدها .

أبواب كأكبر ماتكون الأبواب[1] ." وقد بلغت مساحة قصره هذا ميلا فى ميل .[2]

وكانت عمارة هذا القصر تقليدا للأساليب المراقية التى شاعت فى فى سامرا أو فى بغداد[3] ، فهناك تشابه كبير بينه وبين قصر الخليفة المتوكل . الذى التزم فيه أسلوبا يسمى الأسلوب الحيرى نسبة الى الحيرة " ليبنى مقدمه أو ثلاثة أجزاء وسطها الباب الأكبر والى جانبه البابان الصغيران . " ... " وكان المتوكل يجعل دون قصره ثلاثة أبواب عظام جليلة يدخل منها الفارس برمحه وقد اتبع الناس المتوكل ائتماما بفعله حتى اشتهر هذا البناء[4] ." كما كان الميدان الذى خصصه للعب الصوالجة تقليدا للميدان الموجود فى سامرا . وقد كان هذا التصميم للميدان والقصر بالصورة التى نقلها ابن طولون عن سامرا تقليدا للنظام القديم الذى عرفه الفرس فى عهد الأسرة الساسانية ثم استخدم فى قصور سامرا ، ونقله ابن طولون الى مصر[5] .

وقد زاد ابنه خمارويه فى دار الامارة هذه زيادات كبيرة وغرس فى الميدان بستانا عظيما كما أنشأ لنفسه قصرا فخما جعل فيه بركة كبيرة من الزئبق الخالص ، وايوانا فخما عليه قبة عظيمة ودارا للسباع وغير ذلك

---

(١) البلوى : سيرة أحمد ابن طولون ص ٥٥ .

(٢) ابن دقماق : الانتصار ج ٤ ص ١٢١ — ١٢٢ .

(٣) آدم متز : الحضارة الاسلامية ج ٢ ص ٢٠٧ — ٢٠٨ .

(٤) اليعقوبى : البلدان ص ٢٦٦ .

(٥) د . حسن احمد محمود : حضارة مصر الاسلامية فى العصر الطولونى ص ١٩٤ .

مما أفاض في وصفه المؤرخين (١) • كما جعل له في البستان مجلسا سماه " دار الذهب " طلا حيطانه كلها بالذهب واللازورد في أحسن نقش" وجعل في حيطانه مقدار قامة ونصف صورا بارزة من خشب معمول على صورته وصور حظاياه ومغنياته ، وجعل على رؤسهن الأكاليل من الذهب والجواهر المرصعة وفي آذانهن الأقراط الثقال ولونت أجسادها بأصناف تشبه الثياب من الأصباغ العجيبة (٢) •

كما بنى في القصر قبة سماها " الدكة " وجعل لها الستور التي تقي الحر والبرد (٣) وقد تجلى في كل تلك المنشآت الفن الساساني واضحا ، فلم تكن كسوة النخل بالنحاس المذهب الا ضرب من الذوق الشرقي القديم فقد كان ملوك الفرس يجلسون الى الناس تحت أشجار كسيت جذوعها بالفضة (٤) •

---

(١) يذكر المقريزى : الخطط ج ١ ص ٣٥٦ أنه " جمع في بستانه أنواعا فريدة من الزهور " على نقوش معموله وكتابات مكتوبة يتعهدها البستاني بالمقراض حتى لا تزيد ورقة على ورقة •" زرع من الازهار النيلوفر الأحمر والأزرق والأصفر وجلب من مختلف أرجاء العالم الاسلامى السلالات النادرة وزرع الاشجار خاصة النخيل " الذى ينال ثمره القائم ومنه مايتناوله الجالس " وبالغ في تزيين بستانه هذا فكسا أجسام النخيل نحاسا مذهبا وجعل بين النحاس وأجسام النخيل أنابيب الرصاص ينحدر فيها الماء الى أحواض كبيرة ثم ينحدر الماء من هذه الأحواض ليسقى أرض البستان • "

(٢) ابو المحاسن : النجوم ج ٣ ص ٥٤ •

(٣) المصدر السابق ص ٥٦ •

(٤) آدم متز : الحضارة الاسلامية ج ٢ ص ٢١١ •

وقد ظل الولاة بعد ذلك ينزلون دار الامارة القديم بالعسكر (١) حتى اتخذ كافور الاخشيد لنفسه دارا عند جامع ابن طولون جعلها دارا للامارة (٢) . وكان بجوار البركة التي كانت تعرف باسم بركة قارون (٣) . وكانت هذه الدار على درجة كبيرة من الأبهة والفخامة اذ بلغت تكاليفهما مائة ألف دينار .

وبمقارنة دار الامارة التي اتخذت بالفسطاط بتلك التي كانت بالكوفة نجد أنهما كانتا تقعان بجوار المسجد الجامع . فدار الامارة بالكوفة (٤) كانت في الواجهة الجنوبية من المسجد مع انحراف قليل نحو الشرق . كما كان القصر يطل من ناحية الغرب على ميدان سمي " رحبة على " وفي وسط القصر بنيت (مصطبة) كبيرة أعدت للاجتماعات (٥) . ولم يكن الأمر ليختلف عما كان عليه في البصرة (٦) .

---

(١) أبو المحاسن : النجوم ج ١ ص ٣٢٨ ، ج ٢ ص ١٧ .
المقريزى : الخطط ج ١ ص ٣٠٥ .

(٢) ابن دقماق : الانتصار ج ٤ ص ١٢٢ .

(٣) أبو المحاسن : النجوم ج ١ ص ٣٢٧ .

(٤) ماسينيون : خطط الكوفة ص ٢٧ ـ ٢٨ .

(٥) الطبرى : تاريخ الطبرى ج ٣ ص ١٥ .

(٦) صالح أحمد العلي : التنظيمات الاجتماعية والاقتصادية في مدينة البصرة ص ٨٧ .

شرطـة الفسطـاط :

كان الوالى هو الذى يعين صاحب الشرطة الذى كانت مهمتـه تطبيق القوانـين وتنفيذ العقوبات • ونلاحظ أنه منذ بداية استقرار القبائـل فـى خططهـا بالفسطاط أن عمـرو قـد جعل لكل قبيلـة " محرسـا " (١) اى مكانـا لحراسـة القبيلـة وحفظ النظـام بهـا •

ونلاحظ أنه منذ انشـاء العسكـر كانت هناك شرطتان بالفسطاط سميـت شرطـة العسكـر بالشرطـة العليا علـى أساس أنهـا تقـع الى الشمال مـن شرطـة الفسطاط التى سميـت بالشرطـة السفلـى (٢) •

وقد شغل الترك هذا المنصـب ابتداء من عهد أحمد بن طولون وطـوال حكم بقيـة الدولـة •

وكان من بـين واجبـات أصحـاب الشرطـة الاهتمام بنشـر الفضيلـة والمحافظـة على الأخـلاق فيذكـر الكندى أنه فـى ولايـة مزاحـم بن خاقـان سنة ٢٥٣ هـ/ ٨٦٧ م أمـر صاحـب شرطته (٣) أزجـور بمنع النساء مـن الخـروج من بيوتهـن والتوجـه الى الحمامات والمقابـر • كمـا أمر بسجن المؤنثين والنوائـح (٤) •

---

(١) ابن عبد الحكم : فتوح مصـر ص ٩٨ ، ١١٦ ـ ١١٧ •

(٢) المقريزى : الخطط جـ ١ ص ٣٠٤ •

M. Saberuheim : History of the town of Fustat Ency. of Islam p. 817.

(٣) الكندى : الولاة ص ٢١٠ •

(٤) ابو المحاسن : النجـوم الزاهـرة جـ ١ ص ٣٣٧ •

وكان صاحب الشرطة بمثابة نائب للوالي يؤم الناس في الصلاة اذا مرض الوالي ويتولى شئون البلاد اذا خرج الوالي من الفسطاط فقد أم خارجه بن حذافه صاحب الشرطة أيام عمرو بن العاص الناس في الصلاة أثناء مرض عمرو (١). كما ناب عابس بن سعيد المرادي صاحب الشرطة عن عبد العزيز بن مروان والي مصر عند خروجه (٢) الى الخليفة عبد الملك بن مروان سنة ٦٧ هـ / ٦٨٦ م كما كان حفص بن الوليد صاحب شرطة الفسطاط قبل أن يلي حكم مصر من قبل الخليفة هشام ابن عبد الملك (٣).

الدواوين :

يعتبر تسجيل أسماء القبائل التي اختطت بالفسطاط منذ تأسيسها (٤) والحاقها بالديوان وافراد دعوة خاصة لكل قبيلة أول ما عرفت الفسطاط من نظام اداري . وقد ازداد هذا النظام دقة في عهد معاوية بن ابي سفيان اذ " جعل على كل قبيلة من قبائل العرب رجلا ... يصبح كل يوم فيدور على المجالس فيقول : هل ولد الليلة فيكم مولود وهل نزل بكم نازل (٥) .

---

(١) ابن عبد الحكم : فتوح مصر ص ١٠٥ ،
الكندي : الولاة ص ٣١ ـ ٣٢ .

(٢) الكندي : الولاة ص ٤٩ .

(٣) المرجع السابق ص ٧٤ ـ ٧٥ .

(٤) ابن عبد الحكم : فتوح مصر ص ٩٨ ومابعدهما .

(٥) المرجع السابق ص ١٠٢ .

لهذا يمكننا أن نعتبره أول سجل دقيق عن المواليد والوفيات يلحق بالديوان •

ولم يكن لديوان الانشاء خلال عصر الولاة الأمويين ثم العباسيين من بعدهم حتى ولاية أحمد بن طولون شأن كبير لاقتصاره على تبادل المكاتبات مع عاصمة الخلافة أو بعض الولايات الأخرى " ولذلك لم يصدر عنهم مايدون فى الكتب ولا يتناقل بالألسنة (١) " •

ونلاحظ من خلال أوراق البردى أنه فى آخر الكتب التى كان يرسلها الولاة أسماء الكتبة الذين كانوا يحررونها (٢) • ويذكر القلقشندى أنه " لم يكن ديوان الانشاء بالديار المصرية فى مدة الخلفاء اذ كانت الخلافة يومئذ فى غاية العز ورفعة السلطان ونيابة مصر بل سائر النيابات مضمحلة فى جانبها • والمكاتبات الصادرة عن النواب فى نياباتهم متصاغرة متضائلة بالنسبة الى مايصدر من أبواب الخلافة للولايات فلذلك لم يقع مما كتب منها ما تتوفر الدواعى على نقله ولا تتصرف الهمم لتدوينه (٣) " •

الا أنه منذ بداية عهد أحمد بن طولون وبداية ظهور شخصية مصر المستقلة • أخذ ديوان الانشاء فى الازدهار " وانتظم أمر المكاتبات والولايات • (٤) " واشتهر من كتاب الفسطاط كثيرون •

---

(١) القلقشندى : صبح الأعشى ج ١ ص ١٩٥ •
(٢) جروهمان : أوراق البردى العربية ص ٨ ، ٢٠ •
(٣) القلقشندى : صبح الأعشى ج ١١ ص ٢٨ •
(٤) المصدر السابق ج ١ ص ٩٥ •

ويمكن أن نؤرخ لنشأة ديوان الانشاء بالفسطاط بهذه الفترة ومن أمثلة من اشتهر من كتاب ديوان الانشاء في ذلك الوقت ابن عبد كان (١) والحسن بن رافع ويعقوب بن اسحق وجعفر بن عبد الغفار المصرى وأحمد بن أيمن (٢) كذلك يذكر القلقشندى أن أهل بغداد " كانوا يحسدون أهل مصر طبطب المحرر وابن عبد كان .. ويقولون بمصر كاتب ومحرر ليس لأمير المؤمنين بمدينة السلام مثلهما (٣) ."

كما ظهرت تقاليد خاصة بمصر لهذا الديوان كاستفتاح الرسائل بالدعاء غالبا والبشارة بوفاء النيل والبشارة في الركوب بفتح الخليج ويبدو أن هذه التقاليد الطولونية التى استنها ابن عبد كان ومن خلفه بلغت من الأصالة بحيث حذا حذوها كتاب الرسائل في العصر الفاطمي (٤).

وقد استحدث في الفسطاط أول ديوان للأحباس في خلافة هشام بن عبد الملك سنة ١١٨ هـ / ٧٣٦ م فقد كانت الأحباس من قبل في يد الأهالي وأوصيائهم فرأى قاضي الفسطاط وقتئذ توبه بن نمير أن توضع الأحباس تحت اشراف القاضي حفظا لها فصارت للأحباس ديوانا عظيما (٥).

وقد عرفت ادارة الفسطاط عدة وظائف منها وظيفة الحاجب وكان بمثابة رئيس الديوان وقد ازداد نفوذه واتسعت مهامه في عهد

---

(١) ابن سعيد : المغرب ص ٢٢٠ .

(٢) ابن الدايه : المكافأة ص ٩١ .

(٣) القلقشندي : صبح الأعشى ج ١ ص ٩٥ .

(٤) كامل حسين : فى الأدب المصرى الاسلامي ص ١٦٥ .

(٥) الكندى : الولاة والقضاة ص ٣٤٦ .

الطولونيين . ولما كان أحمد بن طولون حريصا على تقليد بلاط الخليفة في العراق ، فقد أكثر من عدد الحجاب في بلاطه ، الا أن هذا اللقب لم يصبح وقفا على موظف واحد كبير الا في مصر هارون ابن خمارويه .(١)

وقد عرفت الفسطاط نظام الوزارة منذ قيام الدولة الطولونية فقد كان أبو بكر محمد بن رستم الماذرائي وزيرا لخماروية كما كان وزيرا لهارون بن خماروية أيضا .

أما عن وظيفة صاحب البريد فقد أشار الكندي(٢) الى أن صاحب البريد بمصر كتب الى الخليفة المتوكل بأمر يتعلق بأحد الجند كما أشار في موضع آخر الى أن صاحب البريد بمصر في ولاية داود بن يزيد بن حاتم ١٧٤ هـ — ١٧٥ هـ / ٧٩٠ — ٧٩١ م أراد أن يتدخل في عمل قاضي الفسطاط اذ ذاك فلم يكن من القاضي الا أن استعفى عن القضاء(٣) .

وفيما عدا هاتين الاشارتين لانجد ذكرا لأصحاب البريد في الفسطاط ما يدل على وجود هذه الوظيفة وان لم تكن ذات أهمية كبيرة(٤) . ويذكر المقريزي أنه " لما كانت مصر امارة كان بها ديوان للبريد ويقال لمتوليه صاحب البريد واليه مجمع مايرد من دار الخلافة على أيدي أصحاب البريد من الكتب

---

(١) سيدة الكاشف : سيرة أحمد بن طولون ص ١٥٩ .
(٢) الكندي : الولاة ص ٢٠٣ .
(٣) المرجع السابق ص ٣٨٤ .
(٤) المقريزي : الخطط جـ ٣ ص ٣٦٨ .

وهو الذى يطالع أخبار مصر كما كان لبعض أمراء مصر كتاب ينشئون عنهم الكتب والرسائل (١) ."

كما كان لديوان الخراج بالفسطاط مبنى مستقل منذ تأسيس القطائع وانتقال دار الامارة من المعسكر اليها ، فقد أبقى الطولونيون دار الامارة بالمعسكر التى كان قد أسسها صالح بن على وجعلوها ديوانا للخراج .

هذا ويلاحظ من قراءة أوراق البردى أن اللغتين اليونانية والعربية كانتا مستعملتين فى دواوين الحكومة الأولى ويؤيد ذلك البرديات رقم ٦٨ ، ٢٩ ، ٦٠ ، ٦٥ ، ٦٩ التى صدرت عن الوالى قرة بن شريك (٢) .

ويلاحظ أيضا أنه فى بعض البرديات كتابات باللغة القبطية الى جانب اللغتين اليونانية والعربية ، ولكن اللغة القبطية كانت لغة ثانوية ، ذلك لأن الكتابات القبطية دونت اما فى آخر الوثيقة أو فى ظهرها ، ويقول جروهمان فى وصف احدى هذه الأوراق ." .... وعرض الفراغ الذى بين السطر الأخير من الطراز والسطر الأول من الصك القبطى ٥ سم (٣) ." كما يقول فى وصف الطراز رقم ٦ المؤرخ بسنة ٨٦ — ٩٦ هـ / ٧٠٥ — ٧٠٦ م : " وفى أسفل الطراز فراغ عرضه ٥ر١ سم (٤) " فضلا عن أن المكاتبات القبطية دونت بحبر مخالف للحبر الذى كتب به النص الأصلى للوثيقة (٥) .

---

(١) المقريزى : الخطط جـ ٣ ص ٣٦٨ .

(٢) اوراق البردى العربية ص ٢٨ ، ٣٠٦ ، ٣١٦ ، ٣٢٦ ، ٣٤٤ .

(٣) ا. جروهمان : أوراق البردى العربية ص ١٣ .

(٤) جروهمان : أوراق البردى العربية ص ١٣ ، ص ٤٤ .

(٥) جروهمان : أوراق البردى الطراز رقم ٦٠ ص ١٣ .

وقد ظل الامر على هذا النحو حتى تم تعريب الدواوين فى عهد عبد الملك ابن مروان (١) . فاستبعد كثير من القبط الذين كانوا يشغلون كثيرا من المراكز بها .

هذا ولا يفوتنا أن نذكر أن الولاة كانوا يحضرون مجالس القضاة الى عهد محمد بن مسروق الكندى الذى تولى القضاء سنة ١٧٧ هـ / ٧٩٣ م من قبل الرشيد فلم يقبل ذلك ، ومنذ عهده امتنع الولاة عن حضور مجالس القضاة (٢) . وكان أحيانا مايجمع للوالى الولاية الى جانب القضاء مثلما جمع لعبد الرحمن بن معاوية القضاء وامرة الفسطاط معا (٣) .

ومن المعروف أن مجالس القضاء كانت تعقد فى المسجد الجامع ويذكر الكندى أنه لم يكن للقضاة قمطر " فى أول الأمر وأن أول من استحدثه هو القاضى محمد بن مسروق . فكانت سجلات القضاء تودع فى بادئ الأمر فى دار عمرو بن العاص (٤) . ويذكر أنه " حين قدم هرون بن عبد الله سنة سبع عشرة جعل مجلسه فى الشتاء فى مقدم المسجد واستدبر القبلة وأسند ظهره بجدار المسجد ومنع المصلين أن يقربوا منه وباعد الخصوم .. وكان أول من جعل ذلك واتخذ مجلسا للصيف فى الصحن وأسند ظهره للحائط الغربى . "

---

(١) الكندى : الولاة والقضاة ص ٤٤٢ ، القلقشندى : صبح الأعشى ج ١ ص ٤٢٣ .

(٢) الكندى : الولاة ص ٣٢٨ .

(٣) المرجع السابق ص ٣٢٤ .

(٤) الكندى : الولاة والقضاة ص ٤٣٧ ، ٣٩١ ، ٣٩٢ .

وبهذا يعطينا الكندى أول وصف لمجلس القاضى داخل المسجد الجامع •

هذا عن الفسطاط المدينة نشأتها وخططها ومرافقها العامة وحكومتها • فلنعرض بعد ذلك للحياة الاقتصادية فى المدينة •

البــــاب الثانــــــى

الحيـاة الاقتصادية فـي مدينـة الفسطـــــاط

الموضوعـات :

- الموارد المالية : الجزية ـ الزكاة ـ الضرائـب .
- المصروفات : عطاء الجند ـ رواتب الموظفـين .
- ديوان الخـراج .
- التجارة ـ الصادرات ـ الواردات ـ الأسواق .
- أساليب التعامل فى الأسواق : النقود ـ السفاتج ـ الصكوك ـ البنوك .
- الصناعة : النسيج ـ الحصير والأبسطة ـ الخزف ـ الزجـاج ـ الورق ـ الخشـب .
- مستوى المعيشـة .

======

نريد بعد هذا أن نعطى تصورا للحياة الاقتصادية داخل أسوار هذه المدينة ، بقدر ماتسمح به الوثائق على قلتها ، لأن كل من تصدى للحياة الاقتصادية من القدامى والمحدثين تحدثوا عن الحياة الاقتصادية فى عصر الاسلامية عامة ، لهذا كان من الصعوبة بمكان أن نلق أضواء واضحة على مدينة الفسطاط وحدها .

ومع ذلك فان دراستنا للحياة الاقتصادية تتناول النظم المالية فى المدينة من موارد بيت المال ، ومصروفاته ثم النقود كأسلوب فى التعامل ، ثم تجارة الفسطاط ، الصادر من أسواقها ، والوارد اليها ثم نظم هذه الأسواق نفسها ، وأسلوب التعامل فيها ، ثم التعرض للصناعة فى المدينة مع الاشارة الى مستوى المعيشة والأسعار فيها .

أ — موارد المدينة الثابتة :

كانت ترد لبيت المال بالفسطاط أموال الدولة جميعها بما فيها أموال المدينة ذاتها (١) . وكانت الجزيه من أهم تلك الموارد .

١ — الجزيه : هى ضريبة الرأس التى فرضها العرب على أهل الذمة من المسيحين واليهود (٢) . وكانت ثلاث فئات فئة للغنى وفئة لمتوسط الحال ، وفئة للفقير . فأوراق البردى تثبت بما لايدع مجالا للشك أن أهل الذمة

---

(١) الجهشيارى : كتاب الوزراء والكتاب ص ٢١٨ .
(٢) القرآن الكريم سورة التوبة آية ١٩ .

لم يتساووا فى دفع الجزية ، بل كانت تقرر قيمة الجزية على أساس ثروة الفرد فتذكر احدى البرديات أن (١) " قرة بن شريك " أرسل يأمر صاحب كورة أشقوه بارسال كشف بالأماكن المختلفة لمعرفة عدد الرجال فى كل مكان ، وتحديد مقدار الجزية الواجبة على كل منهم ومعرفة ممتلكات كل فرد من الأراضى وما يقوم به من الأعمال .

كما حفظت أوراق البردى كشوفا من القرن الثالث الهجرى دونت فيهما أسماء أشخاص مختلفين ، ذكر فيها مقدار الجزية الواجبة على كل فرد (٢) .

والمصادر الاسلامية (٣) تؤيد ما ورد فى أوراق البردى اذ تشير الى أن الجزية كانت من ثلاث فئات : أولها فئة الموسرين فيؤخذ منهم ثمانية وأربعون درهما والثانية من الطبقة الوسطى فيؤخذ منهم أربعة وعشرون درهما ، والثالثة دون ذلك ويؤخذ منها اثنا عشر درهما .

واذا كان هذا يصدق على أهل الذمة فى مصر كلها فانه يصدق أيضا على أهل الذمة فى الفسطاط ، اذ ليس ثمة مايشير الى نظام خاص فرض على أهل الذمة المقيمين فى الفسطاط ... فشأنهم شأن بقية الذميين فى مصر كلها من حيث مقدار الجزية ، ومن حيث ماروى من رأفة فى جبايتهما .

---

(1) Bell : Translations of the Greek aphrodito Der Jslam vol 2.p. 272 .

(2) Grohmann : Arabic Papyri in Egyption Library. vol . 3p . 197 - 198 / 2o1 - 2o3 , 219 - 221 .

(٣) البلاذرى : فتوح البلدان ص ٢١٤ .
ابو يوسف : كتاب الخراج ص ١٢٢ وما بعدها ، القلقشندى : صبح الاعشى ج ٣ ص ٤٦١ .
ابن البطريق : التاريخ المجموع ص ٥١٧ .

ولم تكن الجزية تؤخذ دفعة واحدة بل كانت تجبى على عدة إقساط وتحسب على أساس الشهور وفقا للسنة الهلالية (١). ويعين لجبايتهما اثنان أحدهما من اليهود والآخر من النصارى يكونان على دراية بأسماء الأفراد الواردة في الديوان ، وبأسماء من يستجد منهم من من يبلغ السن الواجبة للدفع في كل عام ، ومن ينزح إلى الفسطاط من المدن والقرى الأخرى وكذلك أسماء المتوفين (٢). وكان يعطى من دفع الجزية براءة أو ايصالا يثبت أدائه لها (٣).

٢ ـ الزكاة :

لم يشر ابن عبد الحكم ومن جاء بعده من مؤرخي مصر الاسلامية الى مقدار الزكاة التي كانت تجبى من أهل الفسطاط ←

---

(١) متز : الحضارة الاسلامية ج ١ ص ١٨١ .

(٢) القلقشندي : صبح الأعشى ج ٣ ص ٤٦١ .

(٣) متز : الحضارة الاسلامية ج ١ ص ٧٦ ـ ٧٧ .

والزكاة هي الحد المالي الواجب على المسلم شرعا (١) ، فكما كانت الجزية تجبى من أهل الذمة كان يؤخذ من المسلمين الزكاة أو الصدقة وقد أثبتت أوراق البردي أن الولاة في الفسطاط كانوا يقومون بجباية الزكاة ويسلمون الأهالي ايصالا أو براءة تثبت تأدية ما عليهم من زكاة حسب الشريعة الاسلامية . وقد حفظت احدى البرديات ايصالا يرجع الى القرن الثاني الهجري سنة ١٤٨ هـ / ٧٦٥ م (٢) عن زكاة بعض الأفراد .

وكان بالفسطاط ديوان خاص بالزكاة يتولاه موظف خاص يعرف بعامل الصدقات ، وكان يختاره الخليفة لا الوالي اذ كان للزكاة ديوان خاص بها في عاصمة الخلافة له فروع في الولايات . وكان الخليفة يختار عمال الصدقات بنفسه " لضمان العدل " (٣) .

وكانت الزكاة شأنها شأن الجزية تحسب على أساس الشهور وفقا للسنة الهلالية (٤) .

---

(١) يذكر الماوردي : الأحكام السلطانية ص ١١٣ أن الزكاة " من الأموال المرصدة للنماء — اما بنفسها أو بالعمل بها . " أي أنها المدخر من الأموال الفائضة عن الحاجة أو التي تستخدم في الأعمال التجارية الحرة كرأس مال وكانت تجبى باذن خاص من الخليفة باعتبارها من شارات الخلافة .

(٢) أبو اسحق الصابي : رسائل الصابي ج ١ ص ٩٨ ، ٩٩ ، ١١١ ، أبو يوسف : كتاب الخراج ص ١٠٧ .

(٣) متز : الحضارة الاسلامية ج ١ ص ١٨١ .

(٤) أبو يوسف : كتاب الخراج ص ٧٦ ، يحيى بن آدم : كتاب الخراج ص ١٢٥ .

الموارد غير الثابته : الضرائب :

فرض العرب على التجار والصناع ضرائب كانت تقدر حسب جنسية التاجر فكانت ١٠ ٪ على أهل الذمة و ٥ر٢٪ على تجارات المسلمين (١) • وكان مقدار ما يجبى من عشور التجارة يتوقف على مدى نشاط التجارة فى المدينة •

وكانت الضرائب المفروضة على التجار من أهل الذمة نوعين : أولهما الضريبة التى تفرض على التجار المقيمين بالبلاد الاسلامية وتبلغ $\frac{1}{20}$ من قيمة بضائعهم وتجبى مرة فى السنة متى تجاوزت قيمة البضائع مائتى درهم • وثانيها الضريبة التى تفرض على التجار القادمين من الخارج وتبلغ عشر قيمة بضائعهم اذا زادت قيمة تلك الضرائب على مائتى درهم (٢) •

ويصف المقدسى (٣) الضرائب التى فرضت على التجار والصناع فى الفسطاط بقوله " أما الضرائب فثقيلة بخاصة تنيس ودمياط وعلى ساحل النيل ••• وأما ثياب الشطويه فلا يمكن القبطى ان ينسج شيئا منها الا بعد ما يختم عليها بختم السلطان ولا تباع الا على يد سماسرة وعقدت عليهم وصاحب السلطان يثبت ما يباع فى جريدته ثم تحمل الى من يطويها ثم الى من يشدها بالقش ثم الى من يشدها فى السفط والى من يحزمها وكل واحد منهم له رسم يأخذه ثم على باب الفرض يؤخذ أيضا شئ وكل واحد يكتب على السفط علامته ثم تفتش

---

(١) أبو يوسف : كتاب الخراج ص ٧٦ ، يحيى بن آدم : كتاب الخراج ص ١٢٥ •
(٢) يحيى بن آدم : كتاب الخراج ص ١٠ ـ ١٣ ، ١٢٦ •
(٣) المقدسى : المسالك والممالك ص ٢١٣ •

المراكب عند اقلاعها ثم على شط النيل بالفسطاط ضرائب ثقال ".(١)

ويشير الكندى الى ضريبة الارث التى تستحق على تركة المتوفى(٢) ، وكان لهذه الضريبة ديوان خاص فى الفسطاط أطلق عليه اسم " ديوان المواريث " ويضيف الكندى أن القاضى العمرى كان أول من وضع ببيت المال تابوتا تودع فيه أموال اليتامى وأموال من لا وارث لهم ، حيث كانت تسجل فى دفاتر خاصة تودع بيت المال . وكان يعين لديوان المواريث هذا ناظر ومعه معاونين يقومون بتسجيل أسماء من يموتون سواء من المسلمين أو من أهل الذمة .

وفى سنة ١٣٣ هـ / ٧٥٠ م أرسل أبو جعفر المنصور الى أبى عون والى مصر يأمره بادخال أموال اليتامى فى بيت المال(٣) .

كما يذكر الكندى أنه عندما ولى قضاء الفسطاط " محمد بن أبى الليث " سنة ٢٢٦ هـ / ٨٤٠ م من قبل اسحق المعتصم نادى مناديه " برئت الذمة من رجل كان فى يديه شئ من مال يتيم أو غائب الا أحضره فتسرع الناس الى اخراج ما فى أيديهم من ذلك وحملوه الى بيت المال خوفا من سطوته بهم(٤) " .

وقد ظل ديوان المواريث بالفسطاط الى أن ألغاه الخليفة المعتضد سنة ٢٣٨ هـ / ٨٥٢ م حيث أمر بأن يكتب الى جميع البلدان بأن يرد مايبقى من أنصبة المواريث الى ذوى الأرحام وبالغاء ديوان المواريث . الا انه بعد وفاته عاد هذا الديوان من جديد(٥) الى أن أمر الخليفة المقتدر بالغائه

---

(١) المقدسى: المسالك والممالك ص ١١٣ .

(٢) الكندى : الولاه والقضاة ص ٤٠٥ .

(٣) القلقشندى : صبح الأعشى جـ ٣ ص ٤٦٤ .

(٤) الكندى : الولاة والقضاه ص ٤٠٥ .

(٥) هلال بن الصابى : تحفة الأمراء فى تاريخ الوزراء ص ٢٤٧ - ٢٤٩ .

سنة ٣١١ هـ/ ٩٢٣ م حيث كتب الى كافة الولاة بأن ترد " الى ذوى الأرحام ما أوجب الله وأن ترد تركة من مات من أهل الذمة ولم يخلف وراثا على أهل ملته (١) . "

كما فرضت ضرائب على أهل الأسواق والدواب فى الفسطاط وأخذت تزداد زيادة كبيرة فى عهد الاخشيديين حتى أن المقدسى يذكر أنه " قد بلغ من شدة وطأة الضرائب بها وكثرة الرسوم أن أهلها شكوا الى البطريق وهو مار بمصر حوالى عام ٢٠٠ هـ (٨١٥ م) أن الواحد منهم يلزم بدفع خمسة ودنانير كل عام وهو مبلغ لا يقدرون عليه كما تستعمل القسوة فى تحصيله منهم (٢) .

كما كانت المصادرات التى استفحل أمرها فى عهد الاخشيد ٣٠٠ — ٣٠٥ هـ/ ٩١٢ — ٩١٧ م تشكل دخلا كبيرا لبيت المال فقد كان الاخشيد يقبض على عماله وخاصة وثقاته (٣) . ويصادرهم على المبالغ الكبيرة هم وأهلهم ومن يكون فى دورهم يوم المصادرة وكان أحب اليه أن يأخذ علمائهم بسلاحهم ودوابهم وثيابهم فيجعلهم بين يديه ومن أفلت من المصادرة حيا أخذت أمواله بعد وفاته " كما يذكر ابن سعيد (٤) انه " اذا توفى قائد من قواده أو كاتب تمرض

---

(١) الكندى : الولاة والقضاة ص ٤٠٥ .

(٢) المقدسى : أحسن التقاسيم ص ٢١٣ .

(٣) ابن سعيد : المغرب ص ١٦ — ١٧ .

(٤) ابن سعيد : المغرب ص ١٦ — ١٧ .

ورثته وأخذ منهم وصادرهم ، وكذلك كان يفعل مع التجار المياسر . "وأنه حين توفى أكبر تاجر من تجار الفسطاط وهو عنان بن سليمان أخذ الاخشيد من ميراثه نحو مائة ألف دينار (١) . ولذا كان الناس يضطرون الى ايداع أموالهم عند أشخاص متفرقين ، كما كانوا يغيرون أسماءهم وألقابهم تحاشيا للمصادرة (٢) .

تلك اذن هى ايرادات المدينة بقدر ماتذكره المصادر ففى أى وجه من وجوه الانفاق كانت تصرف كل هذه الأموال ؟

كان يدفع منها عطاء الجند :

كان العطاء الذى يصرف للجند العرب من أهم المصروفات التى تخرج من خزانة بيت المال بالفسطاط (٣) . وقد ذكر ابن عبد الحكم أن عدد الجند العرب الذين اختطوا بالفسطاط عند الفتح ستة آلاف جندى استحق جميعهم العطاء ، وقد تضاعف هذا العدد فبلغ فى عهد معاوية أربعين ألفا وفى عهد مروان بن الحكم أكثر من ثمانين ألفا ، مما أدى الى اعادة تدوين العطاء ثلاث مرات فى فترات متقاربة بعد التدوين الأول الذى تم به عمرو بن العاص سنة ٤٣ هـ / ٦٦٣ م ، فقد دون عبد العزيز بن مروان تدوينه

---

(١) المصدر السابق ص ١٧ .

(٢) الجهشيارى : كتاب الوزراء ص ١٧٤ .

(٣) ابن عبد الحكم : فتوح مصر ص ١٠٢ .

الثانى سنة ٨٦ هـ / ٧٠٥ م ، كما دون قرة بن شريك التدوين الثالث سنة ٩٥ هـ / ٧١٣ م ، ثم التدوين الرابع سنة ١٠٢ هـ / ٧٢٠ م الذى قام به بشر بن صفوان (١) .

ويبدو أن الولاة قد راعوا فى بادئ الأمر أن يكون العطاء مجزيا حتى يفتى العرب عن الاشتغال بحرف أخرى والتفرغ للقتال (٢) .

وكان الحد الأعلى من العطاء الذى يدعى " شرف العطاء " يبلغ ألفين وخمسمائة درهم (٣) وكان يعطى لأهل الأيام والفتوح الأولى ولا يورث .

ولم يشر ابن عبد الحكم الى مقدار العطاء الذى كان يصرفه للجند فى الفسطاط ، كما لم تكن هناك قواعد واضحة لزيادة العطاء القليل أو لاضافة أسماء تحل محل من يتوفى من مستحقى العطاء ، اذ كانت ترد الى بيت المال فى الفسطاط أرزاق من سقطت أسماؤهم من ديوان الجند بالوفاة (٤) . الى أن قرر عمر بن عبد العزيز أن يختار ولدا واحدا من أولاد الرجل المستحقين للعطاء عن طريق الاقتراع ليعطى المائة درهم وليرث مكان أبيه فى العطاء (٥) .

---

(١) الكندى : الولاة والقضاة ص ٧١ ، المقريزى : الخطط ج ١ ص ٩٤ .

(٢) الكندى : الولاة ص ٧٠ ، الماوردى : الأحكام السلطانية ص ١٩٥ = ١٩٦ .

(٣) الأصفهانى : الاغانى ج ٩ ص ١٦٤ ، ج ١٩ ص ١٥٢ ،

البلاذرى : أنساب الأشراف ج ٤ ص ٧٤٩ مخطوط القاهرة .

(٤) أبو شجاع : ذيل تجارب الأمم ص ٢٧٦ .

(٥) الطبرى : تاريخ الأمم والملوك ج ٢ ص ١٣٦٧ .

وظل العرب المقيمون في الفسطاط يأخذون العطاء الى إن أسقطه والي الفسطاط كيدر بن نصر ٢١٦ - ٢١٩ هـ / ٨٣١ - ٨٣٤م من قبل المعتصم (١) .

وليست لدينا احصاءات دقيقة يمكن اعتمادا عليها أن نحدد مقدار ماكان يدفع في المدينة عطاء للجند المستقرين بها .

وكانت رواتب الموظفين في الفسطاط تمثل جانبا هاما من المصروفات كرواتب صاحب الشرطة ورجاله، وصاحب البريد ورجاله . هذا ولم توضح المصادر مقدار تلك المرتبات التي تعطى لأصحاب الشرطة والبريد ومعاونيهما . في حين أنها تتحدث كثيرا عن رواتب القضاة فأشارت (٢) الى بساطة راتب القاضي في أول عصر الولاة . وذكر الكندي أنه لما ولي قضاء الفسطاط " ابن حجيرة " سنة ٧٠ هـ / ٦٨٩ م كان راتبه السنوي مائتي دينار . ولما كان هذا لا يكفيه فقد أوكل اليه القصص وادارة بيت المال " فكان رزقه من ادارة بيت المال أربعمائة دينار وكان عطاؤه مائتي دينار وكانت جائزته مائتي دينار وكان مجموع رزقه في السنة ألف دينار (٣) " .

وفي سنة ١٣١ هـ / ٧٤٨ م كان رزق قاضي الفسطاط عبد الرحمن ابن سالم عشرين دينارا في الشهر ، ولم يكن هذا المبلغ يكاد يكفيه للانفاق على كتابة وغير ذلك مما يتطلبه ديوانه (٤) .

---

(١) الكندي : الولاة ص١٩٣ ،أبو المحاسن : النجوم ج ٢ ص ٢٢٣ ،المقريزي: الخطط ج ١ ص ٩٤ .

(٢) الكندي : الولاة والقضاة ص ٣٠٧ ، ٣٠٤ ، ٣٦٩ ، ٤٢١ .

(٣) الكندي : الولاة والقضاة ص ١١٧ .

(٤) المصدر السابق : ص ٣٥٤ .

كما يوضح الكندي مدى ضآلة مرتب القضاة حين يذكر أن رجلا دخل على قاضي الفسطاط في سنة ٩٠ هـ / ٧٠٨ م وقد تغدى " فقال أتتغدى ؟ قال : نعم ، فأتت الجارية بعدس بارد على طبق خوص وكمك وماء ، فقال : أبلل وكل فلم تتركنا الحقوق نشبع من الخبز (١) ! "

كما يضيف الكندي أن القاضي " ابن حجيرة " قاضي الفسطاط كان يأخذ ألف دينار في كل سنة " فكان لا يحول عليه الحول وعنده منها شيء ينفقه على أهله واخوانه (٢) ".

ويبدو أن ضآلة المرتبات هذه قد حدت بالقضاة الى الاشتغال بالتجارة الى جانب مباشرتهم لمهام منصبهم كقضاة ، اذ يذكر الكندي أن القاضي خير بن نعيم الحضرمي الذي تولى القضاء والقصص بالفسطاط عام ١٢٠ هـ / ٧٣٧ م كان يتجر الى جانب منصبه بالزيت (٣) .

وقد ظل الوضع كذلك الى ان اهتم الولاة العباسيون بالقضاة فرفعوا رواتبهم فبلغ مرتب عبد الله بن لهيعة الذي تولى القضاء في الفسطاط سنة ١٥٥ هـ / ٧٧٢ م من قبل المنصور ثلاثين دينارا شهريا (٤) . وفي عهد المأمون بلغ راتب القاضي مائة وثمانية وستين دينارا في الشهر وكان " الفضل بن غانم " هو أول قاض يحصل على هذا الراتب الكبير (٥) !

---

(١) الكندي : الولاة والقضاة ص ٣٣١ .

(٢) المصدر السابق ص ٣١٧ .

(٣) الكندي : الولاة والقضاة ص ٣٥٢ .

(٤) المصدر السابق ص ٣٦٩ .

(٥) المصدر نفسه ص ٤٢١ .

ولما تولى مصر عبد الله بن طاهر أجرى على قاضي الفسطاط عيسى ابن المنكدر عام ٢١٢ هـ / ٨٢٧ م سبعة دنانير كل يوم " فجرت في القضاء الى اليوم . "

وهكذا ارتفع راتب القاضي ، فبعد أن كان رزق القاضي حتى قرب نهاية القرن الأول الهجري حوالي مائتي دينار في السنة ، أصبح في النصف الاول من القرن الثاني الهجري عشرين دينارا ثم صار في بداية النصف الثاني من ذلك القرن مايقرب من ثلاثين دينارا شهريا وعند نهاية القرن الثاني وصل راتب القاضي الى مائة وثمانية وستين دينارا شهريا .

وكانت الحكومة فوق ذلك كله تدفع مرتبات موظفي الدواوين . "

واذا كنا قد أشرنا الى الايرادات والمصروفات فانه ينبغي أن نتحدث قليلا عن ديوان الخراج الذي كان قيما على الموازنة بين الايرادات والمصروفات .

ديوان الخراج المركزى فى الفسطاط :

كان لديوان الخراج فى الفسطاط " ولعامل الخراج " أهمية كبرى اذ أنه المهيمن على الادارة المالية وهو مسئول أمام الخليفة مباشرة لا أمام الوالى ومن ثم فهو ينافس الوالى سلطاته .

ولقد كان الخلفاء يخشون تزايد نفوذ الوالى ولذا أسندوا ادارة البلاد المالية الى عامل الخراج ولعل خير معبر عن ذلك مارواه ابن عبد الحكم من أنه عندما هزم عمرو بن العاص الروم وطردهم من الاسكندرية سنة ٢٥ هـ/٦٤٥م أراد الخليفة عثمان ابن عفان أن يولى عبد الله بن سعد بن أبى سرح على الخراج فقال عمرو : " أنا اذن كما سك البقرة بقرنيها وآخر يحلبها ". (١) واعتزل ولاية مصر .

ويذكر ابن سعيد أن ولاية مصر على قسمين واله للحرب والصلاة وآخر للخراج وتدبير الأموال ، حتى جاء ابن طولون فجمع بين الولايتين وكذلك فعل الاخشيد (٢) .

وكانت مهمة عامل الخراج ، حمل خراج مصر الى خزانة الخلافة كما يتولى الانفاق على الولاية ذلك لأن خزانة الخلافة العامة لاتتولى سوى أمر نفقات دار الخلافة والدواوين (٣) . وكان بديوان الخراج بحاضرة الخلافة السجلات التي يدون فيها تقديرات الخراج على مناطق الدولة المختلفة ، وأنواع الأراضى بكل ولاية ، فهو المشرف على الأموال التي ترد اليه من دواوين الخراج فى الولايات .

---

(١) ابن عبد الحكم : فتوح مصر ص ١٧٨ طبعة تورى .

(٢) ابن سعيد : المغرب ص ١٥ .

(٣) الصابى : كتاب الوزراء ص ١١ وما بعدهما .

وينقسم ديوان الخراج فى الفسطاط كغيره من دواوين الحكومة فى الولايات الى قسمين يشرف أحدهما على النفقات ويرسل مايتبقى الى بيت المال العام فى عاصمة الخلافة ، ويشرف الثانى على الموارد ويشير ابن عبد الحكم الى مقدار ماكان يرسل نقدا الى دار الخلافة زمن معاوية ما أرسل نقدا فى عهد مسلمة بن مخلد ٤٧ ــ ٦٢ هـ / ٦٦٧ ــ ٦٨١ م ستمائة ألف دينار (١) • بعد دفع عطاء الجند والانفاق على البلاد وا سال القمح الى الحجاز •

وقد أصبح لديوان الخراج مبنى مستقل منذ تأسيس القطائع وانتقال دار الامارة بالعسكر اليها • فقد ابقى الطولونيون دار الامارة بالعسكر التى كان قد أسسها صالح بن على وجعلوها ديوانا للخراج • وكان الخراج قبل ذلك ينقل الى بيت المال فى الفسطاط الذى كان مقره المسجد الجامع أمام المنبر كما أشار الى ذلك ابن عبد الحكم فى قوله : " وكانت دار عبد الله بن حسرث الزبيدى تلى المسجد وقبلى بابها اليوم مرحاض بيت المال (٢) • ولم يكن بيت المال فى الفسطاط وقفا على حفظ أموال الضرائب فحسب فكان يرد اليه اموال اليتامى وأموال من لا وارث لهم •

وكان فى كل اقليم من أقاليم مصر فرع لديوان الخراج المركزى هذا يشرف عليه موظف يتبع متولى الخراج فى العاصمة •

---

(١) ابن عبد الحكم : فتوح مصر ص ١٠٢ طبعة ليدن •

(٢) المصدر نفسه ص ١٠٣ •

كما كان أصحاب الكور في أنحاء مصر يتصلون بعامل الخراج لتأدية الضرائب الواجبة على الكورة الخاضعة لاشرافهم وعلى القرى التابعة لهما تحت اشراف رؤساء القرى وذوو النفوذ فيها . ويتضح ذلك من احدى البرديات التى تبين أن والى مصر قرة بن شريك أرسل الى صاحب كورة أشقوه تعليمات خاصة بجباية الضرائب فيأمره بجمع رؤساء كل قرية وذوى النفوذ فيها كى يختاروا رجالا أمناء أذكياء ليكلفهم بتقدير ما على كل قرية من الضرائب بقدر استطاعتهم ، وبعد الانتهاء من مهمتهم يقدمون نتيجة عملهم ويكتبون أسماء وألقاب ومحل اقامة الذين قاموا بتقدير الضرائب ، وينذره بأنه اذا وجد أن قرية حملت اكثر مما تحتمل من الضرائب أو اقل فانه سيعاقب هؤلاء الذين قاموا بتقدير الضرائب وصاحب الكورة أيضا أشد العقاب (١) .

---

(١) من المعروف أن مصر فتحت عنوة ولكن العرب أبقوا أراضى مصر على حالها ولم يتعرضوا لها ، ومنحوا المصريين عهدا عرف باسم صلح بابليون اذ أن العرب كانوا يعتبرون أنفسهم محاربين للروم لا للمصريين . كما أنه من المعروف أن هناك فرق بين الأرض التى تفتح صلحا والتى تفتح عنوة فالأولى التى تفتح صلحا يتفق اهلها على مقدار الجزية والخراج الذى يؤخذ منهم دون أن يمس الفاتحون الأرض وذلك كان الحال فى مصر أما الأراضى التى تفتح عنوة فتكون فى حكم الغنيمة وتقسم طبقا لتشريع الاسلام .. وقد أبقى العرب أرض مصر على حالها وأجريت مجرى البلاد المفتوحة صلحا . وكان الخراج يجبى كما كان الحال أيام البيزنطيين على أساس مساحة الأرض مع مراعاة حالة الفيضان .

سيدة الكاشف : مصر فى عصر الولاة ٤٣ - ٤٤ .

وكان الخراج في مصر يجبى نقدا وعينا ، وكان القمح أهم مايجبى عينا بالاضافة الى أنواع أخرى من الطعام كالزيت والعسل .. ويرسل القمح من الكور ليودع في أهراء العاصمة في الفسطاط .

٢ ـ التجـــارة

الصادرات :

كان لموقع الفسطاط على نهر النيل ، وتوسطها بين الوجهين القبلى والبحرى ، واتصالها بكافة البلاد العربية عن طريق النيل ،فضلا عن الطرق البرية التى كانت مسارا للقوافل المتجهة نحو الحجاز وبلاد المغرب (١) أثر كبير فى ازدهار التجارة بها منذ تأسيسها ، وخاصة بعد حفر خليج أمير المؤمنين الذى يربط بين البحر الأحمر والنيل شمالى الفسطاط . تلك القناة التى كانت قد أهملت قبل الفتح العربى لمصر . ويذكر ابن عبد الحكم (٢) ان عمر قد كتب الى عمرو يأمره بشق هذا الخليج بقوله : " ان الله قد فتح على المسلمين مصر وهى كثيرة الخبز والطعام وقد القى فى روعى لما أحببت من الرفق بأهل الحرمين والتوسعة عليهم حين فتح الله عليهم مصر وجعلها قوة لهم ولجميع المسلمين أن أحفر خليجا من نيلها حتى يسيل فى البحر فهو أسهل لما نريد من حمل الطعام الى المدينة ومكة فان حمله على الظهر يبعد ولا نبلغ منه ما نريد ."

يتضح من ذلك مدى حرص عمر على تسهيل الاتصال بين الفسطاط والجزيرة العربية حتى يتسنى تصدير منتجات الفسطاط وبقية أقاليم مصر اليها . ويبدو أن عمرو بن العاص قد تردد فى أول الأمر فى شق تلك القناة خشية أن يؤثر ذلك على اقتصاديات مصر . اذ يذكر ابن عبد الحكم (٣) أن عمرو استشار

---

(١) البراوى : حالة مصر الاقتصادية فى عهد الفاطميين ص ١٩٩ .

(٢) ابن عبد الحكم : فتوح مصر ص ١٦٣.

(٣) ابن عبد الحكم : فتوح مصر ص ١٦٣ .

أهل مصر فى شق تلك القناة فثقل ذلك عليهم ، وقالوا تخوف أن يدخل فى هذا ضرر على مصر فنرى أن تعظم ذلك على أمير المؤمنين وتقول له ان هذا الأمر لايعتدل ولا يكون ولا نجد اليه سبيلا ."

الا أن عمر بن الخطاب كان شديد الحرص على شق تلك القناة فشدد على عمرو حتى رضخ لأمره (١). وقد أفادت التجارة كثيرا من حفر هذه القناة ، وقد سميت باسم خليج امير المؤمنين نسبة الى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب . الا أنه قد أهمل شأن تلك القناة بعد عهد الخليفة الأموى عمر بن عبد العزيز ٩٩ — ١٠١ هـ / ٧١٧ — ٧١٩ م ولم توضح المصادر تماما أنواع الصادرات التى كانت تصدرها الفسطاط الا أنه من الثابت أنها كانت تصدر سنويا كسوة الكعبة ، ويذكر الأزرقى أن عمر بن الخطاب " كسا الكعبة القباطى (٢)." وهو النسيج المصنوع بأيدى قبط مصر فى الفسطاط كما كانت الفسطاط تصدر الى العراق سنويا الثياب الرقاق والقراطيس والكتان (٣)

---

(١) ابن عبد الحكم : فتوح مصر ص ١٦٤ ، ويذكر ابن خلدون فى المقدمة ص ٣٩ أنه " مازال الملوك فى الاسلام وقبله يردون شق مابين البحرين الا أن ذلك لم يتم . " وأن عمرو بن العاص فكر فى حفر قناة تصل مابين البحرين الاحمر والابيض رأسا وكذلك فكر فى هذا الأمر هارون الرشيد الا أن ذلك المشروع لم يخرج عن حيز التفكير .

(٢) الأزرقى : أخبار مكة ج ١ ص ١٦٨ — ١٦٩ .

(٣) الجاحظ : التبصر بالتجارة ص ٢٧ .

والأقمشة الدبيقية بما يبلغ مابين عشرين ألف وثلاثين ألف دينار (١) .

وقد شهد القرن الثالث الهجرى انتعاشا تجاريا كبيرا (٢) ، وصادف هذا الوقت فى مصر قيام الدولة الطولونية ، فاستفاد الطولونيون من تلك النهضة التجارية فائدة كبرى ، فدعم أحمد بن طولون مركز مصر الاقتصادى ومكانتها فى الأسواق العالمية باصلاح العمله وسكه للدينار الأحمدى (٣) الذى ارتفعت قيمته فارتفع على اثرها قيمة الدينار الذهبى فى شرق الدولة الاسلامية ، مما عزز مكانة مصر التجارية وشجع وفود رؤوس الأموال من البلاد الاسلامية واقبال التجار المسلمين من كل قطر عليها للمتاجرة . فاستوطنت الفسطاط جالية عظيمة من الفرس منذ القرن الثالث الهجرى ساهمت بنصيب كبير فى الحركة التجارية (٤) .

٢ ـ الواردات :

كانت الفسطاط تستورد المعادن اللازمة للصناعة من فارس حيث يرد اليها الفضة من كرمان وكابل وفرغانة ، ومن بخارى كان يأتى الى أسواق

---

(١) المقدسى : أحسن التقاسيم ص ٢٥٣ .

(٢) متز : الحضارة الاسلامية ج ٢ ص ٢٧٢ .

(٣) البلوى : سيرة أحمد بن طولون ص ١٩٦ .

(٤) الكندى : الولاة والقضاة ص ٢٠٤ ، البلوى : سيرة أحمد بن طولون ص ٥٣ ، المقدسى : أحسن التقاسيم ص ٣٥ .

الفسطاط النحاس الأصفر ، ومن الشام واليمن والهند كانت تستورد الحديد لصناعة الأسلحة .

كما كانت الفسطاط تستورد الأحجار النفيسة كالفيروز الأزرق من نيسابور (١) ، والبلور من المغرب ، والياقوت والزبرد واللؤلؤ من الخليج العربي وشرق الجزيرة العربية وسواحل عمان وبلاد اليمن (٢) ، وأنياب الفيل من زنجبار لصناعة مقابض أدوات المائدة وبعض التحف ، كما كانت تستورد الجلود من الحبشة لصناعة النعال والأحذية (٣) .

هذا فضلا عن الأخشاب اللازمة لصناعة السفن والأثاث والمباني حيث كان يرد الى الفسطاط من أوربا عن طريق البندقية رغم تدخل الأباطرة البيزنطيين في بعض الأحيان لمنع تزويد مصر بما تحتاجه من الخشب (٤) حتى لايقوى أسطولها الحربي والتجاري ، فقد أصدرت حكومة البندقية أمرا بمنع تصدير الخشب الممتاز الخاص ببناء السفن الى الفسطاط وسمحت بتصدير انواع أخرى أقل جودة ، لايتجاوز طول لوحها خمسة أقدام ، وعرضها نصف قدم من خشب اللبخ والسنديان ، كما كانت الفسطاط تستورد من أوربا الأدوات المصنوعة من الخشب (٥) ، كما كانت تستورد التوابل والعاج من شرق آسيا .

---

(١) الثعالبي : لطائف المعارف ص ١١٥ .

(٢) الجاحظ : التبصر بالتجارة ص ١٢ ، ١٥ .

(٣) ناصر خسرو : سفر نامة ص ٦٠ .

(٤) البراوي : حالة مصر الاقتصادية في عهد الفاطميين ص ١٥٣ .

(٥) آدم متز : الحضارة الاسلامية ج ٢ ص ٣٦٤ .

ويصف ناصر خسرو (١) ماراآه موجودا فى سوق القناديل وهو أعمر أسواق الفسطاط بقوله " رأيت هناك الأدوات التى تصنع من الذبل كالأوعية والأمشاط ومقابض السكاكين وغيرها ، ورأيت كذلك معلمين مهرة ينحتون بلورا غاية فى الجمال وهم يحضرونه من المغرب ، ورأيت أنياب الفيل أحضرت من زنجبار .. كما أحضر جلد بقر من الحبشة يشبه جلد النمر ويعملون منه النعال . "

الأسواق :

لما كانت الأسواق مركز التجارة جميعها فلابد من الحديث عن أسواق الفسطاط ونظمها .

ويمكننا أن نستخلص مما ذكره ابن عبد الحكم (٢) أن بعض أسواق الفسطاط قد خصصت لأنواع معينة من السلع فبعضها خصص لبيع الأقمشة مثل دار الأنماط التى كانت تباع فيها الأقمشة الحريرية وعديد من البضائع الواردة من مختلف البلدان . وسوق السماكين لتجارة السمك وسوق الزياتين لتجارة الزيت ، وسوق الرقيق الذى كان مخصصا لبيع الرقيق .

---

(١) ناصر خسرو : سفرنامه ص ٥٩ - ٦٠ .

(٢) ابن عبد الحكم : فتوح مصر ص ١٠١ ، ١١٧ .

ابن فضل الله العمرى : مسالك الممالك ج ١ ص ٢٣٤ .

كما أشتهرت بعض الأسواق بأسماء بعض الجنسيات التي استقرت بها مثل سوق المغاربة الذى سمى كذلك نظرا لوجود عدد من تجار المغرب به ، وكذلك سويقة العراقيين نسبة الى وجود كثير من العراقيين بها ، وذلك منذ أن قدم عدد كبير من أهل العراق واستقروا بالفسطاط فى عهد زياد .

وكانت أسواق الفسطاط عامرة بمختلف السلع التى ترد اليها من أنحاء مصر ومن بلاد الشام والعراق والمغرب وبلاد الروم . ويصف الرحالة الذين زارو زاروا الفسطاط ماكانت تتمتع به أسواقها من عمارة وازدهار حيث " تكثر بها المتاجر والأسواق والمعايش ، وساحلها كثير المراكب (١). "

ويصفون سوق النقاديل وما وجد مجتمعا فى ذلك السوق من صنوف الفاكهة والرياحين والورود سواء كانت من منتجات مصر أم الواردة اليها من البلاد المختلفة " وكل من يفكر كيف تجتمع هذه الأشياء التى بعضها خريفى وبعضها ربيعى وبعضها صيفى وبعضها شتوى لا يصدق (٢) . "

" وتجلب الحاجيات لمدينة مصر من جميع البلاد ويباع بعضها فى الأسواق . "

ويصف ابن حوقل (٣) أسواق الفسطاط بقوله : " والفسطاط مدينة كبيرة نحو ثلث بغداد ومقدارها نحو فرسخ على غاية العمارة والخصب والطيب واللذة ذات رحاب فى محلها وأسواق عظام ومتاجر فخام . "

---

(١) المقدسى : أحسن التقاسيم ص ١٩٨ .

(٢) ناصر خسرو : سفر نامه ص ٥٩ ـ ٦٠ .

(٣) ابن حوقل : صورة الأرض ص ١٤٦ .

رحاب في محلها وأسواق عظام ومتاجر فخام ".

وكانت تلك الأسواق بسيطة البناء في أول الأمر فلم تكن مسقوفة أو مسورة ، وكانت تمتد من دار الامارة الى المسجد . ثم عقدت بعد ذلك بالحجارة وسقفت كما كان الحال في أسواق الكوفة (١) .

كما عرفت الفسطاط القيساريات وهي أسواق مسقوفة تعلو دكاكينها بوائك مثل " قيسارية العسل " المجاورة للمسجد الجامع اذ يذكر ابن عبد الحكم (٢) " وكان الناس يصلون فيها الصلوات ويجمعون فيها الجمع ... والقبلة في القيسارية الى اليوم . " مما يؤكد أنها كانت مسقوفة .

كما تخصصت بعض القيساريات في بيع أنواع معينة من البضائع مثل قيسارية هشام بن عبد الملك التي كان يباع فيها البز الفسطاطي (٣) كما تخصصت القيسارية التي بناها عبد العزيز بن مروان في بيع البز (٤) الى جانب " قيسارية الحبال " التي أنشئت في عهده أيضا ويبدو أنها قد تخصصت في بيع الحبال وما شابهها من لوازم المقادين . " وقيسارية الكباش التي ربما تكون قد تخصصت في بيع وشراء الكباش وغيرها من سائر المواشي .

ويمكننا أن نستنتج من رواية ابن دقماق أن بعض القيساريات كان يشتمل على أكثر من باب بل كان لبعضها ستة أبواب موزعة (٥) حسب اتجاهاتها في الجنوب

---

(١) ماسينيون : خطط الكوفة .

(٢) ابن عبد الحكم : فتوح مصر ص ١٣١ .

(٣) المصدر نفسه ص ١٣٦ .

(٤) المصدر السابق ص ١٣٦ .

(٥) ابن دقماق : الانتصار ج ٤ ص ٣٧ - ٤٠

والشمال والشرق والغرب ، مما يدل على اتساعها وكبر مساحتها .

بالاضافة الى تلك الأسواق كان هناك على طول الطرق الرئيسية في مدينة الفسطاط محلات تجارية تشبه الوكالات ، ويتضح ذلك مما أسفرت عنه الحفريات (١) التي أجريت في أطلال مدينة الفسطاط حيث كشفت عن أبنية ترجع لعصر العباسيين والطولونيين تلقي كثيرا من الضوء على تخطيط بعض الأسواق والقيساريات فقد تضمنت الدور قاعات كانت تتخذ كمحال تجارية ذات فتحات على الطريق تعلوها عقود . وكانت تلك المحال تقع في الغالب شمالي الدار ، ومن الممكن اعتبار تلك القاعات بمثابة مخازن لتلك المحلات التجارية ، كما يمكن اعتبار الأدوار العليا أماكن خصصت لسكنى التجار الوافدين .

وكانت الأسواق تخضع لرقابة موظف خاص يدعى " العامل على السوق " (٢) الذي يتمتع ببعض السلطات القضائية والتنفيذية (٣) ويزود ببعض الأعوان الذين يساعدونه على القيام بواجباته (٤) ، وأهمها مراقبة الأوزان والمكاييل وجمع ضريبة السوق (٥) حيث كان يفرض على الأسواق ضرائب تزيد وتنقص حسب حالة البلاد

---

(١) علي بهجت : حفريات الفسطاط ص ٥٣ .

(٢) ابن سعد : الطبقات الكبير ج ٥ ص ١٢٠ يذكر أن هذه الوظيفة كانت موجودة منذ عهد عمر .

(٣) الأصفهاني : كتاب الأغاني ج ١٧ ص ١٠٨ .

(٤) الماوردي : الأحكام السلطانية ص ٤٦٥ .

(٥) يذكر ابن سعد الطبقات الكبير ج ٧ ص ٧٠ أن ضريبة الباعات كان يجمعها الشرطي في البصرة .

الاقتصادية من جهة وتشدد الحكام في جمعها من جهة أخرى من ذلك ماذكره أبوالمحاسن (١) عن أن مصعب الذي تولى امرة مصر في خلافة المهدي سنة ١٦٧ هـ / ٧٨٣ م والذي " رتب دراهم على أهل الأسواق وعلى الدواب " . ويبدو أن وظيفة " العامل على السوق " هذه كانت الأصل في وظيفة المحتسب (٢) التي ورد ذكرها لأول مرة في تاريخ الاسلام في عهد ابن هبيرة حوالي عام ١٠٣ هـ / ٧٢١ م حيث كان مهدي بن عبد الرحمن ثم اياس بن معاوية محتسبين في واسط (٣) . كما كان من مهامهم مراقبة الصباغين والحاكة كي يحافظوا على حاجيات الناس ، وكان صاحب السوق عادة يتقاضى راتبا على أعماله هذه من بيت المال (٤) ، كما كان للمحتسب أو عامل السوق عادة أعوان يساعدونه على القيام بواجباته (٥) كما كان المحتسبون يختارون عادة من بين القضاة (٦) .

---

(١) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة جـ ٢ ص ٥٤ .

(٢) ابن سعد : الطبقات الكبرى جـ ٧ قسم ٢ ص ٦٥ ، ويذكر المقريزي : اغاثة الأمة بكشف الغمة أنه " كان في كل سوق من أسواق مصر على أرباب كل صنعة من البضائع عريف يتولى أمرهم " .

(٣) البلاذري : أنساب الأشراف جـ ٨ ص ٢٩٠ كما يذكر ابن سعد : الطبقات الكبرى جـ ٣ قسم ١ ص ١٨ أن عليا كان يمشي في الأسواق ويأمر الناس بتقوى الله وحسن البيع فيقول " أوفوا الكيل والميزان ويقول لاتنفخوا اللحم " .

(٤) الماوردي : الأحكام السلطانية ص ٤١٢ .

(٥) الأصفهاني : الأغاني جـ ١٧ ص ١٠٨ .

(٦) ابن الأثير : الكامل في التاريخ جـ ٨ ص ١٦٥ .

وقد أوضح الماوردي أنه كان من بين مهام المحتسب أيضا مراقبة أسواق الرقيق ، ودور الضرب وتخليص الدرهم والدينار من أى زيف سواء فى المادة التى يضرب منها ذهبا كانت أم فضة أو فى وزنها ، كذلك الاشراف على دور الطراز ومراعاة متانة النسيج وجودته ونقش اسم الخليفة أو الوالى على مايعمل من الثباب . كما كان من بين مهامه الحيلولة دون بروز الحوانيت حتى لاتتعطل حركة المرور ، والاشراف على الموازين والمكاييل واستيفاء الديون .(١)

هذا وقد وصف ناصر خسرو تجار الفسطاط بالأمانة بقوله : " وتجار مصر يصدقون فى كل مايبيعون واذا كذب أحدهم على مشتر فانه يوضع على جمل ويعطى جرسا بيده ويطوف به فى المدينة وهو يدق الجرس وينادى قائلا : لقد كذبت وها أنا أعاقب ، وكل من يقول الكذب فجزاؤه العقاب ."(٢)

كما يبين ماجرى عليه الحال فى أسواق الفسطاط من وضع البضائع المباعة للزبائن فى أوان خزفية بقوله : " ويعطى التجار فى مصر من بقالين وعطارين وبائعى الخردوات الأوعية اللازمة لما يبيعون من زجاج أو خزف أو ورق حتى لايحتاج المشترى أن يحمل وعاء ."(٣)

---

(١) الماوردى : الأحكام السلطانية ص ٤٠٤ طبعة انجو

(٢) ناصر خسرو : سفرنامة ص ٦١ .

(٣) المصدر السابق نفس الصفحة .

وكان الرطل هو وحدة الوزن في الفسطاط وهو " مائة وأربعة وأربعون درهما ، وأوقيته اثنى عشر درهما ومنه يتفرع القنطار المصرى وهو مائة رطل [١] ".

كما كان يستعمل بالفسطاط القدح المصرى وهو قدح صغير تقديره مائتان واثنان وثلاثون درهما .. كل ستة عشر قدحا تسمى ويبة وكل ستة وتسعين قدحا تسمى اردبا [٢] .

وكانت هناك عدة قواعد وقوانين تحكم حركة البيع والشراء في أسواق الفسطاط ، مثال ذلك ماذكره الكندى من أن قاضى الفسطاط توبة بن غير كان لا يقر في البيوع " خيار العيب " على أساس أن المشترى كانت له حرية الاختيار قبل الشراء ، فان لم يكن قد تنبه لعيب فيما اشترى فلا يحل له استرجاع ماله والتحلل من شرائه . فيقول القاضى لأحد تجار الرقيق : " من اشترى منكم عيبا لأنكم تبصرون ما تشترون [٣] ".

هذا وان كان من المعروف في الفقه الاسلامي أن هناك ثلاث خيارات للمشترى : خيار الرؤيا وخيار العيب وخيار المذاق ، الا أن توبة بن نمير القاضى لا يقر خيار العيب على أساس أن المشترى يرى ما يشترى ... ومن ثم فليس من حقه ارجاع ما اشترى بحجة أن به عيب [٤] .

هذا عن الأسواق فما أسلوب التعامل فيها ؟

---

(١) القلقشندى : صبح الأعشى ج ٣ ص ٤٤٥ .

(٢) المصدر السابق نفس الصفحة .

(٣) الكندى : الولاة والقضاة ص ٣٤٥ .

(٤) الكندى : الولاة والقضاة ص ٣٤٥ .

أساليب التعامل فى الأسواق :

أولا : ـ النقود المتداولة فى أسواق الفسطاط :

كان الدينار البيزنطى وحدة التعامل فى أسواق الفسطاط عند الفتح وطوال عهد الخلفاء الراشدين • فقد ظل العرب بعد الاسلام يتعاملون بالدنانير البيزنطية والدراهم الفارسية يذكر المقريزى : " وكانت نقود العرب فى الجاهلية التى تدور بينها الذهب والفضة لاغير ترد اليها من الممالك ودنانير الذهب القيصرية من قبل الروم • "(١) كما ذكر البلاذرى : أن " دنانير هرقل كانت ترد على أهل مكة فى الجاهلية فكانوا لا يتبايعون الا على أنها تبر • "

ولعل هذا هو الذى دعا المقريزى ـ الى الظن بأن العملة فى مصر كانت من الذهب فقط فقد ذكر أن " مصر من بين الأمصار فما برح نقدها المنسوب اليه قيم الأعمال وأثمان المبيعات ذهبا فى سائر دولها جاهلية واسلاميا(٣) • كما يضيف الى ذلك قوله : " من أمعن النظر فى أخبار مصر عرف

---

(١) المقريزى : كتاب النقود ص ٣ •

(٢) البلاذرى كتاب النقود ص ٣ •

(٣) المقريزى : كتاب النقود ص ٢١ •

لفظ دينار مشتق من اللفظ اليونانى اللاتينى Denariues aureus.
وقد أشار القرآن الكريم الى الدينار بقوله : " ومن أهل الكتاب من ان تأمنه بقنطار يؤده اليك ومنهم من تأمنه بدينار لا يؤده اليك • " سورة آل عمران آية ٧٥ •

أن نقدها لم يكن الا من الذهب فقط ." (١) والحقيقة أنه اذا كانت قاعدة النقد في مصر قبل التفتح العربي وبعده هي الذهب ، الا أن ذلك لم يمنع من استعمال نقود أخرى مساعدة من الفضة والبرونز . كما عرف العرب قبل الاسلام الدراهم الساسانية اذ يذكر البلاذري أن " الدراهم من ضرب الاعاجم مختلفة كبارا وصغارا فكانوا يضربونها مثقالا وهو وزن عشرين قيراطا ويضربون منها وزن اثنى عشر قيراطا ويضربون بوزن عشر قراريط (٢)."

والدينار قطعة من الذهب وزنها مثقال نقش عليها اسم الملك أو الامبراطور الذى ضربه ولم تكن قيمة الدينار ثابته دائما فكانت تختلف من عشرة دراهم الى ثلاثة عشر الى خمسة عشر درهما وقد تزيد على ذلك حسب نقاء الذهب من الغش . والوزن الشرعي للدينار هو ٤٫٢٥ جرام في حين كان الوزن الشرعي للدرهم ٢٫٩٧ جرام أى أن الدرهم $\frac{٧}{١٠}$ من الدينار الى جانب الدنانير والدراهم ظهر "الفلس" ويعلل المقريزي سبب سكه بقوله : " أنه لما كان في المبيعات محقرات تقل عن أن تباع بدرهم أو جزء منه احتاج الناس من أجل ذلك في القديم والحديث من الزمان الى شئ سوى نقدى الذهب والفضة يكون بازاء تلك المحقرات (٣) ."

---

(١) المقريزي : اغاثة الأمة ص ٦٢ .

(٢) البلاذري : كتاب النقود ص ص ٣ — ٤ .

(٠) الدرهم وحدة من وحدات السكة الاسلامية الفضة وقد اشتق اسمه من الدراخمة اليونانية ، يذكر البلاذري " كل عشرة من أوزان الدراهم سبعة أوزان الدنانير . كتاب النقود المربعة ص ١١ .

(٣) المقريزي : اغاثة الأمة ص ٦٦ — ٦٧ .

الا أنه يرجع نشأتها الى عهد الكامل الأيوبي وهذا يبعد عن الحقيقة اذ أن الحفريات التى أجريت فى أطلال مدينة الفسطاط تكشف عن مجموعة من الفلوس البرونزيه تحمل أسماء ولاة أمويين مثل القاسم بن عبيد الله عامل خراج مصر (١) ويبدو أن الذى حدا بالمقريزى ليقع فى هذا الخطأ هو أن قاعدة النقد فى مصر ظلت كما كانت قبل الفتح العربى هى الدينار البيزنطى الذهبى وقد أثبتت أوراق البردى التى ترجع الى القرن الأول الهجرى ذلك •

فقد ظلت الفسطاط تستخدم الدينار البيزنطى فى مستهل العصر الأموى ويشير المقريزى الى أن الخليفة معاوية بن أبى سفيان ٤١ ـ ٦٠ هـ / ٦٦١ ـ ٦٧٩ م ضرب دنانيرا اسلامية عليها صورته متقلدا سيفه (٢) • فكانت هذه أول دنانير اسلامية • ضربت على طراز الدنانير البيزنطية •

وعلى الرغم من أنه لم يعثر على أى من تلك الدنانير التى يشير اليها المقريزى • فان ذلك لا يشككنا فيما ذكره • اذ ربما يكون السبب فى اختفائها

Lavoix : Catalougue de Monnais Musulmane p.456. (١)

لفظ الفلس مشتق من اليونانية وقد استعار العرب تلك السكة عن البيزنطيين وكانت تسمى

(٢) يذكر المقريزى أنه " لما اجتمع الأمر لمعاوية بن ابى سفيان وجمع لزياد بن أبيه الكوفه والبصرة قال : يا أمير المؤمنين ان العبد الصالح أمير المؤمنين عمر بن الخطاب صغر الدرهم وصارت تؤخذ عليه ضريبة أرزاق الجند وترزق عليه الذرية طلبا للاحسان الى الرعية فلو جعلت انت عيارا دون ذلك العيار ازدادت الرعيه به مرفقا ومضت لك السنة الصالحة •" كتاب النقود ص ٦ •

امتصاص هذا النوع من النقود لصهره خلال عمليات التعريب • وقد ضرب معاوية " تلك الدراهم السود الناقصة من ستة دوانيق وضرب منها زياد وجعل وزن كل عشرة دراهم سبعة مثاقيل (١) • " الا أن الطراز العربى للنقود لم يظهر الا على يد الخليفة الأموى عبد الملك بن مروان ٦٥ ـ ٦٦هـ/ ٦٨٥ ـ ٧٠٥ م ، فظهرت فى عهده ، أول نقود عربية كضرورة للاستقرار الاقتصادى واستكمال للوحدة السياسية التى نجح فى الوصول اليها بعد قضائه الحركات المناهضة لسلطانه •

وقد أجمع المؤرخون (٢) على أن السبب فى ضرب النقود العربية هو أن أوراق البردى التى تصدر من مصر الى بيزنطة كانت تسجل عليها عقيدة الايمان المسيحية " بسم الأب والابن وروح القدس فكتب عبد الملك بن مروان الى عامله فى مصر عبد العزيز بن مروان بابطال هذا الطراز من الكتابة على البردى وأمره أن يكون طرازها شهادة التوحيد (شهد الله أن لا اله الا هو " ولما وصلت أوراق البردى الاسلامية الى الأمبراطور البيزنطى جستنيان الثانى احتج على عبد الملك وهدده بأنه ان لم يعد كتابة العقيدة المسيحية على البردى المصرى فيضطر أن ينقش على الدنانير البيزنطية التى ترد الى

---

(١) المقريزى : كتاب النقود ص ٥ •

(٢) البيهقى : المحاسن والمساوئ ، البلاذرى : فتوح البلدان ، الدميرى : فى حياة الحيوان ، أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ، المقريزى : كتاب النقود ـ كتاب النقود العربية وعلم النميات للأب انستاس الكرملى ص ٦ـ٨ •

الشرق العربي عبارات تسيء الى الرسول (صلعم) فما كان من عبد الملك الا أن أمر بضرب نقود عربية عليها شهادة التوحيد والرسالة المحمدية وصب صنجا من زجاج لا تحتمل اى زيادة أو نقصان (لتمير) عليها هذه النقود وتضبط أوزانها (١) .

الا أنه من المعروف تاريخيا أن تغيير عبارات النقود المسيحية على البردى بعبارات التوحيد على يدى عبد الملك كان أمرا طبيعيا يتفق والوضع الجديد الذى اليه الدولة الاسلامية . وقد ظهرت عبارات التوحيد واسم الرسول على أعداد كثيرة من النقود الاسلامية قبل عهد عبد الملك وتبودلت النقود الاسلامية المضروبة على الطراز البيزنطى والنقود البيزنطية على السواء .

وقد ضرب عبد الملك أول الأمر الدنانير الذهبية على طراز النقود النحاسية البيزنطية لهرقل (٢) . بعد تحوير الصلبان التى تعلو رؤوس الماثلة الامبراطورية المتوجة أو تعلو عصا الطرانية . ثم زاد فى التحوير خطوه فحول الشارات المسيحية الى كرات مستديرة . ثم عمل على تطوير هذه

---

(١) استعمل المسلمون صنجا بيزنطين أول الأمر ثم صنعت صنجا زجاجية فى مصر قبل عهد عبد الملك لوزن السكة تحمل هذه الصنج اسماء الولاة فى مصر :

Miles : early arabic glass weights and stamps p. 3 New York 1948.

(٢) كان هذا النوع من النقود يضرب فى دار السك بالاسكندرية وعليه الحرفان IB , ᵹ وقد بدل وضعهما عبد الملك . وظهر الصليب وكأنه حرف T

النقود الاسلامية خطوة أخرى فاستبدل صورة هرقل وولديه بصورته هو مع الابقاء على بعض التأثيرات المسيحية كالعمود القائم على الدرجات الأربعة الذي كان يحمل الصليب أصلا فأصبح على وجه الدينار صورة الخليفة عبد الملك وعلى ظهره كتابة نصها : " بسم الله ضرب هذا الدينار سنة ست وسبعين أو سنة سبع وسبعين (١) "

وقد أثار وضع صورته على النقود اعتراض بعض الصحابة بالمدينة يقول المقريزي (٢) : " فلم ينكروا منها سوى نقشها فان فيها صوره " كما أدى ذلك الى نقض المعاهدة التي كانت قد أبرمت بين المسلمين والبيزنطيين سنة ٦٧هـ / ٦٨٦ م والتي كانت تقضي بأن تسود الهدنة على حدود الدولة الاسلامية نظير دفع عبد الملك اتارة سنوية قدرها ألف دينار ، اذ أن المسلمين قدموا هذه الأتاوة بنقود عربية عليها صورة الخليفة العربى عبد الملك بن مروان .

وقد عرفت دنانير عبد الملك بالدنانير الدمشقيه ، وأمر عامله على العراق الحجاج بن يوسف الثقفي أن يضرب الدراهم على خمسة عشر قيراطا ، ثم صار أمراء العراق يضربون النقود لبني أميه وكان نقش نقود بني أميه " الله أحد ، الله الصمد ، لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحدا . " وفي وسط أحد الوجهين وحولها " محمد رسول الله أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره

---

(١) عبد الرحمن فهمي : النقود العربية ص ٤٠ .

(٢) المقريزي : كتاب النقود القديمة الاسلامية ص ٧ .

ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون . " وعلى الوجه الآخر بالوسط " لا اله الا الله وحده لا شريك له " وحول ذلك " بسم الله ضرب هذا الدرهم في بلد كذا سنة كذا " وكانت أجود أنواع النقود الاموية ثلاثة: الهبيريه التي ضربها عمر بن هبيرة ، والخالدية التي ضربها خالد بن عمر البجلي ، واليوسفيه التي ضربها يوسف بن عمر . وهم من عمال بني أميه على العراق .

هذا وقد كشفت حفريات الفسطاط عن مجموعة من النقود البرونزيه ترجع الى عهد الولاة الأمويين اذ تحمل بعضها أسماء الولاة أو عمال الخراج مثل " فلوس القاسم بن عبيد الله عامل خراج مصر سنة ١١٦ — ١٢٤ هـ/ ٧٣٤ — ٧٤٢ م . والى جانب أسماء الولاة والعمال المنقوشة على الفلوس التي ضربت في الفسطاط ، فان السبيكة المصرية تميزت بطابع خاص عن السبيكة السورية النحاسية فسبيكة الفسطاط كانت أكثر سمكا ومصنوعة من البرونز وتشبه تلك التي كانت تضرب بالاسكندرية قبل الفتح (٢) أما السبيكة السورية فرقيقة ، ومصنوعة من النحاس .

وقد ظل الدينار الذهب يضرب في مصر ودمشق فترة طويلة بنفس العبارات التي سجلت على الدنانير الأموية حتى سنة ١٩٨ هـ / ٨١٣م .

---

(١) انستاس ماري الكرملي : النقود العربية وعلم النميات ص ٩٣ .

(٢) لم تكن النقود الرومانية من الفضة أو البرونز بل كانت تضرب في الاسكندرية نقود على أساس التتراد راخم Tetradradum (أربعة دراهمات) من الفضة المخلوطة . عبد الرحمن فهمي النقود العربية ص ١٨ .

حين بدأ سك الدنانير لأول مرة في الفسطاط في عهد الخليفة المأمون في سنة ١٩٩ هـ / ٨١٤ م. وان كان الولاة في مصر قد حصلوا منذ عهد هارون الرشيد ١٧٠ ـ ١٩٣ / ٧٨٦ ـ ٨٠٨ م على حق كتابة أسمائهم على العملة سواء الدنانير / أو الدراهم وقد أكد المقريزي ذلك بقوله : " وهرون الرشيد أول خليفة ترفع عن مباشرة العيار بنفسه وكان الخلفاء من قبله يتولون النظر في عيار الدراهم والدنانير بأنفسهم (١) ."

وكانت أول دنانير تحمل اسم والي مصر وتسك في الفسطاط تلك التي ضربها علي بن سليمان بن علي العباسي ١٦٩ هـ ـ ١٧١ هـ / ٧٨٥ ـ ٧٨٧ م وهي تحمل معظم العبارات الاسلامية التي تميزت بها الدنانير الأموية غير أن اسم الوالي يظهر أسفل الكتابة المركزية على أحد وجهي الدينار . ومنذ عهد المأمون أضيفت الى كتابات الدنانير بعض الآيات القرآنية في هامش اضافي " لله الأمر من قبل ومن بعد ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله . " كما أكملت بعض العبارات المقتبسة من القرآن الكريم ، وأضيفت البسملة كاملة الى عيار الضرب وتاريخه (٢) . ومنذ سنة ٢١١ هـ / ٨٢٦ م ظهرت النقود في الفسطاط مضروبة باسم عبد الله بن طاهر قائد جيش المأمون الذي استطاع القضاء على الثورات التي أعقبت اعتلاء المأمون عرش الخلافة وبذلك عاد حق الخلافة في سك العملة في الفسطاط باسم الخليفة .

---

(١) المقريزي : كتاب النقود القديمة الاسلامية ص ١٤ .

(٢) عبد الرحمن فهمي : النقود العربية ص ٥٢ ـ ٥٣ .

ويمكننا أن نقدر قيمة الدينار في النصف الأول من القرن الثالث الهجري مايقرب من ٢٤ درهما يتضح ذلك من احدى البرديات (١) التي يرجع تاريخها الى سنة ٢٢٧ هـ / ٨٤١ .

وكانت النقود المتداولة في الفسطاط عند قيام الدولة الطولونية هي النقود العباسية التي ضربت باسم الخليفة المتوكل وابنه المعتز ، والخليفة المعتمد وابنه جعفر الملقب المفوض وظلت هذه الدنانير متداولة في الفسطاط حتى سنة ٢٦٦ هـ / ٨٧٩ م حين ضرب أحمد بن طولون دنانيره الأحمدية ولم يحذف اسم (٢) الخليفة المعتمد على الله العباسي من هذه الدنانير لأنه لم يكن عليه شرعية خلافته اذ كان يهدف الى اصلاح العملة وتنقية عيار الذهب

---

(١) الطراز رقم ١٧٤ - أوراق البردي العربية مجموعة جروهمان ج ٢ ص ٩٩ وهي خاصة باستخدام عامل لمزراعة فول " على أن يعطيه ... في هذين الشهرين سدس دينار كل شهر درهمين " فاذا كان سدس دينار من الذهب يساوي أربعة دراهم وهي الأجرة التي كان يدفعها صاحب الأرض للعامل عن شهرين يتبين أن الدينار كان = ٢٤ درهما في ذلك الوقت - هو سنة ٢٢٧ هـ/ ٨٤١ م .

(٢) العملة التي وجدت في مصر قبل عام ٢٦٦ هـ لم تكن تختلف عن تلك التي كانت موجودة قبل قيام الدولة الطولونية ولم يكتب ابن طولون اسمه على العملة الا في سنة ٢٦٦ / ٨٧٩ م حيث نقش على العملة :

" لا اله الا الله وحده لا شريك له "
المفوض الى الله

بسم الله ضرب هذا الدينار بمصر سنة ست وستين ومائة - لله الامر من قبل ومن بعد ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله - محمد رسول الله - المعتمد على الله .

أحمد بن طولون .

S. lane Pool : arabic coins , London.

وزيادة وزن الدينار على اعتبار أن اصلاح العملة (١) من شأنه تدعيم مركز مصر الاقتصادي (٢) الذي كان حريصا على النهوض به .

وبعد أن استطاع العباسيون القضاء نهائيا على الدولة الطولونية سنة ٢٩٢ هـ / ٩٠٤ م وتمكنوا من استعادة مصر لسلطانهم كان اسم الخليفة العباسي يضرب على النقود في الفسطاط غير مقرون باسم أحد من الولاة واستمر هذا الوضع ثلاثين عاما تعاقب خلالها على الخلافة أربعة من الخلفاء العباسيين هم المكتفي والمقتدر والقاهر والراضي ، الى أن تولى حكم مصر محمد بن طغج الاخشيد ونجح في السيطرة على مصر والشام .

---

(١) ابن الدايه : سيرة أحمد بن طولون ص ٣٣ — ٣٤ ،
المقريزي : النقود الاسلامية ص ١٢ — ١٣ .

(٢) المقريزي : كتاب النقود القديمة ص ٢٠ . ويذكر ان سبب ضربها أن احمد بن طولون : " ركب يوما الى الأهرام فأتاه الحجاب بقوم عليهم ثياب صوف ومعهم المساحي والمعاول فسألهم عما يفعلون فقالوا نحن قوم نتبع المطالب فقال لهم لاتخرجوا بعد هذا الا بمشورة رجل من قبلي وسألهم عما وقع اليهم من الصفات فذكروا له أن في سمت الاهرام مطلبا قد عجزوا عنه لأنهم يحتاجون في اجارته الى قدر كبير من المال ونفقات واسعة فأمر بعض أصحابه أن يكون معهم وتقدم الى عامل معونة الجيزة في دفع جميع مايحتاجون اليه من المال والنفقات والصرف فاقام القوم يعملون الى أن ظهرت لهم العلامات فركب أحمد بن طولون حتى وقف على الموضع وهم يحفرون فجدوا في الحفر وكشفوا عن حوض مملوء دنانير وعليه غطاء مكتوب عليه بالبربوية فأحضر من قرأه ففسره فقال أن فلان بن فلان الملك الذي ميز الذهب من غشه ودنسه فمن اراد ان يعلم فضلي وفضل ملكي على ملكه فلينظر الى فضلي عيار ديناري على ديناره .. حمل أحمد بن طولون مابقي فوجده أجود عيارا من عيار السندي بن هاشك ومن عيار المعتصم فتشدد حينئذ أحمد بن طولون في العيار حتى لحق ديناره بالعيار المعروف له وهو الأحمدي الذي كان لايصاب بأجود منه . "

المقريزي : كتاب النقود ص ١٩ — ٢٠ .

وضرب نقودا باسمه منذ سنة ٣٣١ هـ/ ٩٤٢ م وكانت العملة التى تحمل اسم أبى القاسم انوجور بن الاخشيد تضرب فى الفسطاط ودمشق وحمص وطبريه . وكذلك السكة فى أيام على بن الاخشيد كان تحمل اسمه وقد ضربت فى الفسطاط ودمشق أيضا . غير أنه فى عهد كافور كانت السكة تحمل اسم الخليفة العباسى وحده .

وهكذا كانت النقود تصدر باسم الاخشيديين من دار الضرب فى الفسطاط باستثناء عهد كافور مع ملاحظة أن اسم الخليفة العباسى المتقى كان ينقش على أحد وجهى الدينار مع الاخشيد ، وان اسم الخليفة العباسى المطيع كان ينقش بجانب اسمى أبى القاسم وعلى ابنى الاخشيد .

بقيت كلمة عن دار الضرب بمدينة الفسطاط .

ثانيا : دار الضرب بالفسطاط :

من الممكن تحديد موقع دار اضرب النقود في الفسطاط مما ذكره ابن عبد الحكم عند حديثه عن زيادة عبد الله بن طاهر في المسجد الجامع حيث يقول : " ثم زاد عبد الله بن طاهر في عرضه بكتاب المأمون بالاذن له في سنة ثلاث عشرة ومائتين وأدخل فيه دار الرمل كلها الا مايقرب منها من دار الضرب (١) "

وكذلك ماذكره المقريزى عند اشارته الى الزيادات التي ألحقت بالمسجد الجامع سنة ٣٥٥ هـ / ٩٦٥ م حيث يقول : " زاد فيه أبو بكر محمد بن عبد الله الخازن رواقا واحدا من دار الضرب وهو الرواق ذو المحراب والشباكين المتصل برحبة الحارث . " ثم أكد هذا القول عند حديثه عن عمارة الجامع في العصر الفاطمي اذ قال " في شهر رمضان سنة ٤٤٠ هـ جددت الخزانة التي في ظهر دار الضرب في طريق الشرطة مقابلة لظهر المحراب الكبير (٣) "

وقد ظلت دار الضرب قائمة في الفسطاط حتى عهد الآمر الفاطمي الذى أمر بانشاء دار جديدة للضرب في القاهرة عاصمة الفاطميين .

وكان على بن سليمان العباسي أول من ضرب الدنانير في الفسطاط عام ١٦٩ - ١٧١ هـ/ ٧٨٥ - ٧٨٧ م وتحمل الدنانير التي ضربت في عهده

---

(١) ابن عبد الحكم : فتوح مصر ص ١٣٢ . طبعة ليدن .
(٢) المقريزى : الخطط ج ٢ ص ٢٥٠ .
(٣) المصدر السابق ص ٢٥١ .

معظم العبارات الاسلامية التي تميزت بها الدنانير الأموية غير أن اسم الوالي كان يظهر أسفل الكتابة المركزية على أحد وجهي الدينار (١) .

وتعددت بعد ذلك الدنانير التي سكت في دار الضرب في الفسطاط في العهد العباسي . ففي سنة ٢١١ هـ / ٨٢٦ م ظهرت النقود في الفسطاط مضروبة باسم عبد الله بن طاهر قائد جيش المأمون الذى استطاع القضاء على الثورات التي أعقبت تولى المأمون الخلافة . وأضيف الى كتابات الدنانير بعض الآيات القرآنية في هامش اضافي مثل " لله الأمر من قبل ومن بعد " كما أكملت بعض العبارات المقتبسة من القرآن الكريم وأضيفت البسملة كاملة الى عبارات الضرب وتاريخه كما أشرنا من قبل .

وفي عهد الطولونيين ظلت دار الضرب في الفسطاط تقوم بعملها ، وكان لتشدد ابن طولون في تخليص الذهب وتنقيته الفضل في اقبال الناس على التعامل بالدنانير دون غيرها (٢) ، كما تعززت مكانة الفسطاط في الأسواق الخارجية فقد كان الدينار الأحمدى من أحسن الدنانير الاسلامية وأثقلها وزنا ، فأقبل عليه الناس في أسواق الشرق اقبالا كبيرا (٣) .

وظلت دار الضرب في الفسطاط تصدر العملة باسم الحكام الاخشيديين باستثناء عهد كافور (٤) .

---

(١) عبد الرحمن فهمي : النقود العربية ص ٤٩ — ٥٠ .

(٢) المقريزى : كتاب النقود القديمة ص ٧٤ — ٧٥ . في النقود العربية وعلم النميات الذى نشره الأب انستاس مارى الكرملى .
البلوى : سيرة أحمد بن طولون ص ١٩٦ ، ابن الدايه : المكافأة ص ٣٣ — ٣٤ .

(٣) متز : الحضارة الاسلامية جـ ٢ ص ١٧١ .

(٤) Lane Pool : Egypt in the Middle ages .

وهكذا ظلت النقود تضرب بدار الضرب في الفسطاط حتى نهاية عهد الاخشيديين بل بعد قيام الدولة الفاطمية حتى عهد الآمر الفاطمي . وكان يشرف على أعمال دار الضرب في الفسطاط " متولي دار الضرب " ولم تذكر المصادر شيئا عن طبيعة هذا المنصب قبل عهد الاخشيديين . غير أن ابن سعيد يذكر (١) أن صدقة بن الحسن هو الذي تولى أمر دار الضرب المصرية في الفسطاط في العصر الاخشيدي .

وكان يعهد الى القاضي بالاشراف على دار الضرب ، فحين تولى الحسن بن زرعة قضاء مصر سنة ٣٢٤ هـ / ٨٣٨ م تولى أيضا الاشراف على المواريث والأحباس ودار الضرب . ولعل السبب في اسناد مهمة الاشراف هذه الى القاضي هو ضمان شرعية وزن الدنانير والدراهم والتأكد من عدم غش الذهب ، فقد كان القاضي " يجتهد في خلاص الذهب وتحرير عياره (٢) " .

---

(١) ابن سعيد : المغرب ص ١٨١ .

أشار أبو المحاسن في معرض حديثه عن أحد العلويين وهو علي بن محمد بن عبد الله الذي قدم الى مصر وكاد ينجح في اعلان نفسه خليفة " فنصح صاحب السكة " للحميد بن قحطبة وطلب منه أن يقبض عليه . " أشار الى وظيفة صاحب السكة التي يبدو أنها كانت جزءا من مهام صاحب الخراج فاستقلت وأصبحت وظيفة قائمة بذاتها منذ سنة ١٤٤ هـ في عهد الخليفة المنصور .

(٢) المقريزي : الخطط ج ٢ ص ١٠٦ .

أما متولي دار الضرب فكانت له سلطة مباشرة على العمال في الدار . وكان يقوم بالختم على الدنانير والدراهم وعيارها نفر قليل من الموظفين يعرف بعضهم باسم المعدلين والآخرون باسم السباكين . وكان الأمير يعني بأعمالهم ويراضيهم من وقت لآخر (١).

ويذكر ابن بعرة في حديثه (٢) عن مهمة " المقدم " وهو الموكول اليه حفظ عياري الذهب والفضة في دار الضرب الأيوبية أنه كان من مهامه أيضا الكشف عن المزيفين الذين يتقدمون الى دار الضرب بسبائك بقصد ضبط عيارها أو لضربها سكة نظير دفع أجر معين . ولا يبعد أن يكون مهمة هذا " المقدم " هو نفس متولي دار الضرب في الفسطاط خلال عصر الولاة الأمويين والعباسيين ثم الطولونيين والاخشيديين من بعدهم . وقد أوضح ابن بعرة (٣) المراحل التي يمر بها المعدن ليصبح عملة صالحة للتداول . كما أشار المقريزي (٤) الى التشدد في العيار بقوله : " وتشدد حينئذ ابن طولون في العيار حتى لحق ديناره بالعيار المعروف له . "

وكانت أهم الطرق المستخدمة في جواز السبيكة للسبك هي الطريقة الجافة أو طريقة " التجفين " والتي يسميها ابن بعره (٥) بالتعليق أى سبك الذهب المخلوط بالفضة في النار عدة مرات ثم اعداده قطعا مستديره

---

(١) منصور بن بعرة الذهبي الكاملي : كشف الاسرار العلمية بدار الضرب المصرية ص ٣١ — ٣٢ .

(٢) المرجع السابق ص ٣٤ — ٣٥

(٣) ابن بعرة الذهبي الكاملي : كشف الأسرار العلميه بدار الضرب المصرية ص ٥٢ .

(٤) المقريزى : شذور العقود ص ٥٧ .

(٥) ابن بعره : كشف الأسرار العلمية بدار الضرب المصرية ص ٥٥ .

لتضرب دنانيرا (١) . وهذه السبائك كان يضرب عليها من أعلى ومن أسفل على اعتبار أن هذا الضرب هو الوسيلة الوحيدة لطبع نقوش الدنانير على معدن قد تم تجديده وغسلة " بالماء البارد والرمل الناعم "(٢).

وكان اعداد السبائك بالطرق في دار الضرب يتم بطريقة يدوية بواسطة المطرقة والسندان حيث ترقق الأسياخ الذهبية الى سمك معين وتسخن من حين لآخر حتى تلين ليسهل طرقها وتصفيحها من جديد . ولذلك كانت هذه الطريقة أكثر تكلفة وأطول في تنفيذها من صب الذهب المسبوك في قالب الدينار مباشرة أو في قوالب مستديرة لتشكيل الدنانير على هيئة نقط ذهبية متصلة كحبات المسبحة (٣).

هذا فضلا عن أن طريقة التصفيح تخلف عنها نفايات كثيرة نتيجة خرط كل دينار على حدة مما يستدعي جمع النفايات من جديد واعادة صهرها . وعلى هذا لم تكن الدنانير متماثلة مهما اتفق تاريخ الضرب . ولم تكن طريقة التصفيح والطرق هي الطريقة الوحيدة المتبعة في دار الضرب فهناك طريقة الصب (٤) حيث تصب السبيكة المستديرة على أحد وجهي القالب بعد أن ينصهر معدن الذهب المقدر العيار فيأخذ المعدن شكل أحد القالبين وهيئة النقوش الغائرة فيه بمجرد صبه . وقبل أن يبرد الذهب يختم الوجه الثاني للسبيكة بالقالب الآخر . فينطبع الدينار أو أجزاء الدينار من

---

(١) المرجع السابق ص ٧٠

(٢) المرجع نفسه نفس الصفحة

(٣) ابن بعرة : كشف الأسرار العلمية بدار الضرب المصرية ص ٦٨ .

(٤) المرجع السابق ص ٦٨ — ٧٠ .

الوجهين ثم تترك القطعة لتبرد أو تطفأ بالماء فيعود للمعدن صلابته ثم تصب قطع أخرى من نفس الذهب المنصهر وعلى نفس القالب ولذلك تتشابه القطع المصبوبة فى أدق تفاصيلها (١) .

أما عن اعداد سبيكة الدراهم . فكانت تصنع بطريقة الطرق والتصفيح حيث كانت الدراهم المصرية منذ فجر الاسلام عبارة عن صفائح رقيقة من الفضة مضروب عليها بقالب الدرهم من وجهين بعد التأكد من نقاء سبيكة الفضة حيث تضرب الدراهم على القطع التى تم تدويرها دون تشقق . ثم تقطع السبائك الفضية قطع أكبر من حجم الدرهم (٢) . وكان يضاف للفضة جزء من الرصاص حتى يقوى صلابته الصفائح الفضية ثم تجلى بعد ذلك عن طريق جميعها فى كبشه (٣) وتتطفأ وهى ساخنة فى ماء الليمون والملح حتى اذا ظهر بياض الفضة جليت بالرمل الناعم وختم عليها بعد تجفيفها بالنخالة ، وتفربل منها . "

أما عن اعداد سبائك الفلوس فان المصادر لم تمدنا بمعلومات كافية عن طريق ضرب الفلوس النحاسية فيما عدا ماذكرة القلقشندى (٤) من أن الفلوس

---

(١) ابن بعرة : كشف الأسرار العلمية بدار الضرب المصرفية ص ٦٨ .

(٢) ابن بعرة : كشف الأسرار العلمية بدار الضرب المصرية ص ٧٦ ، ٨٨ .

(٣) المصدر السابق ص ٧٦ ، ٨٨ .

(٤) القلقشندى : صبح الأعشى ج ٣ ص ٤٤٣ .

وهى صنفان مطبوع بالسكة وغير مطبوع ." ويقصد بالفلوس غير المطبوعة تلك السكة من النحاس " الكسر من الأحمر والأصفر ويعبر عنها بالعتق ." (١) وقد وصف طريقة صناعتها بأن " يسبك النحاس الأحمر حتى يصير كالماء ثم يخرج فيضرب قضبانا ثم يقطع صغارا ثم ترصع وتسك بالسكة (القالب) وسكها أن يكتب على أحد الوجهين اسم السلطان ولقبه ونسبه وعلى الوجه الآخر اسم بلد الضرب وتاريخ السنة التى ضرب فيها (٢)" الى جانب النقود كانت هناك وسائل أخرى للمعاملات التجارية والمالية هى :

السفاتج : كانت وسيلة من وسائل المعاملات المالية فى أسواق الفسطاط ، لكنها كانت محدودة الاستعمال خلال القرنين الأول والثانى ثم عم استخدامها فى الدولة الاسلامية خلال القرنين الثالث والرابع الهجريين ، وذلك تبعا لنشاط التجارة وازدياد المعاملات المالية ، وصعوبة حمل المبالغ الكبيرة من بلد الى آخر ، لذلك لجأ التجار الى استعمال السفاتج وهى رقاع يكتبها التجار أو الصيارفة أو المشتغلين بالأعمال المالية والتجارية بقيمة المبالغ التى يأخذونها ، وتكون قابلة للصرف فى أى بلد لأى من عملائهم وكانوا فى هذا يقومون بدور البنوك ، فكان التجار يأخذون رقاعا منهم بما لديهم من الأموال ثم يشترون مايلزمهم ويحولون ثمنه عليهم .(٣)

---

(١) المصدر السابق ص ٤٤٤ .

(٢) القلقشندى : صبح الأعشى ص ٤٦٨ .

(٣) ناصر خسرو : سفر نامه ص ٩٦ .

كما كان الولاة يرسلون ما زاد من دخل ولاياتهم الى مقر الخلافة فى بغداد بسفاتج ففى سنة ٢١٣ هـ/ ٨٢٨ م أرسل والى مصر سفاتج بمائة وسبعة وأربعين ألف دينار(١) ٠ كما " كانت السفاتج الواردة من الولاة الى الوزراء تحفظ حين يحين موعد صرفها(٢) ٠ "

مما يوضح أنه كانت هناك مواعيد ثابته لصرف السفاتج ، كما استخدمها الأفراد فى أداء دين الحكومة عليهم ٠

وكان يشترط لقبولها أن يضمنها تاجر ، يستدل على ذلك من أن عامل خراج مصر الماذرائى طلب من ابن الفرات " اما أن يكون حمله للمال مع رسل أو بسفاتج تجار على تجار فان كان مع رسل فأحضرهم واحضر القبوض التى كتبت على أيديهم أو بسفاتج فالقبوض مع أربابها(٣) ٠ "

وكانت كل سفتجة توقع أو تختم من صاحبها لصراف أو تاجر حتى تكون صالحة للتداول(٤) ٠

وقد اضطلعت الأقلية من اليهود الذين أقاموا فى الفسطاط بالجانب الأكبر من أعمال الصيرفة(٥) ، فكانت نسبة العاملين منهم فى هذا المجال كبيرة ٠ وكانوا يقومون بعمليات التسليف للتجار وقبول الحوالات والصكوك لقاء عمولة محدودة ، كما كانوا يقبلون الودائع ويعملون على تسهيل عمليات الائتمان(٦) ٠

---

(١) مسكويه : تجارب الأمم جـ ١ ص ١٤٦ ٠

(٢) الصابى : تحفة الوزراء ص ٩٣ ٠

(٣) المرجع السابق ص ١٠٤ ــ ١٠٥ ٠

(٤) مسكوية : تجارب الأمم جـ ٢ ص ٨٣ ٠

(٥) آدم متز : الحضارة الاسلامية جـ ٢ ص ٣٧٧ ٠

(٦) ابن مسكويه : تجارب الأمم جـ ٢ ص ١٨٨ ٠

كما كانوا يقومون باقراض الولاة في بعض الأحيان اذا مانفذت أموال بيت المال (١).

الصكوك :

كانت الصكوك أيضا تستعمل كوسيلة من وسائل دفع المال . والصك أمر بدفع مقدار معين من النقود الى الشخص الوارد اسمه فيه.

وقد استخدمت الصكوك منذ صدر الاسلام حيث كانت الأرزاق والرواتب تدفع بها أحيانا فكان عمر بن الخطاب أول " من صك وختم أسفل الصكاك (٢)"

وبازدياد النشاط التجاري في القرن الرابع الهجري شاع استخدام الصكوك (٣). كما كانت الصكوك في بعض الأحيان تكتب وتصرف على بيت المال أو على التجار والصرافين الذين كانوا يتقاضون عمولة نظير ذلك تبلغ درهما على كل دينار (٤). كما جرت العادة أن يوقع على الصك شاهدان ثم يختم في أسفله (٥).

ولم يكن يحدد تاريخ معين لاستيفاء الصك ويستدل على ذلك من الصك الذي كتبه سعيد بن العاص على نفسه لشخص بمقدار عشرين ألف درهم بشهادته وشهادة مولى له ثم قال سعيد لذلك الشخص : " انك لن تصادف

---

(١) الصابي : تحفة الأمراء في تاريخ الوزراء ص ١٠٥ .

(٢) اليعقوبي : تاريخ اليعقوبي ج ١ ص ١٣٢ ـ ١٣٣.

(٣) الجهشياري : الوزراء والكتاب ص ٢١٤ ـ ٢١٥ .

(٤) متز : الحضارة الاسلامية ج ٢ ص ٣٧٤ .

(٥) ابن قتيبه : عيون الأخبار ج ١ ص ٢٢٥ .

عندنا شيئا فخذ هذا فان جاءنا شيء فاتنا (١) . "

البنوك :

عرف العرب نظام البنوك ، وان كان تحريم الربا في الاسلام ، قد حد من انتشارها . وأغلب ماعرفته الأمصار منها بنوكا خاصة يمتلكها أفراد يمثلون أصحاب الأموال الذين يوظفون أموالهم كلها أو بعضها في الأعمال المالية أو للاقتراض . كانت وظيفة تلك البنوك أساسا هي خلق الاعتماد (٢) واقراض النقود ، ولما كان الربا محرما في الاسلام فقد لجأ الصيارفة الى مزج الفائدة التي تعود من الاقراض بالتجارة (٣) ، فيبيعون المدينيين بضائع بسعر أعلى من سعر السوق على أن يكون الدفع مؤجلا ، وكان هذا النوع من التعامل يسمى " بالعينة " أو " البورق . "

وكان أول من أخذ بهذا النظام في الاسلام عمرو بن عثمان اذ " أتاه عبد الله بن الزبير الأسدى فرأى عمر تحت ثيابه ثوبا رثا فدعا وكيله وقال له اقرض لنا مالا ، فقال هيهات مايعطينا التجار شيئا فقال فاربحهم ما شاءوا فاقترض له أولا ثمانية آلاف درهم وثانيا عشرة آلاف فوجه بها اليه (٤) . "

ويوضح وكيع البورق (٥) بقوله : " كان اياس بن معاوية يرى البورق والبورق أن يحتاج الرجل الى مائة درهم فيجيء الى السوق فيشترى متاعا بعشرين ومائة فيبيعه بمائة درهم فينصرف الى أهله وليس معه الا المائة . قال ان أول مافرقت من العينة (كذا) اني سمعت اعرابيا يقول أنظركم تجدها ربا على هذا الشهر (٦) ؟ "

---

(١) الأصفهاني : الأغاني ج ١ ص ١٦ .

(٢) آدم متز : الحضارة الاسلامية ج ٢ ص ٣٧٦ ـ ٣٧٧ .

(٣) صالح العلي : التنظيمات الاجتماعية والاقتصادية في مدينة البصرة ص ٢٦ .

(٤) الأصفهاني : كتاب الأغاني ج ١٣ ص ٣٣ .

(٥) وكيع : أخبار القضاة ج ١ ص ٣٧٢ .

(٦) المصدر السابق ج ١ ص ٣٧٢ .

كما كان المقترض فى بعض الأحيان يطلب رهنا اذا ماكان مقدار القرض صغيرا ،أما فى حالة القروض الكبيرة فكانت الثقة هى الضمان الأساسى • واذا لم يف المدين بدينه فى الوقت المحدد كان من الممكن أن يمد أجل الدفع أو يطالب الكفيل بدفع عوض عن المدين أو قد يلجأ صاحب الدين الى الحكومة لترد له دينه بالقوة (١) • كما كانت تلك البنوك الخاصة تستخدم الحوالات أو السفاتج وكذلك الصكوك لتسهيل تلك العمليات خاصة بين المدن بعضها وبعض تخفيفا لصعوبة تبديل النقود •

---

(١) ابن سعد : الطبقات الكبرى جـ ٥ ص ٢٦٣ •

الصناعــــة

وجد العرب في مصـر عند الفتح صناعات راقيـة ذات أساليب فنيـــة رفيعة ، ومع أن العرب لم يكونوا يتدخلون فـي تلك الصناعات وفي غيرها مـــن المهـن الا أنهم استطاعوا بما كان لديهـم من استعداد لقبول التمدن والتحضر ومن ملكـة واسعة فـي التصور والتذوق الفني أن يقيموا بمصـر صناعة اسلاميـــة مصريـة طبعوها بطابع دينهم حـتي أصبحت تتميز عما كان موجودا فـي مصـــر قبل الفتـح •

وقد ازدهـرت بالفسطاط عدة صناعات أهمهـــا :

صناعة النسيـج :

اشتهـر المصريون منذ القدم بالـبراعة فـي صناعة النسيج وقـــــد استمـرت تلك الصناعة في ازدهارها لي يد القبط حتى أن العرب كانوا يطلقـون على المنسوجـات المصريـة اسم " قباطـــي " (١) •

وفي الفسطـاط اشتغل القبط بصناعة النسيـج ويذكـر ابن عبد ربـه أن " القماش الذي يصنع بمصـر هو قماش الكتان الأبيض الذي لا تلوين فيه حـــتى كان يقال في العصـر الأموي ان الأقمشـة المصريـة كالغشاء على البيض (٢) • "

---

(١) الازرقي : أخبار مكة جـ ١ ص ١٣٧ ، ١٦٨ ، ابن عبد ربه : العقد الفريد جـ ٣ ص ٢٩٨ يبدو أنه أطلق على النسيـج هذا اللفظ نظرا لقيـــام القبط بتلك الصناعة في أوائل عصر الاسلام ، ثم أصبح يستخدم كرمـــز لطريقـة معينة استخدمت فـي صناعة النسيـج المزخرف ذو اللحمـــات غير المحتدة ذا ثقوب دقيقة عند حدود الزخرفة • د • سعاد ماهر : المنسوجات المصرية فـي عصر الانتقال ص ٥٠ •

(٢) ابن عبد ربه : العقد الفريد جـ ١ ص ٤٦ •

وكانت دار طراز العامة تتبع بيت المال فى الفسطاط ، وكانت دار طراز الخاصة تنسج ملابس الوالى ورجال الحكومة . وكان يشرف على دور الطراز فى الفسطاط موظف كبير يسمى " صاحب الطراز " أو ناظر الطراز ، وكان مقره الفسطاط يتبعه مساعدون فى مصانع النسيج فى الأقاليم ، فكان فى كل اقليم موظف كبير يسمى " المتوكل بطراز الاقليم " وقد ورد فى احدى البرديات التى ترجع للقرن الثالث الهجرى أنه " قبض حسين بن يحنس من رماح ابن يوسف المتوكل بطراز أشمون وأنصنى (٢) "

---

(١) كان العرب يطلقون على مصانع النسيج " دور الطراز " والطراز لفظ مشتق من الفارسية (ترازيران) — وكان يعنى فى أول أمره الكتابة الزخرفيه التى توجد على الأقمشة ثم اتسع مدلوله وأصبح يستعمل للكتابة عن الورق والنسيج وعن المكان الذى تصنع فيه المنسوجات . وكانت الملابس التى عليها طراز توصف بأنها معلمة أو عليها علامة يتضح ذلك مما ذكره ابن عبد ربه : " قال هشام بن الحسن رأيت على حسن البصرى قميصا بحافته علامة وكان يصلى به أهداه له مسلمة بن عبدالملك ." العقد الفريد ج ١ ص ١٥٣ .

(٢) جروهمان : أوراق البردى العربية ج ٢ ص ١٥٣ .

وقد أجمع علماء الآثار اعتمادا على ما ورد فى المراجع التاريخية وماعثـــروا عليه من الآثار على أن مصانع الطراز فى العصـــر الاسلامى نشـأت فى عهـــــد الدولـــة الأموية (١) وترجح د • سعاد ماهـــر أن يكون أول خليفـــة ظهـــر فـــى عهــده الطـــراز على النسيج هو الوليد بن عبد الملك مستدلة بالقطعة المؤرخة بسنة ٨٨ هـ / ٧٠٦ م الموجـــودة بمتحـــف الفن الاسلامى رقم (٢) ٤ • يؤيـــد ذلـــك ماذكــره البيهقـــى " قال : يروى الكسائى : " دخلت مرة فى حضـــرة الرشيـــد وكان جالسا فـــى الايوان وأمامه مبلـــغ كبيـــر من نقود ••• وسألنى : هل تعرف من الذى أنشـــأ الكتابـــة على الذهب والفضـــة ؟ فقلـــت عبد الملك بن مروان " وما السبـــب الذى دعا لهـــذا العمل • " فقلت له " لا أدرى فقال له سأقول لك : ان القرطاس ينتمى للاغريـــق ومعظم المصريـــين مسيحيـون •• وطـــراز القرطاس كانت بالطـــراز الاغريقى " الأب الابن والروح القدس " وقد استمـــرت كذلك فى أوائل العصـــر الاسلامى حتى عهد عبد الملك ،فما ستـــاء من هذه الكتابـــة على الورق وهى تحمل فـــى الثياب والأوانى التى تصنع بمصـــر وغير ذلك مما يطـــرز من ستـــور وغيرها وعلى ذلك فقد أمر بارسال خطاب الى عبد العزيز بن مروان والى مصـــر • وأمره بالغاء الطـــراز من على الملابس والورق والستـــور وأمره أن تكون الأختام التى يستعملها الصناع على الورق " الله يعلم ان لا الـــه الا الله وحده " (٣)

---

(١) تذكـــر د • سعاد ماهـــر أن أسلوب زخرفة هذه القطعة ذا طابع قبطـــى مما يؤكد أنها من صناعة مصـــر ـ البلد التى خضعت للاسلام وكانت تكتـــب بالأغريقية • المنسوجات المصريـــة فى عصـــر الانتقال ص ٨٣ •

(٢) البيهقى : المحاسن والمساوئ ص ٤٩٨ ـ ٤٩٩ •

ذكر هذه الرواية أيضا الطبرى : تاريخ الأمم والملوك جـ ٢ ص ٩٦

والبلاذرى : فتوح البلدان ص ٢٤٩ وان لم يذكرا الثياب والأوانى •

وتؤكد رواية البيهقي قطعة النسيج الموجودة بمتحف الفن الاسلامي اذ عليها كتابة مؤرخة بسنة ٨٨ هـ / ٧٠٦ م ٠

وفي متحف الفن الاسلامي أيضا قطع من نسيج من الصوف ترجع للقرن الثالث الهجري من بينها القطعة رقم ٩٠٥٠ منسوجة بطريقة القباطي ، كما عثر على قطعة من نسيج الكتان السادة عليها شريط من الكتابة المطرزة من الحرير نصها : " بسم الله الرحمن الرحيم لعبد الله محمد الامام المستعين " أي أنها ترجع لسنة ٢٤٨ هـ - ٢٥٢ هـ / ٨٦٢ - ٨٦٦ م (١) ٠ كما عثر على قطعة صنعت للخليفة المعتز بالله في سنة ٢٥٤ هـ / ٨٦٨ م (٢) ٠

ويبدو أنها أجزاء من الأقمشة التي كانت تصدرها دار الطراز بالفسطاط للخلفاء وتنقش عليها اسماؤهم ٠

وكانت الكتابات الكوفية التي تزين منسوجات القرن الثالث في الفسطاط تتميز بتنوع زخرفي كبير حيث تنتهي حروف بعضها بأنصاف مراوح نخلية وتتميز القطعة التي نقش عليها اسم الخليفة المطيع لله والتي عثر عليها في الفسطاط بوجود خيوط ذهبية في أماكن مختلف منها مصنوعة من الكتان المجدول ٠

---

(١) دليل متحف الفن الاسلامي رقم ٨٧٢٢ كما عثر على قطعة أخرى ترجع لسنة ٢٨٠ هـ / ٨٣٩ م تحت رقم ١٤٨٩٠ دليل متحف الفن الاسلامي ٠

(٢) جروهمان : أوراق البردي العربية جـ ٢ ص ١٢٢ ٠

ومنذ العصر الطولوني بدأت مسحة طولونية تأخذ طابعها على النسيج تتمثل في التحوير الشديد في الرسوم الآدمية والحيوانية وان بقيت بعض تقاليد النساجين كالقبط كالاحتفاظ بموضوعات الزخرفة الساسانية كالدوائر المتماسة والحيوانات المتقابلة (١).

صناعة الحصر والأبسطة :

عرفت الفسطاط صناعة الحصير في فترة مبكرة فيذكر المقريزي (٢) عند كلامه عن جامع عمرو في العصر الأموي " ومسلمة أول من جعل فيه الحصر . وانما كان قبل ذلك مفروش بالحصباء . "

وقد عثر في حفائر الفسطاط على عدة قطع من الحصير منها مجموعة من المراوح المصنوعة من الحصير عليها كتابات عربية احداها قطعة بمتحف الفن الاسلامي رقم ١٥٠١٧ (٣) وقطع أخرى ذات زخارف بسيطة اذ تنتهي الحروف القائمة منه بمثلثات وزخارف نباتية بسيطة وهو يشبه الى حد ما أسلوب الكتابة على احدى قطع النسيج الموجودة بمتحف الفن الاسلامي (٤)

---

(١) زكي محمد حسن : الفن الاسلامي في مصر ص ٨٨ .

(٢) المقريزي : الخطط ج ٢ ص ٢٦٦ .

(٣) دليل متحف الفن الاسلامي قطعة رقم ١٥٠١٧ عليها كتابات غير واضحة تماما " الخير من فرج قد دنا .... سدنا يعجب العجيب " كتبت بخط كوفي يشبه الى حد كبير الكتابات على منسوجات العصر الطولوني .

(٤) دليل متحف الفن الاسلامي : قطعة رقم ١٠٨٣٧ .

التى يرجع تاريخها الى عهد الخليفة العباسي أبو القاسم الفضل المطيع لله الذى توفى سنة ٣٦٣ هـ / ٩٧٣ م ، ويرجع تاريخ هذه المروحة الى أحمد بن علي حفيد الاخشيد (١) .

والواقع أن الكتابة على المراوح المصنوعة من الحصر لم تكن شيئا جديدا ، فقد ذكر ابن عبد ربه أن الأمويين كانوا يكتبون الأشعار على المراوح (٢) وبدو أنهم كانوا يستخدمون لهذا الغرض الأنواع الدقيقة صغيرة الحجم ، أما الانواع ذات الأحجام المتوسطة المحتوية على كتابات فكانت تستعمل كمعلقات أو ستور وتنسج فى مصانع الطراز ، أما الحصر ذات الحجم الكبير فكانت تفرش بها المساجد والبيوت وما شابهها .

كما يضم متحف الفن الاسلامى بالقاهرة قطعتين من بقايا الأبسطة التى كشفت عنها حفريات الفسطاط تحمل كتابات ذات خط كوفى ومؤرخة سنة ١٠٢ هـ/ ٧٢٠ م أو ٢٠٢ هـ / ٨١٧ م ، وهى تشبه معظم أبسطة ماقبل العصر الاسلامى من حيث ربط العقدة حول خيط واحد من خيوط السداة (٣) .

كما عثر على قطعة أخرى تزينها زخارف تشبه " الدانتيل " وشريط من المثلثات والأقراص المستديرة باللون الأزرق والأصفر ، والأخضر والبنى على أرضيته حمراء ، والاطار عبارة عن شريط من الكتابة الكوفية باللون الأصفر على أرضية زرقاء داكنة وعقد هذه القطعة كعقد القطع السابقة مربوطة حول خيط واحد من خيوط السداه ويظهر من الحروف الكوفية التى عليها أنها أكثر تطورا من طبيعة الحروف فى العصر العباسي (٤) . ويحتفظ متحف المتروبوليتان بهذه القطعة .

---

(١) دليل متحف الفن الاسلامى قطعة رقم ١٤٧٨١ عليها مانصه " بركة من الله ويمن وسعادة .. لأبى الفوارس أطال الله بقاه . "

(٢) ابن عبد ربه : العقد الفريد جـ ٢ ص ١٨٤ .

(٣) زكي محمد حسن : الفن الاسلامى فى مصر ص ٨٧ .

(٣) ديماند : الفنون الاسلامية ص ٢٧٧ .

ويبدو أن اهتمام العرب في الفسطاط بصناعة البسط واستخدامها يرجع الى ما درج عليه المسلمون من الاهتمام بصناعة البسط والسجاجيد حيث كان جمال المسكن يتلخص في أن تكون حيطانه معلقا عليها الستور الجميلة ، وأن تكون أرضه مفروشة بالبسط (١) . "

وكانت السجاجيد تشمل ثلاثة أنواع أولها الستور المعلقة على الحائط والبسط التي تفرش بها أرض الغرف والصحون والممرات ، وثالثها الأنماط وهي تفرش على الأرض للنظر دون الدوس (٢) .

صناعة الخزف :

اشتهر المصريون ببراعتهم في صناعة الخزف وقد بلغت تلك الصناعة درجة عالية من التقدم خلال عصر الولاة . وقد أسفرت الحفريات التي أجريت في أطلال مدينة الفسطاط عن العثور على قطع من الخزف ذي البريق المعدني بعضها مدهون والآخر مطلي ذات لون برتقالي أو مائل للحمرة عليها بريق معدني ذهبي مائل الى الاخضرار عادة . وتشبه رسوم الأشخاص والعناصر الزخرفية التي تزين تلك القطع مثيلاتها في الخزف الايراني ، الذي كان نموذجا احتذى به صناع الخزف في الفسطاط اذ يتضح في بعض القطع مدى التأثر بالرسوم الهندسية المألوفة في خزف العراق وايران (٣) .

---

(١) متز : الحضارة الاسلامية جـ ٢ ص ٢٥٧ .

(٢) الخطيب البغدادي : تاريخ بغداد جـ ١ ص ٥٢ .

(٣) ديماند : الفنون الاسلامية ص ٢١٦ .

وفي متحف المترو بوليتان قطع كاملة من الخزف ترجع للعصر الطولوني منها آنيه صغيرة خشنة السطح يميل لونها الى الحمرة تتجمع فيها الصفات التي تميز منتجات الفسطاط المدهونة بطلاء قلوى والمزينة بزخارف منقولة عن الأواني العراقية وهى عبارة عن نقط ودوائر ذات مركز واحد وأنصاف دوائر مرسومة ببريق معدني ذهبي اللون مما يبين أن صناعة الخزف قد نالت حظا كبيرا من الاهتمام في الفسطاط رغم عدم اشارة المصادر التاريخية الى ذلك •

صناعة الزجاج :

اشتهرت مصر قبل الفتح العربي بصناعة الزجاج واستمرت كذلك بعد الفتح فقد عثر في أطلال مدينة الفسطاط على زجاجات وقوارير وزهريات وأكواب للاستعمال المنزلي أو لحفظ الزيوت والعطور بلغت من التنوع في الاشكال والانواع مايصعب معه حصرها ، وكان الكثير منها قد حلي بزخارف مختومة تتكون عادة من جامات مستديرة تضم بداخلها أقراصا صغيرة من رسوم حيوانات أو كتابات كوفية (١) ويزين بعض قطع تلك المجموعة أختام ونقوش مصنوعة بآلة حادة تشبه الملقط " ويعتقد أن هذه الطريقة من ابتكار الصناع المسلمين (٢)."

وقد اقتصرت زخرفتها على الأشكال الهندسية في معظم الأحيان وان لم يمنع هذا من ظهور الطيور المحورة أحيانا •

---

(١) ديماند : الفنون الاسلامية ص ٢٣١ •

(٢) المرجع السابق ص ٢٣١ •

كما توجد مجموعة من القوارير والأكواب والسلاطين ذات لون أرجواني فاتح عليها زخرفة من الخيوط البيضاء المتعرجة البارزة نوعا كتعريقات المرمر بلون الاناء الأصلي • كانت هذه الخيوط الزجاجية تسحب وهي ساخنة بآلة تشبه المشط فتتكون منها أشكال عديدة مختلفه مثل أسنان المنشار وضلوع السمك • (١)

كما اتبعت أيضا الطريقة القديمة المعروفة في نقش الزجاج وحفره اما باليد أبو بواسطة عجلة خاصة بذلك ومعظم ماعثر عليه من زجاج الفسطاط من هذا النوع البسيط الذى لا يعدو أن يكون أشرطة أفقية وخطوطا متموجة • على أنه يلاحظ في بعض القطع التي ترجع الى عصر الولاة بروز الزخرفة المقطوعة بشكل واضح على الأرضيه ويشاهد ذلك في جزء من سلطانية موجودة بمتحف الفن الاسلامي في القاهرة يزينه افريز من رسوم الماعز والكتابات الكوفيه بلون أزرق مما يثبت ازدهار هذه الصناعة في الفسطاط • اذ ليس من المعقول أن يجلب الى الفسطاط كافة احتياجاتها من الأدوات الزجاجية من أنحاء مصر لصعوبة نقله من جهة وعدم وجود مايمنع قيام صناعة في الفسطاط من ناحية أخرى • ومما يؤكد قيام صناعة الزجاج في الفسطاط ماعثر عليه حديثا من وجود آنية زجاجية في أطلال المدينة كتب عليها " صنعت في الفسطاط سنة ١٥٥ هـ "

---

(١) ديماند : الفنون الاسلامية ص ٢٣٤ •

صناعة الورق :

عرفت مصر صناعة القراطيس من البردى وكانت مستخدمة حتى القرن الثالث الهجرى . وقد ظلت مصر تصدر أوراق البردى الى أنحاء الدولة الاسلامية حتى أوائل القرن الرابع الهجرى حين حل محله نوع من الورق يسمى " الكاغد " نقلت صناعته من الصين (١) . وان كان الورق الذى كانت تصدره سمرقند يفوق ما كانت تنتجه مصر فيذكر الثعالبى أن كواغيد سمرقند عطلت قراطيس مصر (٢) . رغم ثنائه على الورق الصادر من مصر بأنه " أحسن وأنعم وأرق (٣) .

صناعة المعادن :

لم يعثر فى الفسطاط على أية آثار معدنية من عصر الولاة ، الا أنه خلال العصر الطولونى زادت العناية باستخراج المعادن والتأنق فى صناعتها وخاصة استخراج الذهب ،حيث نظمت الحملات المتتابعة الى بلاد البجة لحماية مناجم الذهب فى بلاد النوبة (٤) . فراجت صناعة الذهب والنحاس تبعا لمتطلبات الحياة الاجتماعية المترفه فى قصور آل طولون والتى ظهرت بوضوح فى جهاز قطر الندى ذلك الجهاز الذى " ظاهر به خماروية نعمة الخلافة (٥) . " فقد تضمن هذا الجهاز " دكة أربع قطع ذهب عليها قبة من ذهب مشبك فى كل عين من التشبيك قرط معلق فيه حبة من جوهر لايعرف له قيمة ، ومائة هاون من الذهب (٦) . "

---

(١) حسن ابراهيم حسن : تاريخ الاسلام السياسى ص ٥٩٢ — ٥٩٣ ،

(٢) الثعالبى : لطائف المعارف ص ١٢٦ .

(٣) الثعالبى : لطايف المعارف ص ١٢٦ ،ياقوت الحموى : معجم البلدان ج ٢ ص ٥٢٢ .

(٤) الادريسى : نزهة المشتاق ص ٨ .

(٥) الادريسى : نزهة المشتاق ص ٨ .

(٦) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٣ ص ٦٠ .

كما يذكر أنه " لما طلب فيها ألف تكة من أثمان عشرة دنانير قدر عليها في أيسر وقت بأهون سعر ولو طلب اليوم خمسون لم يقدر عليها (١) ." وأنه " لايعرف اليوم في أسواق القاهرة تكة بعشرة دنانير اذا طلبت توجد في الحال ولا بعد شهر الا أن يعنى بعملها (٢) . "

صناعة الخشب :

لا يستبعد أن يكون العرب قد نقلوا صناعة الخشب الى الفسطاط منذ الفتح ، وقد ابتكروا طريقة الحفر المائل أو المشطوف على الخشب ، تلك الطريقة التي استخدمت بعد ذلك في الحفر على الحجر والجص .

وكانت الطريقة التقليديه في الحفر هي أن توزع الزخرفة على أقسام مستطيلة ومربعة داخل اطار خال من الزخرفة (٣) ، وقد دخل هذا الأسلوب العباسي مصر وأصبح شائعا زمن الطولونيين . وفي المتحف الاسلامي بالقاهرة مجموعة ضخمة من الأخشاب الطولونية المحفورة تشتمل على أبواب واسقف وأفاريز ، وقطع أثاث مدهون بعضها بألوان زاهية (٤) .

ثم تطور هذا الأسلوب على أيدي الصناع المصريين وأصبح الحفر أكثر عمقا والزخرفة أكثر تجسيما .

وقد قلد العرب الكثير من قطع الاثاث القبطية كالدواليب والموائد والكراسي .

---

(١) المصدر السابق ج ٣ ص ٦١ — ٦٢ .

(٢) المصدر نفسه نفس الصفحة .

(٣) زكي محمد حسن : بعض التأثيرات القبطية ص ١٣ — ١٤ .

(٤) متحف الفن الاسلامي . دليل

وقد شهدت الفسطاط خلال العصر الطولوني مرحلة انتقال من الطراز القبطي في صناعة الخشب الى الطراز الاسلامي البحث ، كما تأثرت كثير من مظاهر الحضارة الطولونية بالفن العراقي وخاصة في سامرا . فالخشب الطولوني الموجود في دار الآثار العربية وبعض المتاحف الأوربية ، بزخارفه المحفوره يشبه الى حد كبير الطراز المتبع في سامرا (١) ويتمثل في الحفر المنحوت الجوانب والمزخرف ببضعة فروع وخطوط حلزونية تغطى الأرضية كلها يتجلى فيها الابداع والبراعة النادرة ، ويغطى التربيعة الخشبية رسم تخطيطي أو زخرفة نباتية تحيط بها أشرطة من أقراص صغيرة محفورة أو فروع مستديرة أو مربعات أو مستطيلات (٢) .

وقد ظلت هذه الطريقة متبعة في صناعة الخشب في الفسطاط خلال عصر الاخشيديين بل وفي عهد الفاطميين .

وفي دار الآثار العربية لوح خشبي مكسور كتب عليه مايشير الى تسجيل أحد الأفراد لملكية عقارية صيغت في عبارات ا قانونية فبعد البسملة : " .... بركة من الله وعين وسعادة عشرين سهما من جميع هذه الدار وحوانيتها من كل حق وكثير حولها من حقوقها الذي هم لها فيها . ابن هارون ن موسى البزاز ملكها من فضل ... " (٣)
ويرجع تاريخها الى العصر الاخشيدي .

---

(١) زكي محمد حسن : الفن الاسلامي في مصر ص ٩٤ .

(٢) المرجع السابق نفس الصفحة .

(٣) زكي محمد حسن : فنون الاسلام ص ٩٤ ،

J.D. Weill : Catlogue du Musée arabe pp. 60 - 61.

مستوى المعيشـــــة

بعد أن عرضنا للحياة الاقتصادية فى الفسطاط على النحو الذى بيناه نلاحظ أن مستوى المعيشة فى المدينة كان يتذبذب صعودا وهبوطا ، وتحفـل المصادر التاريخيـة بذكـر الكثير مما وقـع بالفسطاط من ارتفاع فى الأسعار وانخفاض مستوى المعيشة واشتداد الغلاء .

ويذكر الكندى أن أول غلاء (١) وقع بمصـر كان سنة ٨٧ هـ — ٧٠٥ م وكـان يلـى مصـر وقتهـا عبد الله بن عبد الملك بن مروان من قبل أبيه . كما يذكـر أن نقص الفيضان تسبـب فـى ارتفاع سعـر القمح وأن أهل مصر خرجوا للاستسقاء وخـرج معهـم القاضـى ابن أبى الليث ، قاضى الفسطاط .

وفى سنة ١٧٤ هـ / ٧٩٠ م (٢) حدث أن اشتد الغلاء بمصـر وتتابعـت نوبات ذلـك الغلاء وارتفاع الأسعار .

الا أن ذلك لايعنى أن الفسطاط لم تشهد فترات من الرخاء والاستقـرار ، فمثـلا ساد الرخـاء الفسطاط فـى عهـد أحمد بن طولون حتى بيعـت كـل عشـرة أرادب بدينـار ، لكن الأزمة الاقتصادية عادت من جديد فى عهـد خمارويه وولده هـارون ، فارتفـع سعر القمح حـتى بيـع الثلاثـة أرادب بدينار مما اضطـر خمارويه الى فـرض عقوبات صارمة على المتلاعبين بالأسعـار (٣) .

ثم استمرت الأزمة الاقتصادية وارتفاع الأسعار تسع سنين متتاليه " حـتى نهبـت الضياع والغلات وأحرقت مواضـع عديدة وارتفع سعـر القمح فبيعـت الويبـة منه بدينار (٤) . "

---

(١) الكندى : الولاة والقضاه ص ٥٩ ، ٣٢٧ ،
المقريزى : اغاثة الأمة ص ١١ .

(٢) الكندى : الولاة والقضاة ص ٤٦٢ .

(٣) البلوى : سيرة أحمد بن طولون ص ١٤٩ ، ١٩٠ ، ٣٦٤ .

(٤) المقريزى : اغاثة الأمة ص ١١ — ١٤ .

هذا وان كان المقريزى يذكر ماكان عليه الماذرائيون من سعة المال فيذكر شراء أحد كتبة الخراج وكيف لم يهنأ بأربعمائة دينار حتى وهبها لدقاق القمح معللا ذلك بقوله : " من كثرة المعاش وقس عليه باقى الأحوال (١) • "

الا أن شراء أحد الموظفين ليس دليلا على استقرار الأحوال الاقتصادية بالنسبة لأغلبية السكان ، ذلك أنه وقع غلاء شديد فى أواخر عهد الاخشيديين " حتى بلغ الخبز كل رطل بدرهمين والحنطة كل ويبة بدينار • (٢) " مما حدا بابن الأثير الى القول بان اشتداد الغلاء وانخفاض مستوى المعيشة كان أحد الأسباب التى عجلت بدخول الفاطميين مصر (٣) •

كما يذكر الكندى (٤) أنه فى عهد أحمد بن على بن الاخشيد حدث أن اشتد الغلاء فى أيامه " حتى أكل الناس الجيف والكلاب • "

من ذلك العرض لفترات الشدة والأزمات الاقتصادية التى مرت بالفسطاط وما صاحبها من انخفاض فى مستوى المعيشة بين السكان ، نخلص الى ان ما أصاب الفسطاط من تلك الأزمات يرجع أساسا الى اضطراب الحكم وسوء الادارة • فقد كان الولاة يشرفون أحيانا على

---

(١) المقريزى : الخطط ج ١ ص ٣٣١ - ٣٣٢ •

(٢) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ج ٨ ص ٢١١ المطبعة الكبرى سنة ١٢٩٠ هـ •

(٣) المصدر نفسه نفس الصفحة •

(٤) الكندى : الولاة والقضاة ص ٢٩٧ •

الناحية المالية ،وحين كان الخليفة يخشى ازدياد نفوذ أحد الولاة كان يسند أمر الخراج الى شخص آخر يكون مسئولا مسئولية مباشرة مما يحد من سلطة الوالي • ويعطى الفرصة كاملة لاستبداد عمال الخراج نظرا لبعدهم عن الخليفة مما سهل لهم فرص التلاعب بأقوات الناس •

هذا وكان الخلفاء في بعض الأحيان يطلبون الى الولاة أن يتشددوا في جمع الضرائب ويشتطوا في تقديرها كما أوضحنا عند حديثنا عن الضرائب التي فرضت على أهل الفسطاط ••وليس أدل على ذلك من قول الخليفة الأموي (١) سليمان بن عبد الملك ٩٦ ـ ٩٩ هـ/٧١٤ /٧١٧ م الى أسامه بن زيد التنوخي متولي خراج الفسطاط / " احلب الدر حتى ينقطع واحلب الدم حتى ينصرم "(٢) •

هذا واقتصاد مصر القائم أساسا على الزراعة كان يتأرجح متأثرا بحالة الفيضان ،فمما لا شك فيه أن زيادة النيل أو نقصانه كانت تعرض اقتصاد مصر من وقت لآخر لضربات قاصمة (٣) مما كان سببا في ارتفاع الأسعار وانخفاض مستوى المعيشة • بالاضافة الى انخفاض رواتب الموظفين •

---

(١) أبو المحاسن : النجوم ج ١ ص ٢٣١ •

(٢) المصدر السابق نفس الصفحة •

(٣) أبو المحاسن : النجوم ج ١ ص ٥٤ •

فقد أشارت المصادر (١) الى ضآلة مرتب القاضي فلم يكن رزقه " يكفيه للانفاق على كتابه وغير ذلك مما يتطلبه ديوانه. " (٢) حتى اضطر بعضهم - للاشتغال بالتجارة الى جانب القضاء. فاذا كان هذا هو حال القضاة فما بال بقية موظفي الفسطاط .

الا أن الفسطاط قد شهدت الى جانب ذلك فترات من الانتعاش والاستقرار الاقتصادي بفضل حرص القائمين على أمرها من الولاة على النهوض بها وعدم استنزاف ثرواتها .

....

---

(١) الكندي : الولاة والقضاة ص ٣٠٧ ، ٣٥٤ ، ٣٦٩ ، ٤٢١ ،
أبو يوسف : كتاب الخراج ص ١١٥ .

(٢) الكندي : الولاة والقضاة ص ٣٥٤ .

الباب الثالث

الحياة الاجتماعية فى مدينة الفسطاط

الحياة الاجتماعية فى مدينة الفسطاط :

أ ـ عناصر السكان :

(١) العرب
(٢) الموالى
(٣) أهل الذمة

ب ـ الحياة الاجتماعية الخاصة لعناصر السكان :

الزواج ـ الأزياء ـ المطاعم والمشارب ـ الجنائز

جـ ـ الحياة الاجتماعية العامة :

أولا ـ الأعياد والمواسم والاحتفالات
ثانيا ـ وسائل اللهو فى المدينة

د ـ عيوب المجتمع فى الفسطاط :

الحياة الاجتماعية فى مدينة الفسطاط

الفصل الأول

عناصر السكان

أعتقد أن الخطوات الأولى لاعطاء صورة حقيقية للمجتمع فى الفسطاط هى أن نتحدث عن عناصر السكان فى تلك العاصمة الكبيرة وأن نشير الى حياتها الاجتماعية الخاصة ، فقد تعددت العناصر التى سكنت الفسطاط فكان منهم العرب والموالى وأهل الذمة ، لكل حياته الخاصة وسنعرض فى هذا الفصل لكل عنصر من هذه العناصر عرضا مستقلا لنحدد دوره الاجتماعى فى المدينة متتبعين التغييرات التى طرأت على كل عنصر .

العرب :

كان استقرار القبائل العربية التى شاركت فى فتح مصر فى الخطط التى خصصت لها فى الفسطاط نواة لذلك المجتمع الجديد وكان معظم هذه القبائل فى بادئ الأمر من الجماعة القحطانية (١) . وقد اتخذت كل قبيلة خطة لنفسها ، ومن ثم عرفت كل خطة باسم القبيلة التى نزلت بها ، مثل خطة مهرة وخطة تجيب وخطط

---

(١) ابن عبدالحكم : فتوح مصر وأخبارها ص ٩٨ ـ ١٢٧ ،
المقريزى : الخطط جـ ١ ص ٢٨٥ ،
المقريزى : البيان والاعراب ص ٦٥ ـ ٦٦

اللفيف وغيرها (١) . وهكذا نقل العرب معهم نظامهم القبلي واستقروا على هيئة قبائل لكل قبيلة حارس وعريف . (٢)

ويمكننا أن نقدر عدد العرب الذين قدموا مع عمرو بن العاص أول الأمر نحو ثلاثة آلاف وخمسمائة ، ثم أصبحوا اثني عشر ألفا (٣) ثم أخذ العرب يفدون على الفسطاط أفواجا ، ويذكر ابن عبد الحكم أنه "كان بين القبائل فضاء من القبيل الى القبيل كما مدت الامداد في زمان عثمان بن عفان وما بعد ذلك وكثر الناس وسع كل قوم لبني أبيهم حتى كثر البنيان والتأم . " (٤)

ولم يكن للجماعة القيسية في بادئ الأمر من العدد ما يمكنهم من الاستقلال بخطة خاصة فجعلوا مع فئات أخرى من المجموعة اليمنية (٥) . وعندما ولي مروان بن الحكم ابنه عبد العزيز بن مروان على مصر سنة ٦٥ هـ / ٦٨٤ م نقلت الى مصر بطون كثيرة من قيس (٦) . كما أذن هشام بن عبد الملك في ترحيل ثلاثة آلاف من قيس الى مصر ولكنهم لم ينزلوا الفسطاط (٧) .

---

(١) ابن عبد الحكم : فتوح مصر ص ١٢٦ ، المقريزي : الخطط ج ١ ص ٢٩٧ .
(٢) اليعقوبي : تاريخ اليعقوبي ج ٢ ص ٨٦
(٣) ابن عبد الحكم : فتوح مصر ——— ص ٥٦ ، ٦١
(٤) المصدر نفسه ص ١٢٨
(٥) ابن عبد الحكم : فتوح مصر ص ١١٦ ، ابن دقماق : الانتصار ج ٤ ص ٣ — ٥ ، ياقوت الحموي : معجم البلدان ص ٢٦٣
(٦) يذكر الكندي : الولاة والقضاة ص ٧٦ — ٧٧ أن عبد العزيز بن مروان قال " يا أمير المؤمنين كيف المقام ببلد ليس به أحد من بني أبي " .
(٧) يذكر الكندي : الولاة والقضاة ص ٧٦ — ٧٧ أن عبيد الله بن الحبحاب لما ولاه هشام على مصر قال : ما أرى لقيسا فيها حظا الا لناس من جديلة وهم فهم وعدوان فكتب الى هشام أن أمير المؤمنين أطال الله بقاءه قد شرف هذا الحي من قيس ونعشهم ورفع من ذكره واني قدمت مصر فلم أر لهم فيها حظا الا أبياتا من

ولعل الذى حمل الخليفة هشام بن عبدالملك على ألا ينزل قيسا بالفسطاط وجود القبائل اليمنية بها اذ خشى وقوع المنازعات بينهما .

ويذكر الكندى أن بشر بن صفوان لما رأى افتراق قضاعة فى القبائل كتب الى يزيد بن عبدالملك " يسأله الاذن لهم فى استخراج من كان فى القبائل منهم ليجعلهم دعوة منفردة فاذن له يزيد بن عبدالملك فى ذلك فأخرج مهرة من كندة وأخرج تنوخا من الأزد وأخرج آل كعب بن عدى التنوخى من قريش وأخرج جهينة من أهل الراية وأخرج خسينا من لخم فجعلهم مع سائر قضاعة دعوة منفردة ، وتدوين بشر ابن صفوان هذا هو التدوين الرابع لأنّ الأوّل تدوين عمرو بن العاص والثانى تدوين عمر بن عبدالعزيز ، والثالث هو تدوين قرة بن شريك والرابع هو هذا (١) .

وقد ظل العرب المقيمين بالفسطاط متمسكين بالانتساب الى قبائلهم طوال القرنين الأوّل والثانى الهجريين ، وشواهد القبور التى كشفت حديثا توضح كيف أن اسم المتوفى كان يتبعه اسم قبيلته (٢) .

وبدت عدة مظاهر اجتماعية معينة متأثرة بالسلوك القبلى الذى تغلغل فى وجدان العربى من أهمها التحالف أو ارتباط قبيلتين أو أكثر فى حمل مسئولياتهما وحل مشاكلهما كتحالف قبيلتى أبى سالم المعافرى وجيشان (٣) . وكثيرا ما كانت تجير القبيلة أو أحد أفرادها شخصا آخر مثلما حدث حين أجار كريب بن أبرهة سيد حمير الخليفة مروان بن الحكم سنة ٦٥ هـ / ٦٨٤ م عندما ثار عليه المصريون وأرادوا

= فهم وفيها كور ليس فيها أحد وليس يضير أهلها نزولهم معهم ولا يكسر ذلك خراجا وهى بلبيس فان رأى أمير المؤمنين أن ينزلها هذا الحى من قيس فليفعل فكتب اليه هشام أنت وذاك . "

الكندى ص ٧٦ — ٧٧ ، المقريزى : البيان والاعراب ص ٥٠ = ٥١

(١) الكندى : الولاة والقضاة ص ٧٠ — ٧١

(٢) المقريزى : الخطط جـ ٢ ص ٢٢٦ ،
Wiet : Precis de l' histoire d' Egypte. T. II pp.136-137.

(٣) الكندى : الولاة والقضاة ص ٣٥٣ .

قتله انتقاما للاكدر بن حمام سيد لخم (١).

هذا فضلا عن تأثر العرب المقيمين بالفسطاط بالعصبية القبلية حتى أن الولاة كانوا يولون اهتمامهم لافراد قبيلتهم التى انحدروا منها فقد أوصى والى مصر قيس بن سعد الانصارى ذو الاصل اليمنى القحطانى خليفته محمد بن أبى بكر القرشى أى العدنانى (المضرى) سنة ٣٧ هـ / ٦٥٧ م بأن يعامل قومه المضريين معاملة طيبة فقال : "وانظر هذا الحى من مضر فأنت أولى بهم منى فألن لهم جناحك وقرب عليهم مكانك وارفع عنهم حجابك ." (٢)

وقد بلغ من قوة العصبية بين العرب فى القرن الثانى الهجرى أن القاضى توبة بن نمير ١١٥ — ١٢٠ هـ / ٧٣٣ — ٧٣٧ م كان لا يقبل شهادة مضرى على يمانى ولا يمانى على مضرى (٣).

كما كان موقف القبائل العربية فى الفسطاط فى هذه الفترة من الثورات والحركات السياسية المختلفة مظهرا بارزا من مظاهر العصبية القبلية ، وكانت القبائل بعضها يؤيد بنى أميه والبعض الاخر يعاديهم . وكانت هذه المواقف تؤثر تأثيرا واضحا فى الحياة العامة ، فبعض القبائل أيدت حركة ابن أبى حذيفه المعادية لعثمان سنة ٣٥ — ٣٦ هـ / ٦٥٥ — ٦٥٦ م ، وبعضها الاخر وقف مع العثمانيين بزعامة معاوية بن حديج السكونى ، كما أيد فريق العلويين وفريق آخر حركة الخوارج سنة ٦٤ هـ / ٦٨٣ م .

---

(١) الكندى : الولاة والقضاة ص ٤٦
(٢) المصدر نفسه ص ٣٧
(٣) المصدر نفسه ص ٣٤٦

وفي آخر العصر الأموي ١٢٧ - ١٢٨ هـ / ٧٤٤ - ٧٤٥ م نادت بعض القبائل بخلع مروان بن محمد ثم أيدت الدعوة العباسية .

والواقع أن العرب في بادئ الامر لم يكن يعنون بغير السياسة والحكم والحرب (١) . ولذا لم يختلطوا بالمصريين ولم يكن لهم تأثير كبير على القبط سواء من ناحية انتشار الاسلام أو اللغة العربية فقد حرم عليهم عمر بن الخطاب الزراعة أو امتلاك الأرض ، ويذكر ابن عبد الحكم (٢) أن عمر بن الخطاب " أمر مناديه أن يخرج الى أمراء الأجناد يتقدمون الى الرعية أن عطاءهم قائم وأن رزق عيالهم سائل فلا يزرعون ولا يزارعون . "

الا أنه كانت للعرب أيام خاصة في الربيع ينتقلون فيها من مرابطهم في الفسطاط الى قرى الريف فقد جاء في خطبة لعمرو بن العاص (٣) : " فحيّ لكم على بركة الله الى ريفكم فنالوا من خيره ولبنه وخرافه وصيده وارتعوا خيلكم وأسمنوها وصونوها وأكرموها فانها جنتكم من عدوكم وبها مغانمكم وأنفالكم ، فتمتعوا في ريفكم ما طاب لكم فاذا يبس العود وسخن العمود وكثر الذباب وحمض اللبن فحيّ على فسطاطكم . "

---

(١) ابن عبد الحكم : فتوح مصر ص ١٦٢ ،
C.H. Becket . Ency of Islam p. 6 - 7.

(٢) ابن عبد الحكم : فتوح مصر ص ١٦٢ ،
السيوطي : حسن المحاضرة جـ ١ ص ٧٣

(٣) ابن عبد الحكم : فتوح مصر ١٤٦ ، أبو المحاسن : النجوم الزاهرة جـ ١ ص ٧٣ .

وكانت حركة الارتباع هذه تتم حسب نظام مرسوم ، فكان الوالي اذا جاء الربيع يصدر أمرا كتابيا يحدد فيه القرية التي تذهب اليها القبيلة ، وكميات اللبن التي يسمح لها بالحصول عليها من المصريين وكانت حركة الارتباع هذه تتركز غالبا في القرى المجاورة للفسطاط وهي منف أول مدن الصعيد على غربي النيل من أعمال الجيزة (١) ، واوسيم •

كما كانت تتركز في الشمال الشرقي في " عين شمس " وهي المدينة المعروفة اليوم بتل الحصن وما جاوره بأرض المطرية و " أتريب " (٢) بالقرب من بنها و " بسطه " وهي قرية في محافظة الفيوم (٣) ، و " طرابية " وهي احدى قرى محافظة الشرقية ومركزها فاقوس (٤) وابليل (٥) وهي مجاورة لطرابية ونتو (٦) •

وهي جميعا قرى خصبية متاخمة للصحراء من جهة الشرق مما كان يتيح للعرب فرصة الصيد وتدريب الخيل في جو قريب من جو البادية التي قدموا منها • (٧)

---

(١) محمد رمزي : القاموس الجغرافي ص ٤٢٢ •

(٢) اندثرت هذه القرية ويدل على موقعها التلول التي بأحواض أتريب الواقعة في الجهة الشمالية من بندر بنها • محمد رمزي : القاموس الجغرافي ص ٤٢١ وما بعدها •

(٣) محمد رمزي : القاموس الجغرافي •

(٤) يذكر ياقوت الحموي أنها كوره من كور مصر بأسفل الأرض وهي من نواحي الحوف •

(٥) ابليل بالقرب من صا الحجر وطرابيه بمركز فاقوس مديرية الشرقية وقد اندثر مكانهما • ويعرف مكان ابليل اليوم " بتل بليم " المحرفة من ابليل ويقال له أيضا تل الهطيخ بجزيرة في بحيرة المنزلة شرقي صان الحجر على ٣١ كم • محمد رمزي : القاموس الجغرافي ص ٤ •

(٦) هي قرية آثارها باقية الى اليوم تعرف باسم تل المقدام بأراضي كفر المقدام بمركز ميت غمر • محمد رمزي : القاموس الجغرافي ص ٤٥٣ •

(٧) انظر خريطة رقم ٢ ، ٣

وهكذا كان الارتباع يتم فيما يشبه دائرة تحيط بالفسطاط نحو الشمال فلا تتجاوز قرى " ببا " مكانها اليوم البقعة التى بها مقام الشيخ موسى بجهل موسى بمركز اسنا بمحافظة قنا ، وبوصير غربى الاسكندرية عند محطة برج العرب (١) ، وابيوقون وهى احدى قرى البحيرة . ومن الجنوب لم تكن القبائل تتجاوز البهنسا .

كما كانت القبائل المتجاورة فى خططها فى الفسطاط تشترك فى مرتبعات واحدة وقد يكون للقبيلة أكثر من مكان تتوجه فيه اذا كانت كبيرة العدد .

والارتباع كان يهدف الى العناية بالخيل فهى عدتهم الحربية فضلا عن أنه نوع من العطلة والراحة . وقد أمر عمرو جنده بالكف عن أموال المصريين " وأن يصفوا فروجهم عن أعراضهم وأن يغضوا أبصارهم عن نسائهم " (٢) .

وكان موسم الارتباع يستمر حوالى ثلاثة أشهر فهو يبدأ عادة آخر الشتاء وقد " تدلت الجوزاء وذكت الشعرى " وينتهى فى أوائل الصيف وكان فرصة كبيرة للاتصال المباشر بين العرب والمصريين ، فكان يتم بالتدريج فى هذه الهجرة السنوية الداخلية تبادل الصلات والمؤثرات بين العرب والمصريين .

وكان هؤلاء الى عهد الخليفة المعتصم ٢١٨ هـ ـ ٢٢٧ هـ / ٨٣٣ ـ ٨٤١ م يأخذون العطاء من بيت المال (٣) . ويبدو أن الولاة قد راعوا أن يكون العطاء مجزيا بحيث يغنى العرب عن الاشتغال بحرف أخرى والتفرغ للقتال (٤) .

---

(١) اندثرت ولم يبق منها الا البرج المعروف ببرج العرب على بعد ٤٠ كم غربى الاسكندرية . محمد رمزى : القاموس الجغرافى ص ١٤٣ .

(٢) ابن عبدالحكم : فتوح مصر ص ١٤٠

(٣) المقريزى : الخطط جـ ١ ص ٢٦١

(٤) الكندى : الولاة والقضاة ص ٧٠

والموجح أن العطاء كان يصرف للجند سنويا اذ يذكر الماوردى (١) أن الخليفة مروان بن محمد قطع العطاء عن الجند سنة فكتب اليهم يعتذر فيه ويقول : " انما أنا حبست عنكم العطاء فى السنة لعدو حضرنى فاحتجت فيه اليكم بعطاء السنة الماضية وعطاء هذه السنة فكلوا هنيئا مريئا وأعوذ بالله أن أكون أنا الذى يجرى الله قطع العطاء على يديه . " (٢)

وكان الحد الأعلى من العطاء الذى يدعى " شرف العطاء " ألفين وخمسمائة درهم (٣) ، وكان يعطى لأهل الأيام والفتوح الاولى ولا يورث كما كان لنساء العرب عطاء يبلغ مائتى درهم لكل امرأة (٤) . كما خصص للأطفال دون السابعة عشرة " مائة درهم سنويا تدفع عند الفطام (٥) . وكان هذا المبلغ يورث الى أن أنكر عمر ابن عبد العزيز الوراثة وقال " اقطع الوراثة واعم الفريضة " (٦) الا أنه خشى أن يستن به فى قطع الوراثه ولا يستن به فى عموم الفريضة فترك الأمر كما كان " (٧) . كما قرر عمر بن عبد العزيز أن يختار ولدا واحدا من أولاد الرجال المستحقين للعطاء عن طريق الاقتراع ليعطى المائة درهم وليرث مكان أبيه فى العطاء (٨) .

---

(١) الماوردى : الأحكام السلطانية ص ١٩٥ ـ ١٩٦ .
(٢) الكندى : الولاة والقضاة ص ٧٠
(٣) الاصفهانى : الاغانى ج ٩ ص ١٦٤ ، ج ١٩ ص ١٥٢ ، البلاذرى : أنساب الاشراف ج ٤ ص ٧٤٩ مخطوط القاهرة .
(٤) ابن عبد الحكم : سيرة عمر بن عبد العزيز ص ٤٢ ، الطبرى : تاريخ الطبرى ج ١ ص ٢٤١٣ ، ٢٩٢٩ .
(٥) البلاذرى : فتوح البلدان ص ٤٥٨ ـ ٤٥٩ ، ابن سعد : الطبقات ج ٥ ص ٢١٢ ، ج ٦ ص ٢١٩ .
(٦) ابن سلام : الأموال ص ٢٣٦ ـ ٢٤١ .
(٧) المرجع السابق نفس الصفحة
(٨) الطبرى : تاريخ الامم والملوك ج ٢ ص ٣٦٧ .

فلما ولى المعتصم الخلافة ، فأرسل الى والى مصر كيدر بن نصر ٢١٦ — ٢١٩ هـ / ٨٣١ — ٨٣٤ م يأمره " باسقاط من فى الديوان من العرب وقطع أعطياتهم ففعل ذلك . " (١)

والواقع أن العباسيين تخلوا فى أول الأمر عن العنصر العربى وأساءوا الظن بهم ، على اعتبار أنهم أنصار الأمويين وقربوا اليهم الفرس واستعانوا بهم فى تكوين الدولة العباسية على أنقاض الأمويين الذين اتبعوا من قبل سياسة التعصب للعنصر العربى مما أثار المسلمين من غير العرب وانتهى الأمر بحدوث ذلك الانقلاب الذى أزال سلطان العرب وبعث النفوذ الفارسى منذ قيام الدولة العباسية حتى ولى المعتصم الخلافة فاستعان بعنصر ثالث هو العنصر التركى .. وأهمل العرب اهمالا حدا به الى الأمر باسقاط العطاء عنهم .

ولم يكن لهذا الأمر رد فعل عنيف عند العرب بسبب اختلاط الدماء ، وتفرق العصبية (٢) . فعندما ثار يحيى بن الوزير الجروى لم يشترك معه من العرب سوى خمسمائة رجل انتهت ثورتهم بأسر زعيمهم فى سنة ٢١٩ هـ / ٨٣٤ م فتفرق عنه أصحابه (٣) .

ولم يكترث العرب بتلك الثورة ولا بضياع امتيازاتهم الطبقية اذ لم تعد مصالحهم مجرد مصالح عسكرية سياسية تستهدف الحكم والسلطان وانما أصبحت

---

(١) الكندى : الولاة ص ١٩٣ ، أبو المحاسن : النجوم ج ٢ ص ٢٢٣ ، المقريزى : الخطط ج ١ ص ٩٤ .

(٢) يذكر الكندى أنه عندما قطع كيدر العطاء ثار يحيى بن الوزير الجروى فى جمع من لخم وجزام وقال : هذا أمر لا نقوم فى أفضل منه لأنه منعنا حقنا وفيئنا ولكن لم يتبعه اكثر من خمسمائة رجل ومات كيدر فى ربيع الآخر سنة ٢١٩ هـ فخرج مظفر بن كيدر والى مصر من بعده الى يحيى بن الوزير فقاتله فأسر يحيى بن الوزير وتفرق عنه أصحابه فى جمادى الأولى سنة ٢١٩ هـ . " الكندى : الولاة والقضاة ص ١٩٣ — ١٩٤ .

(٣) المصدر السابق ص ١٩٣ — ١٩٤ .

مصالح اقتصادية . فقد تحول العرب بعد أقل من قرنين من الفتح من طبقة ارستقراطية حاكمة الى مواطنين مدنيين ، يمارسون الأعمال المدنية بينما كان عمر بن الخطاب من قبل قد رسم للعرب سياسة مخالفة تماما حيث كان يرى أن يظلوا مجرد جنود لا يمارسون سوى العمل العسكري (١) فحسب .

وقد اضطر العرب الى الانتشار في الريف والاختلاط بالمصريين والتزوج من بناتهم والاشتغال بالزراعة والصناعة والتجارة ومن ثم بدأت حركة الاندماج بين العرب وبين المصريين (٢) . التي كان لها أكبر الاثر في انتشار اللغة العربية والاسلام (٣).

وفي عهد الطولونيين عرف المجتمع في الفسطاط عناصر مختلفة من الروم والديالمة والسودانيين ، ذلك أنه عندما ولي أحمد بن طولون اشترى الكثير من العبيد من الروم وأفرد لهم قطيعة في القطائع - التي تعتبر في حقيقة الأمر امتدادا للفسطاط ونمو لها - عرفت بهم . (٤)

كما استكثر من شراء المماليك الديالمة حتى بلغ عددهم أربعة وعشرين ألفا ، كما اشترى من العبيد السودانيين أربعين ألفا (٥) . كما اعتمد الاخشيديون على الترك والجند السودان .

---

(١) ابن عبد الحكم : فتوح مصر وأخبارها ص ١٦٢

(٢) المقريزي : البيان والاعراب ص ٥٠ - ٥١ ،
المقريزي : الخطط ج ٢ ص ١٣٨ - ١٣٩ ،

C.H. Becker. Ency. of Islam vol II. p. 6.

Wiet : Precis de L'histoire d' Egypte T. II pp. 136-137.

(٤) المقريزي : الخطط ج ١ ص ٣١٠

(٥) المصدر السابق نفس الصفحة ، لم يكن استقرار هذه العناصر بالامر

الموالـــــى

وهم المسلمون من غـــير العـــرب

أولهم : المصريون من القبط الذين دخلوا الاسلام فقد تزايد عددهم فى الفسطاط بمرور الوقت ، اذ أنه من الثابت أن القبط أقاموا داخل الفسطاط ذاتهـا منذ بدايـة تأسيسها كما أشار الى ذلك ابن عبدالحكم (١) . مما أدى الى استمرار الاحتكاك بين القبط والعرب ودخول الكثيرين منهم فى الاسلام ، الا أن العـرب الذين كانوا يكونون طبقـة ممتازة فى الفسطاط فى بادئ الأمر كانوا ينظرون الى مـن أسلم من القبط نظرة الأدنى ، حتى اضطر من أسلم من القبط الى محاولـــــة اتخاذ نسبا عربيا .. ويذكر الكندى (٢) أن جماعة من القبط الذين أسلموا وكـان يسمون " أهل الحرس " (٣) حاولوا أن يتخذوا لأنفسهم نسبا عربيا فسموا الـــى قاضى الفسطاط " العمرى " يعطونه مالا ليثبت لهم نسبا عربيا كما أتوا بجمع من أعراب الحوف الشرقى وبعض أعراب الشام ورشوهم بالمال فشهدوا أمام القاضى أن أهـــل الحرس من العرب وأن نسبتهم الى بنى حوتكة (من قضاعة) فقبل القاضى شهادتهـم الا شهادة حوى بن حوى بن معاذ المذرى ، وسجل لهم نسبا بذلك فثار عرب مصـر وقام الشعراء يهجون القاضى وأهل الحرس (٤) .

---

(١) ابن عبدالحكم : فتوح مصر ص ١٣٢

(٢) الكندى : الولاة والقضاه ص ٣٩٩

(٣) لم يوضح الكندى لماذا سموا أهل الحرس وان كان يبدو أنهم كانـــوا يقومون بالحراســة أو ما شابهها من أعمال أضفت عليهم هذا الاسم .

(٤) يذكر الكندى أن يحيى الخولانى قال فى هجاء حوى :

يا ليت أم حوى لم تلد ذكـــرا ... أو ليت أن حويا كان ذا خـرس

كما قضاعة عارا فى شهادتـــه ... لله در حوى شاهد الحـــرس

شهادة رجعت لو أنها قبلـــت ... لألحق الزور منها العير بالفرس

كما قال أيضا :

وبعد أن عزل القاضى العمرى أرسل العرب فى الفسطاط وفدا الى الخليفة الأمين فذكروا له ما فعل العمرى بأهل الحرس فكتب الأمين الى القاضى البكرى قاضى الفسطاط يأمره بألا يمنح أحدا من غير العرب حق اللحاق بالعرب ، وأن يرد أهل الحرس الى ما كانوا عليه من أنسابهم ، فأمر البكرى أهل الحرس باقامة البينة وجمع من شهد بأن أهل الحرس من القبط الذين أسلموا فردهم القاضى الى أصلهم ومزق سجلهم (١).

الا أنه بعد اسقاط العرب من الديوان وحرمانهم من العطاء فى عهد المعتصم خمدت روح العصبية وصار العرب كالموالى سواء بسواء . الا أن ذلك لا يعنى أن المسلمين من المصريين قد حرموا تماما من العطف والرعاية فيما قبل عهد المعتصم ، ذلك أنه فى خلافة المأمون أفسح قاضى الفسطاط لهيعة بن عيسى مجلسه لمسلمى المصريين وألان جانبه لهم وألحق طائفة منهم فى أعمال الدولة . فتولى كتابة القضاء سعيد بن تليد المصرى على الرغم من أن هذا المنصب كان ذا حساسية خاصة ، كما اتخذ شهودا جعلهم مقربين اليه منهم معاوية الأسوانى وسليمان بن برد وغيرهما (٢).

= ومن أعجب الاشياء أن عصابة ... من القبط فينا أصبحوا قد تعربوا
وقالوا أبانا حوتك وأبوهم ... من القبط علج حبله يتذبذب
وجاءوا بأجلاف من الحوف فادعوا ... بأنهم منهم سفاحا وأجلبوا

ذكره الكندى : الولاة والقضاة ص ٣٩٩ .

(١) يذكر الكندى أن العرب فى الفسطاط فرحوا لذلك وقال يحيى الخولانى :

اشكروا الله على احسانه ... فله الحمد كثيرا والرغب
رجع القبط الى أصلهم ... بعد خزى طوقوه وتعب
ودنانير رشوها قاضيا ... جائرا قد كان فينا يغتصب

(٢) الكندى : الولاة والقضاة ص ٤٢٣ .

كما استقر بالفسطاط منذ بداية تأسيسها عناصر الموالى من الفرس والترك فيذكر ابن عبد الحكم (١) أنه " قدم مع عمرو قوم من العجم يقال لهم الحمراء والفارسيون . أما الحمراء فقوم من الروم فيهم بنو ينه وبنو الأزرق وبنو روبيل ، والفارسيون قوم من الفرس . وكان حامل لوائهم ابن ينه فقالت الروم والفارسيون انهم العرب وانا لا نأمنهم ونخاف الغدر من قبلهم ، قالوا : ما الرأى ، قالوا : ننزل نحن فى طرف وأنتم فى طرف فان يكن منهم غدر كانوا بيننا .. فنزلت الروم الحمراء التى بالقنطرة ، ونزلت الفرس بناحية بنى وائل فمسجد الفارسيين هناك مشهور معروف " .

يتضح من هذه الرواية أنه كانت بالفسطاط حمراوين احداهما للفرس والأخرى للروم ، وربما زيدت خطة ثالثة بعد أن ازدحمتا بالنازحين . ويذكر المقريزى أن اسم الحمراء كان يطلق على المنطقة الواقعة بين الحصن وبين جبل يشكر حيث كانت موضعا لعدد من كنائس وديارات النصارى (٢) .

معنى هذا ، أنه كانت بالفسطاط منذ الفتح أقليات من الروم والفرس استقرت بها ، الا أنها لم تكن تؤثر على مجريات الحياة فى الفسطاط خلال عصر الولاة الأمويين بالصورة التى ظهرت فيما بعد . (*)

(*) ~~الجديد على الفسطاط~~ فقد اختط بها منذ بداية تأسيسها قوم من الفرس هم أبنا جند باذان عامل كسرى على اليمن قبل الاسلام ، وأسلموا ورغبوا فى الجهاد فقدموا مع عمرو بن العاص الى مصر ، كما كانت هناك خطط للروم استقروا بها منذ بداية تأسيس الفسطاط عرفت باسم الحمراوات الثلاث . ابن عبد الحكم : فتوح مصر ص ١١٦ ، المقريزى : الخطط : ج ١ ص ٢٩٨ ، ابن دقماق : الانتصار ج ٤ ص ٥ .

(١) ابن عبد الحكم : فتوح مصر ص ١١٦ ، ١٢٩

(٢) المقريزى : الخطط ج ٢ ص ٢٥

وقد كان لسياسة الأمويين فى الاعتماد على العرب والتعصب لهم وتفضيلهم على غيرهم من المسلمين أثرا كبيرا فى اثارة الموالى وانتهى الأمر بحدوث تلك الثورة التى أزالت سلطان العرب وبعثت النفوذ الفارسى الذى قام بدور كبير منذ قيام الدولة العباسية • حتى ولى الخليفة المعتصم حيث أخذ يظهر عنصر ثالث هو العنصر التركى •• وقد كانت السياسة التى أوحت باستخدام العنصر التركى فى الدولة العباسية ترجع الى أن العباسيين تخلوا فى أول الأمر عن العنصر العربى على اعتبار أنهم أنصار الأمويين وقربوا اليهم الفرس ، الا أنه ثبت لهم أن الموالى من الفرس كانوا حريصين على مصالحهم الخاصة والقومية •• فاستعان العباسيون فى أول الأمر بالترك الذين استقدموا من بلاد ما وراء النهر (١) الى أن بعث المعتصم فى طلب الاتراك من فرغانه واشروسنة واستكثر منهم (٢) • ودخل الكثير منهم فى الاسلام وخصهم المعتصم بالنفوذ وحرم العرب ما كان لهم من قيادة الجيوش وأسقط العطاء عنهم • وهكذا برز نفوذ الموالى فى حاضرة الخلافة وفى سائر الأمصار •• وعرفت الفسطاط عناصر الترك كما عرفت الفرس من قبل •• وقد تمتعوا بكثير من الميزات التى سلبت من العرب ، فاستأثروا بالمناصب العليا بل وتولوا امرة مصر فلم يكن أحمد بن طولون سوى ابن طولون ذلك الغلام الذى أرسله عامل بخارى الى الخليفة المأمون سنة ٢٠٠ هـ / ٨١٥ م •

ثم كان لاشتراك الموالى من الفرس والترك والسودانيين فى تأسيس الدولة الطولونية أثر كبير فيما حازوه من نفوذ ضخم فى هذه الدولة ، وفيما نعموا به من

---

(١) كان طولون أحد الغلمان التى أهداها عامل بخارى الى الخليفة المأمون سنة ٢٠٠ هـ / ٨١٥ م •

(٢) المسعودى : مروج الذهب جـ٤ ص ٩ •

توف ورخاء (١) . فقد أمسكوا بقيادة الجيش الطولونى فضلا عن توليهم الكثير من الاعمال الادارية ومهام القصر ورئاسة البلاط والقضاء . (٢)

ويذكر ابن الداية (٣) أن كثيرا منهم كانوا يعيشون فى قصور متشبهين بالأمراء الطولونيين ، من ذلك اتخاذهم حجابا يقفون على أبواب القصر ليثبتوا أسماء من يريد المثول بين يديهم .

ويحدثنا أبو المحاسن عن قائدين فى جيش هارون بن خمارويه وهما بدر وصافى أنه "كان دأبهم المنافسة فى حسن الزى وبسط اليد بالانفاق فى وجوه البر ، وبنى بدر الميضأة المعروفة على باب الجامع العتيق وكان صاحب صدقات" (٤)

وقد أسرف أمراء الدولة الطولونية فى منحهم الأعطيات والمرتبات الطائلة (٥)، بل كان رجال البلاط فى عهد أحمد بن طولون يخلعون الخلع على أنصارهم مقلدين فى ذلك الأمير . (٦)

وقد ظهرت فى عصر الطولونيين سنة ٢٢٦ هـ / ٨٤٠ م منذ تولى ابراهيم الماذرائى الخراج من قبل أحمد بن طولون أسرة الماذرائيين وانتشر نفوذها وهيبتها فاستقدم ابراهيم الماذرائى أفراد أسرته ليشاركوه نفوذه وسلطانه ، وارتفع قدرهم فى

---

(١) ابن الداية : كتاب المكافأة ص ١١
(٢) الكندى : الولاة والقضاة ص ٥١٦
(٣) ابن الداية : المكافأة ص ١١ وما بعدها
(٤) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٣ ص ١٠١
(٥) يذكر ابن الداية : المكافأة ص ٤٣ أن أحمد بن طمان القائد منح دفعة واحدة ثلاثين ألف دينار وكان له فى كل شهر ألف دينار .
(٦) ابن الداية : المكافأة ص ٤٣

عهد خمارويه حينما أصبح على بن أحمد الماذرائى كاتب الأمير ووزيره والمشرف على أمواله الخاصة • (١)

كما ظهرت أسرة أخرى ذات أصل فارسى هى أسرة بنو مهاجر وذلك حين تولى الحسين بن مهاجر أعمال البريد لدى أحمد بن طولون فأصبح من أقرب المقربين اليه •

استمر نفوذ الموالى فى العصر الاخشيدى وازدهرت أسر توارثت المناصب الكبيرة كولاية الخراج أو الكتابة أو رئاسة ديوان الانشاء كالمذرانيين الذين ازداد نفوذهم حتى أن ابن زولاق ألف كتابا خاصا عن هذه الأسرة ، فضلا عما ذكره فى كتابه سيرة محمد بن طغج الاخشيد •

ورغم ما كان يقوم به الاخشيد من مصادرة الكثير من أملاكهم وما كان يقوم به العامة من حرق دورهم ونهب ضياعهم ، الا أنهم كانوا يستعيدون قوتهم ومكانتهم ويحدثنا المقريزى (١) عن مكانة هذه الأسرة فيذكر أنه حين اعتقل محمد بن على الماذرائى حرص الاخشيد على أن ينزل فى قصر يليق بمكانته ، مما يبين مدى ما تمتعوا به مكانة ومنزلة •

---

(١) المقريزى : الخطط ج ١ ص ٢٣١

(٢) المقريزى : الخطط ج ٢ ص ١٥٦ يقول ان الاخشيد قد ذكر :
" نعم هذا الملك ! وأردت أن لا يحتقر بشىء لنا ولا يحتاج من يطلب حاجة الا وجدها ، فان فقد عندنا شيئا مما نريده استدعى به من داره فنسقط نحن من عينيه عند ذلك • "

أهل الذمــــة

لم يشر ابن عبدالحكم فى حديثه عن بدايــة استقرار العرب فى الفسطاط الى أعداد القبط الموجودين وقتذاك حول حصن بابليون أو الى ما كان موجودا منهم داخل الفسطاط ، رغم ذكره للكنائس المحيطة بحصن بابليون وكنائسهم داخل الفسطاط ذاتها .(١)

ويبدو أن أعداهم تزايدت باطراد الهجرة الى المدينة فى عهد مسلمة بن مخلد (٢) بدليل ما كان من السماح لهم ببناء الكنائس التى يؤمها جمهور كبير من المصلين . ولا بد أن الهجرة الى الفسطاط قد استمرت بعد هذا . ولا نستطيع بالضبط أن نحدد عدد الجالية القبطية فى المدينة تحديدا واضحا دقيقا .

ويمكننا أن نحدد أماكن اقامتهم بالمدينة استهداء بالكنائس التى أنشئت بها فقد كانت الكنائس تقام وسط تجمعاتهم وعلى هذا يمكننا أن نحدد المنطقة التى حول حصن بابليون ـ ظاهر الفسطاط ـ بأنها كانت احدى المناطق التى استقر بها القبط ، فقد بنيت بها عدة كنائس وهى الكنيسة المعلقة وكنيسة بربارة وكنيسة أبى سرجة وكنيسة السيدة مريم ، وكنيسة أبى جرج وكنيسة سيدروس ، وكنيسة تادرس (٣) .

كما أقام القبط فى داخل الفسطاط ذاتها ، فقد كانت لهم عدة كنائس فى خطة سويقة أبى شنودة مثل كنيسة أبى منقورة وكنيسة أبى شنوده ، كما أقام القبط فى

---

(١) ابن عبدالحكم : فتوح مصر ص ١٣٢

(٢) ابن عبدالحكم : فتوح مصر ص ١٥١ ، المقريزى : الخطط ج ١ ص ٧٦ ، السيوطى : حسن المحاضرة ج ١ ص ٦٣ .

(٣) ابن عبدالحكم : فتوح مصر ص ١٣٢ ، ابن دقماق : الانتصار ج ٤ ص ١٠٧ ـ ١٠٨ .

الحمراء وهى المنطقة الواقعة بين الحصن وبين جبل يشكر حيث أقام القبط لانفسهم عددا من الكنائس والديارات (١) . مثل كنيسة أبى منيا وكنيسة تعرف بنام القبطى بالحمراء القصوى .

ونستنتج مما أشار اليه ابن عبد الحكم من اقامة القبط لكنائسهم بين خطط القبائل العربية أن القبط لم تقتصر اقامتهم على ظاهر المدينة فقط بل انتشروا داخل الفسطاط بين خطط العرب ذاتها .

كما يشير أبو صالح الأرمنى الى بناء عدة كنائس فى الفسطاط فى خلافة هشام بن عبد الملك ، ويذكر أبو المحاسن (٢) أنه قد تم فى عهد الخليفة المأمون تجديد الكنيسة المعروفة بكنيسة الروم ، بالقرب من قبة الهواء .

وفى سنة ٣٢٦هـ / ٩٣٨م عمّر الاخشيد كنيسة أبى شنودة - داخل الفسطاط - حيث كانت آيلة للسقوط وذلك استجابة لطلب القبط المقيمين بالفسطاط .

كانت أعمال الصيرفة من أهم مازاوله القبط فى الفسطاط فكانوا يقومون بعمليات التسليف للتجار وقبول الحوالات والصكوك لقاء عمولة محدودة ، كما كانوا يقبلون الودائع ويعملون على تسهيل عمليات الائتمان (٣) .

---

(١) المقريزى : الخطط جـ ٢ ص ٢٠

(٢) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة جـ ٢ ص ١٤٤ ،

Wiet : Histoire de la Nation Egypte T. II p. 65.

(٣) ابن مسكويه : تجارب الامم جـ ٢ ص ٨٣

كما اشتغل القبط بصناعة النسيج (١) الذى اشتهروا به منذ القدم . وشاركوا فى الأعمال الادارية فى الفسطاط ، فقد كان بالمدينة كاتبان قبطيان واحد لادارة مصر العليا ، والاخر لادارة مصر السفلى وقد أشار ساويرس (٢) أسقف الاشمونين الى الكاتبين الارثوذكسيين أثناسيوس واسحق .

وقد ظفر أقباط الفسطاط بنفس التسامح الذى ظفر به الاقباط فى مصر عامة فقد سمح لهم ببناء الكنائس التى أشرنا اليها . وقد استمرت ظاهرة اقامة الكنائس حتى آخر القرن الرابع الهجرى ، بل حافظوا على شرائعهم الخاصة ، وان كان قد سمح لهم بالاحتكام الى القضاة المسلمين اذ يذكر الكندى أن قاضى الفسطاط كان يقوم بالفصل بين المتنازعين من القبط فيذكر الكندى أنه حين ولى القضاء خير بن نعيم ، ١٢٠ هـ / ٧٣٨ م كان يقضى فى المسجد بين المسلمين ثم يجلس على باب المسجد بعد العصر فيقضى بين النصارى ، ثم خصص القضاة يوما للقبط يحضرون فيه الى منازل القضاة ليحكموا بينهم حتى جاء القاضى محمد بن مسروق فولى القضاء عام ١٧٧ هـ / ٧٩٣ م " فكان أول من أدخل القبط فى المسجد ليحكم بينهم " (٣) . الا أنه كان لأهل الذمة أن يلجأوا الى محاكمهم الكنسية حيث كان رؤساء المحاكم الروحيون يقومون فيها مقام كبار القضاة ، ولم تقتصر أحكامهم على مسائل الزواج بل كانت تشمل الى جانب ذلك مسائل الميراث . ولم يكن لجوء الذمى الى المحاكم الاسلامية يلقى قبولا لدى الكنيسة (٤) ، ولذلك ألف الجاثليق تيموثيوس حوالى عام ٢٠٠ هـ / ٨١٥ م كتابا فى الأحكام القضائية المسيحية " لكى يقطع كل عذر يتعلل به النصارى

---

(١) الأزرقى : أخبار مكة جـ ١ ص ١٣٧ ، ١٦٨
(٢) ساويرس : سير الآباء البطاركة جـ ١ ص ١٠٨ طبعة جرجس نورلن
(٣) الكندى : الولاة والقضاة ص ٣٥١ ، ٣٩٠
(٤) متز : الحضارة الاسلامية جـ ٢ ص ٧٢ ـ ٧٣ .

الذين يلجأون الى المحاكم غير النصرانية بدعوى نقصان القوانين المسيحية " .

وقد أجاز بعض الفقهاء لجوء أهل الذمة للقضاء لدى محاكمهم الخاصة " وان كان العرف به جاريا فهو تقليد زعامة ورياسة وليس بتقليد حكم وقضاء وانما يلزمهم حكمه لالتزامهم له ، واذا امتنعوا عن التحاكم اليه لم يجبروا على ذلك فاذا رجعوا الى قاضى الاسلام فانه يقضى بينهم بحكم الاسلام لانه يكون عليهم أنفذ ولهم ألزم (١) .
ويذكر الكندى (٢) أنه " كان يسمع كلام القبط بلغتهم ويخاطبهم بها وكذلك شهادة الشهود (٣) ويبين " متز " أن العقوبات التى وضعها البطارقة كان أغلبها عقوبات كنسية منها التوبيخ أمام الناس ، والقيام على المسح والرماد أمام البيعة ، ودفع كفارة مالية للبيعة ، والمنع من حضورها ، ومن التمتع برسوم المباركة الدينية عند الموت ومن الدفن على الطريقة النصرانية . ومن أمثلة العقوبة أن النصرانى الذى يضرب آخر يمنع من البيعة ومن رسوم المباركة من القسيس شهرين ، ويقف كل يوم أحد على المسح والرماد وعليه أن يتصدق على الفقراء بحسب قدرته .

الا أن شهادة الذمى لم تكن تقبل أمام القضاء اذا كانت ضد مسلم أما اذا كانت شهادة ذمى على ذمى فكان يؤخذ بها ، فكان القاضى محمد بن مسروق الذى ولى قضاء الفسطاط سنة ١٧٧ هـ / ٧٩٣ م يقبل شهادة القبط واليهود بعضهم على بعض ويسأل عن عدالتهم فى أهل دينهم ، كما يذكر الكندى فى عهد لقاض بولاية القضاء أن يقبل شهادة بعض أهل الملل على بعض (٤) . وكذلك كانت المحاكم الكنسية تقبل شهادة المسلم على القبطى على كره منها على أنها كانت تحتم أن يكون الشاهد تقيا ورعا غير مطعون فى ذمته . (٥)

---

(١) الماوردى : الاحكام السلطانية ص ١٠٨ ، ١٠٩ .
(٢) الكندى : الولاة والقضاه ص ٣٤٩
(٣) متز : الحضارة الاسلامية جـ ٢ ص ٧٣ ــ ٧٤ .
(٤) الكندى : الولاة والقضاة ص ٣٥١
(٥) متز : الحضارة الاسلامية جـ ٢ ص ٧٤

كما تولى القبط الكثير من المناصب العامة منذ بداية انشاء الفسطاط • فكان في الفسطاط كاتبان قبطيان لادارة مصر العليا ، ومصر السفلى يخضعان للوالي مباشرة • ذلك لأن التشريع الاسلامي لم يكن يحول بين الذميين وبين القيام بأى عمل من الأعمال • ولما كان القبط قد برعوا في كثير من الصناعات والحرف وأعمال الصيرفة وغيرها ، استعان بهم العرب ولم يجدوا بأسا من الحاقهم بأى من تلك الأعمال (١) بل لقد أدخل القبط الكثير من الاحاديث التي تبين بجلاء حرصهم على الاستئثار بالمراكز الهامة وأكبر عدد ممكن من الاعمال ففي حديث ذكروه أن القبط " أعوانكم على عدوكم وأعوانكم على دينكم قالوا : كيف يكونون أعوانا على ديننا يارسول الله ؟ قال : يكفونكم أعمال الدنيا وتتفرغون للعبادة • " ومن المعروف أن الاسلام يحث على العمل ويكره التفرغ للعبادة فلا رهبنة في الاسلام •• وهكذا رسم القبط لأنفسهم سياسة هدفها شغل المناصب واستمرار قيامهم ومزاولتهم للأعمال التي كانوا يمارسونها قبل الاسلام وساعدهم على ذلك وما وجدوه من تسامح المسلمين في أكثر الأحوال •

ويبين ساويرس (٢) أن القبط شغلوا الكثير من الوظائف المالية فيورد أسماء كثير من الموظفين الأقباط • ومن المعروف أن الدواوين ظلت حتى زمن عبدالملك تدون باليونانية والقبطية ويذكر المقريزي ان " عادة الحكومة جرت على استعمال النصارى الذين قلما خلا منهم ديوان من دواوين الحكومة " (٣) •

ومن أمثلة ذلك " أثناسيوس " الذى شغل بعض المناصب الادارية ثم عينه عبدالملك بن مروان — رئيسا لدواوين الاسكندرية وكان يخاطب في المكاتبات الرسمية

---

(١) لاحظ ذلك آدم متز فعلق قائلا : " ومن الأمور التي نعجب لها كثرة عدد العمال والمتصرفين غير المسلمين في الدولة الاسلامية ، فكان النصارى هم الذين يحكمون المسلمين في بلاد الاسلام • " الحضارة الاسلامية ج ١ ص ٨٣ •

(٢) ساويرس : سير الآباء البطاركة ج ١ ص ١٥٨ طبعة جرجيشنورلسن

(٣) المقريزي : الخطط ج ١ ص ٩٨

باسم " الكاتب الافخم " وكان بديوانه عشرون كاتبا كما يذكر المقريزى أن أثناسيوس هذا الذى يطلق عليه اسم انتناش قد تولى ديوان الخراج فى عهد عبد العزيز بن مروان (١)

ويمكننا أن نستدل من أمر المتوكل بعدم الاستعانة بالذميين فى أعمال الدولة (٢) وفصله للقائم بحراسة مقياس النيل سنة ٢٤٧ هـ / ٨٦١ م وكان نصرانيا . على أن القبط شغلوا كثيرا من المناصب فى الفسطاط حتى عهد الاخشيديين فقد كان الكاتب القبطى ابن عيسى بقطر بن سفا المسمى بولس متولى الخراج فى عهد الاخشيديين (٣) .

كما لاحظ ذلك المقدسى فذكر أن " الكتاب فى بلاد الشام ومصر كانوا من المسيحيين ." (٤)

وقد ذكر المقريزى عند وصفه لطريقة جمع الضرائب فى حالة نقص الفيضان مانصه " ندب من الحضرة رجال ذو نباهة وثقة لهم معرفة بعلم الخراج ويصحبون معهم فى العادة كاتبا من النصارى ويخرج كل الى ناحية ، فيحررون مساحة ما شمله الرى من الاراضى مما بار أو شرق ، فاذا مضى من السنة القبطية أربعة شهور ، ندب من الأجناد من عرف بالحماسه وقوة البطشة وعين معه من الكتاب العدول من قد اشتهر بالامانة وكاتب من نصارى القبط غير من خرج عند المساحة فيستخرج مباشرو كل بلد ثلث ما وجب من مال الخراج " (٥) .

وهكذا كان يستعان بكتاب من القبط من أهل الفسطاط فى القيام بعملية مسح الاراضى وتقدير الضرائب الواجبة .

---

(١) المقريزى : الخطط جـ ١ ص ٩٨
(٢) المصدر السابق جـ ٢ ص ٤٩٤
(٣) المصدر نفسه جـ ١ ص ٧٣
(٤) المقدسى : أحسن التقاسيم ص ١٨٣
(٥) المقريزى : الخطط جـ ١ ص ٨٦

بل كان القبط يتولون تقبل الأراضى أى ضمان خراجها فى كثير من الأحيان ٠ كما اشتغل اليهود بالتجارة والصناعة والطب ويذكر السيوطى (١) أن امرأة كافور تقدمت الى الخليفة المعز لدين الله وذكرت أنها أودعت عند صائغ يهودى قباء من لؤلؤ منسوج بالذهب " مما يبين اشتغال اليهود بتجارة الجواهر ليكونوا قريبين من الحكام والأمراء ٠

كما كان القبط كذلك يقومون بعمليات تسليف التجار وقبول الحوالات والصكوك لقاء عمولة محددة ، كما كانوا يقبلون الودائع ويعملون على تسهيل عمليات الائتمان (٢) ٠

---

(١) السيوطى : حسن المحاضرة ج ٢ ص ١٣

(٢) ساويرس : سير الآباء البطاركة ج ١ ص ١٠٨ وما بعدها ٠

اختلاط العرب بالقبـــط :

وكان من أثر التجاور بين القبط والعرب أن أخذ الاختلاط بينهما يـــزداد تدريجيا ، هذا بالاضافة الى الاحتكاك المستمر بين القبط والعرب نظرا لقيام القبـــط بعدة أعمال هامة فى الفسطاط كالصيرفه وعمليات تسليف التجار وقبول الحوالات والصكوك من التجار العرب ، وقيامهم بالصناعات المختلفـة كصناعة النسيج .

وكان لاسقاط العطاء عن العرب منذ عهد الخليفة المعتصم أثر كبير فـــى ازدياد اختلاط القبط بالعرب .. الذين كانوا يشكلون قبل ذلك الوقت ارستقراطيـــة عسكريـة تأنف من الانخراط فى الاعمال المدنيـة والتجاريـة فأصبحوا يشاركون القبـــط كافة الأعمال فى المدينة .. وقد نتج عن هذا الاختلاط انتشار الاسلام بين كثير مـــن القبط وتبع ذلك انتشار اللغة العربيـة بينهم (١) . الا أنه رغم أن الدواوين قـــد عربت رسميا (٢) سنة ٨٧ هـ / ٧٠٥ — ٧٠٦ م فان وثائق البردى تدل علـــى أن الحكومة كانت تستخدم اللغة العربيـة واليونانيـة حتى القرن الثانى الهجرى .

أما عن القيود التى فرضت على أهل الذمة ، فان ابن عبدالحكم عند حديثـه عن الصلح الذى عقده عمرو بن العاص مع القبط لم يذكر شيئا عن لباسهم وزيهم الا أنـه ذكر أن عمر كتب الى عمرو : " أن يختم على رقاب أهل الذمة بالرصاص وأن يظهـــروا مناطقهم ويجزوا نواصيهم ويركبوا على الاكف عرضا ولا يضربوا الجزيه الا على من جرت عليهم

---

(١) يذكر ساويرس : سير الآباء البطاركة جـ ١ ص ١٦٤ أنه " كان بمصـــر صبى مسلم أسمه رجا فحشد جماعته وأخذ المملكة وكان حفص الوالى الأول مساعـــدا له فأمر حفص أن يصلى كل من بمصر ونواحيها بصلواة السنة وكل من تنجلى عن دينـــه ويصير مسلما يخلا له الخراج الذى هو الجزيه لانها كانت على الناس كلهم ولأجل هـــذه الخصلة أضل الشيطان خلايق فخلوا دينهم ومنهم من اكتتب وصار من العسكرية وان الأب أنبا سيس أسقف أوسيم .. اذا قوم ارثدكسين من أراخنة مصر حضروا عنه وهم حزانـــا وقالوا له يا أبانا صلى علينا واجتهد فقد أحصينا من انتقل الى الاسلام من اخوتنا بـــنى العمودية من مصر وأعمالها فكانوا أربعين وعشرين الف انسان ".

(٢) أوراق البردى العربية جـ ١ وثيقة رقم ٤٨ ،

C.H. Becker : Ency. of Islam vol. I p. 2,7.

الموأس ولا يضربوا على النساء ولا على الولدان ولا يدعوهم يتشبهون بالمسلمين في لبوسهم ." .

ومن المرجح أن هذا النص الذى ينسب الى عمر وتلك القيود التى فرضها على أهل الذمة ترجع الى فترة متأخرة .

فان ابن عبد الحكم (١) وغيره من مؤرخي مصر الاسلامية لم يذكروا شيئا عن مدى تطبيق هذه الشروط . ونستطيع أن نستنتج من السماح للقبط ببناء الكنائس في

ويذكر الكندى : الولاة والقضاه ص ٥٨ "حتى اذا كانت ولاية عبد الله بن عبد الملك بن مروان فأمر بالدواوين فنسخت بالعربية وكانت قبل ذلك تكتب بالقبطية وصرف عبد الله أشناس عن الدواوين وجعل عليها ابن يربوع الفزارى من أهل حمص وذلك فى سنة سبع وثمانين هجرية " . كما حفظت لنا أوراق من البردى يرجع تاريخها الى عهد الوليد بن عبد الملك كتبت باليونانية والعربية وهى وثائق صدرت من الوالى نفسه كما نجد بعض الوثائق المحفوظة بدار الكتب المصرية قد كتبت باللغة اليونانية فقط ولا نجد بينها وثائق كتبت بالعربية والقبطية فقط مما يدل على أن لغة الدواوين فى مصر كانت باليونانية وليست القبطية كما ظن مؤرخو العرب ربما لأن بعض موظفى الدواوين كان من القبط فظن المؤرخون أن اللغة القبطية كانت اللغة الرسمية

Quatremere : Recherches sur la langue et la literature d'Egypte . p. 15

Butler : The ancient Coptic churches of Egypt vol. 2. p. 251.

كما يذكر المقريزى عن المأمون حين قدم الى مصر أنه "كان لا يمشى الا والتراجمة بين يديه من كل جنس . " الخطط ج ١ ص ٨١ .

(١) ابن عبد الحكم : فتوح مصر طبعة توري ص ١٥١ ، المقريزى : الخطط ج ١ ص ٧٦ ، السيوطى : حسن المحاضرة ج ١ ص ٦٣ ويذكر آدم متز أن مسألة ختم رقاب أهل الذمة عادة قديمة ترجع الى عصر الاشوريين الذين كانوا يعلقون في رقاب العبيد قطعة من الفخار أسطوانية مكتوب عليها اسم العبد واسم سيده وكان اليهود فى عهد التلمود يعلمون عبيدهم بالختم على الرقبة أو الثوب . وفى سنة ٥٠٠ م كان حاكم مدينة الرها يعلق الى رقبة الفقراء الذين يأخذون رطل خبز كل يوم قطعة من الرصاص مختومة . متز : الحضارة الاسلامية ج ٢ ص ٧٧ ، ١٠١ . تريتون : أهل الذمة ص ١٢٦ في وقت جباية الجزية ، فتوح البلدان ص ١٥١ وليس هناك ما يثبت دوام

يذكر البلاذرى أنه عمر أمر بختم رقاب أهل الذمة وقت جباية الجزية

الفسطاط منذ عهد مسلمة بن مخلد أن الخلفاء الأوائل لم يلزموا أهل الذمة بتنفيذ أى قيود ... بل ان تكرر الأوامر بالزام القبط بلبس زى معين يعنى بكل وضوح أنهم لم يلتزموا بتلك التعليمات ، وان نفذوها فلفترة قصيرة ثم لم يلبثوا أن يتركوها من جديد. الى أن أمر المتوكل على الله العباسى (١) ٢٣٥ هـ / ٨٤٩ م بأخذ أهل الذمة بلبس الطيالة العسليه والزنانير وركوب السروج بركب الخشب وأن تعلو رؤوسهم القلانس المختلفة الألوان ، الا أنها تختلف عن قلانس المسلمين بأن عليها زرين وأن تخيط الرقاع على ظهورهم أربع أصابع ذات لون عسلى وأن تكون أزر نسائهم عسلية وعلى ملبس ماليكهم رقعتين بخلاف لون الثوب الظاهر وأن تكون احدى الرقعتين بين يديه عند صدره والأخرى خلف ظهره ، وأن تكون كل واحدة من الرقعتين قدر أربعة أصابع وذات لون عسلى ، كما أمرهم بلبس الزنانير وأن يمنعوا من لبس المنطق (٢).
وقد كان اللون العسلى هذا لونا مميزا لهم عن المسلمين ومدعاة للتندر بهم .

= بقائها ويذكر أبو يوسف : الخراج ص ٧٢ أنه " ينبغى أن يختم رقابهم فى وقت جباية جزية رؤوسهم حتى يفرغ من عرضهم ثم تكسر الخواتيم كما فعل عثمان بن حنيف حينما سألوه كسرها وهذا يدل على أن ختم الرقاب لم يكن يتم الا عند جباية الجزية فقط .

(١) الطبرى : تاريخ الأمم والملوك جـ ٣ ص ١٣٨٩ ، المقريزى : الخطط جـ ٢ ص ٤٩٤ ، الجاحظ : البيان والتبيين جـ ١ ص ٤١ .

(٢) يشير س. ترتون : أهل الذمة فى الاسلام ص ٢٤ الى أنه لم ترد كلمة " الزنار " عند ابن عبد الحكم ولا فى كتابات أبى يوسف فى حديثه عن عهد عمر بن عبد العزيز وانما يستعملان بدلها لفظ المنطق ، ونجد أن أبا يوسف يستعمل كلمة الزنار فى وصفه لتشريعات عمر بن الخطاب وان لم يقتبس نفس عبارات عمر بن عبد العزيز بل اصطنع ألفاظا من عنده فيذكر أبا يوسف أن عمر بن عبد العزيز كتب الى عامل له : فلا يلبس نصرانى قباء ولا ثوب خز وقد ذكر لى أن كثيرا من قبلك من النصارى قد راجعوا لبس العمام وتركوه

ويبدو أن هذه الأوامر — على فرض أنها كانت تنفذ بحذافيرها ، لم تكن لتستمر الا لفترات قصيرة ، كما أن المؤرخين الذين أشاروا الى هذه القيود ، لم يذكروا شيئا عن مدى تطبيقها (١) .

أما عن مساكن القبط بالفسطاط فيمكننا أن نستنتج من روايات ابن عبد الحكم (٢) أنهم أقاموا داخل الفسطاط نفسها بين خطط العرب فضلا عن اقامتهم في ظاهر الفسطاط . كما أشرنا من قبل فانتشرت دور القبط بين دور المسلمين ولم يكن هناك ما يميزها عن دور العرب .

ولعل اشارة ساويرس (٣) بن المقفع لما حدث أثناء القتال بين بني أمية والجند العباسيين حيث نادى العباسيون بأن " من كان نصرانيا فليعمل الصليب على جبهته وثوبه وعلى باب بيته توضح بلا شك أن مساكن القبط اختلطت بمساكن العرب ، بحيث لم يكن في المستطاع التمييز بينهما ، الا بهذه الطريقة التي رآها العباسيون وهي وضع الصليب على دور القبط .

وان كنا لا نعلم الى أي مدى نفذ القبط هذه التعليمات ذلك أنه في سنة ٢٣٥ هـ / ٨٤٩ م أمر الخليفة المتوكل على الله العباسي بأن تجعل على أبواب دورهم أساطين وقيل شياطين من خشب تفريقا بين منازلهم ومنازل المسلمين . مما يوحي بأن القبط لم يلتزموا بتنفيذ تلك الأوامر لوقت طويل .. ذلك على افتراض أنهم نفذوها أصلا .

---

(١) أبو يوسف : كتاب الخراج ص ٧٢ ، ابن عبد الحكم : فتوح مصر ص ١٥١ .

(٢) ابن عبد الحكم : فتوح مصر وأخبارها ص ١٣٢

(٣) ساويرس بن المقفع : سير الآباء البطاركة ص ١٩٥ .

اليهـــود :

بالاضافة الى القبط يذكر ابن عبد الحكم (١) أسماء عدة معابد لليهود ممـا يعنى استقرار بعضهم فى الفسطاط منذ الفتح وان كنا لا نستطيع أن نقدر عددهـم تماما . فهو يذكر بين أزقة الفسطاط زقاق اليهود وكنيسة لهم بزقاق من أزقـة درب الكرمة ، وكنيسة لليهود العراقيين وكنيسة لليهود الشاميين بحصن بابليون . مما يعنى استقرارهم فى الفسطاط ذاتها وكذلك فى ظاهرها عند حصن بابليون . كما تعنى اشارة ابن عبد الحكم لزقاق لليهود باسمهم فى الفسطاط أنهم اتخذوا لانفسهم مساكـن متقاربـة فى زقاق عرف باسمهم .

ويذكر متز (٢) أن اليهود برعوا فى القرنين الثالث والرابع الهجريين فـى الاتجار بالعملة فى الفسطاط ، وأنهم كانوا على قسط كبير من الثراء ، وأنهم اشتغلـوا بالصيرفة فى أسواقها .

كما كان لليهود فى الفسطاط فى عهد الطولونيين نشاط تجارى كبير وقـد تحدث عنهم كل من المقريزى وأبو المحاسن وغيرهما من المؤرخين المصريين حين باعهم البطرك ميخائيل الثالث احدى الكنائس وبعض الأراضى الموقوفه ليجمع جزءا مـن الغرامة التى ألزم بدفعها الى خزانة أحمد بن طولون .

وقد تمتع اليهود كما تمتع القبط بتسامح دينى من قبل العرب ... اذ أن العرب لم يميزوا بين القبط واليهود سواء فى شروط الصلح أو فى السماح ببناء كنائس أو معابد

---

(١) ابن عبد الحكم : فتوح مصر ص ١٣٣ وما بعدها ، ابن دقماق : الانتصار ج ٤ ص ١٠٧ — ١٠٨ ، ابن فضل الله العمرى : مسالك الابصار ج ١ ص ٣٦١ — ٣٧٣ .

(٢) آدم متز : الحضارة الاسلامية ج ٢ ص ٣٧٧ .

لهما فى الفسطاط .. كما أن أوامر الخلفاء والولاة كانت توجه الى الفريقين دون تفرقة .

ولا نجد اشارة الى زى معين التزم به اليهود مما يجعلنا نرجح أنهم لم يختلفوا عن القبط فى ذلك اللهم فى مسألة وضع الصليب على الملابس ..

تلك اذن هى عناصر السكان بمدينة الفسطاط فما هى المقومات الاجتماعية الخاصة التى تفردت بها العناصر ؟

أعتقد أن هذه المقومات هى : الزواج - الملابس - المطاعم ، والمشارب - الجنائز .

الحيـاة الاجتماعيـة الخاصـة

الـــزواج

أشار ابن عبد الحكم الى أن معاوية جعل على كل قبيلة من قبائل العرب فى الأمصار كالفسطاط رجلا " فكان على قبيلة المعافر فى مصر مثلا رجلا يقال له الحسن : يصبح كل يوم فيدور على مجالس القبيلة حيث يجتمع رجالها فيقول : هل ولد الليلة فيكم مولودا ، وهل نزل بكم نازل ؟ فيقال : ولد لفلان غلام ولفلان جارية فيقول سموهم فيكتب " ... فاذا فرغ من القبائل كلها أتى الديوان حيث يسجل الأسماء (١).

نستنتج من ذلك أنه اذا كانت أسماء المواليد تسجل فى الديوان فلا بد أن عقود الزواج كانت تسجل كذلك فى هذه الفترة المبكرة فى القرنين الاول والثانى الهجريين .

وقد تحدث الكندى عن صداق المرأة فذكر أنه كان يعتبر دينا ممتازا بمعنى أنه كان يجب أن يستوفى كاملا ثم تقسم التركة على الدائنين بنسب ديونهم (٢).

---

(١) ابن عبد الحكم : فتوح مصر ص ١٠٢

(٢) الكنـدى : الولاة والقضاة ص ٣٤٥ يذكر " كان توبة يقضى فى الرجل يفلس لصداق امرأته كاملا فما بقى من ماله كان الغرماء اسوة قال : اسحق قلت للمفضل المرأة المدخول بها أو غير المدخول . قالا : لا بل المدخول بها . "وان كان فى موضع آخر ينفى ذلك بقوله : " وعن خير أنه قضى فى رجل هلك ولم يوصى وعنده بضاعة لرجل وقبله شرك لرجل فى متاع وعنده وديعة ليتيم وعليه صداق لامرأته فقضى خير أنه ما كان قبله من شرك أو بضاعة فانها ترد الى أصحابها وأن صداق امرأته والوديعة اذا لم توجد اسوة الغرماء " ص ٣٤٩ أى ان الأمر كان يختلف باختلاف القضاه فهو هنا ينص على أن يستوفى ما للشريك وما فى ذمة المتوفى من بضاعة ثم يقسم الباقى لكل من وديعه المتوفى وصداق المرأة قسمة الغرماء أى كل بنسبة استحقاقه .

كما يذكر أيضا أن هشام بن عبدالملك كتب الى خير بن نعيم الذى تولى القضاء من قبل حنظلة بن صفوان الكلبى سنه ١٢٠ هـ / ٧٣٧ م أن " أى امرأة أرادت قبض صداقها المؤخر على زواجها لن تعطاه الا على شرط مسمى ." (١)

وكان القاضى يحكم للزوجة بالطلاق اذا هى خاصمت زوجها فى النفقة عليها . وقال : " لا أجد ما أنفق " (٢) أى فى حالة أن يكون الزوج معدما ، ويشهد جيرانه بذلك . مما يوضح أن الطلاق كان يتم أمام القاضى وذلك يخالف ما تذكره ا . ل . تبشر من أن ظاهرة الطلاق انتشرت بين القبط كعدوى انتقلت اليهم من المسلمين ، حتى أن بعض الاقباط رأوا أن يضعوا قاعدة يحق لهم بها أن يوقعوا الطلاق بزوجاتهم متى شاءوا فثار الاساقفة ضد هذه الفئة التى رفعت الامر الى عبدالعزيز بن مروان والى مصر الذى استدعى أساقفة مصر بمختلف مذاهبهم وطلب منهم تشكيل مجمع دينى للنظر فى الامر واصدار حكم نهائى ، واحتشد فى هذا المجمع أربعة وستون أسقفا أكثرهم من الاقباط وكان يضم ممثلين للكنيسة الملكية الخلقدونية فى الفسطاط وأخذوا يتناقشون فى الامر . (٣)

ولعل المقدسى يبالغ فى وصفه لنساء مصر بأنهن " لا يتورعن عن الفجور " (٤) وأن للمرأة زوجان . الا أن المقريزى يذكر أن العرب قد لاحظوا تلك الحرية الكبيرة

---

(١) الكندى : الولاة والقضاة ص ٣٤٨ ـ ٣٤٩ حيث يذكر أن " رجلا تزوج امرأة وشرط فى طلاقها فى شىء ان فعلته واستفتى خيرا القاضى وقتذاك فقال له : أراض أنت بهذا الشرط فقال : نعم . فقال له خيرا انظر فان الشرط لازم لك هو من الطلاق . "

(٢) الكندى : الولاة والقضاة ص ٣٥١ .

(٣) ا . ل . تبشر : تاريخ الامة القبطية ص ١٦٨ ، ١٦٩

(٤) المقدسى : أحسن التقاسيم ص ٢٠٠

التى تركها رجال القبط لنسائهم حتى أن الرجل كان " لا يبيع ولا يشترى الا قال : " استأمر زوجتى " (١) .

ويتضح من عقود الزواج التى ترجع الى نهاية القرن الثالث وبداية القرن الرابع الهجرى والتى تضمنتها الوثائق البردية (٢) أن عقد الزواج كان يسجل فيه اسم الزوج والزوجة كاملين وأسماء الشهود ومقدار الصداق المعجل منه والمؤخر الى جانب ذلك كانت تشمل توصيات بحسن الصحبة والأمر بامساك بمعروف أو تسريح باحسان . والطريف أن العقد كان يحوى اشتراطا من جانب الزوجة بأن يكون لها حق طلاق أى امرأة يتزوجها الزوج بعدها وبيع أى جارية يتخذها بعد زواجها . مما يوضح أن المرأة كانت فى هذه الفترة — نهاية القرن الثالث وبداية القرن الرابع — تتمتع بتقدير واحترام فى مجتمعها الى جانب ما يوحى به شرطها من بيع أى جارية يتخذها الزوج بعد زواجها .. من قوة مركزها داخل الأسرة من ناحية ومن رغبة المجتمع ومحاولته الحد من شراء الجوارى والرقيق من ناحية أخرى .

أما عن حفلات الزواج ، فانه اذا كان المؤرخون قد أغفلوا الحديث عنها خلال القرن الاول والثانى ، فان ذلك مرجعه الى بساطة هذين العصرين اذ لم يكن لولاة الفسطاط فى ذلك الوقت من مظاهر الأبهة وعلامات الامارة ما كان لخلفائهم خلال القرنين الثالث والرابع . كما أن المؤرخين لم يهتموا بوصف الحفلات الخاصة بطبقة

---

(١) المقريزى : الخطط ج ١ ص ٣٩

(٢) يتضح ذلك من عقد الزواج رقم ١٥٩ المؤرخ بسنة ٢٥٩ هـ ، وكذلك العقد رقم ١٢١ المؤرخ بسنة ٢٧٩ هـ وقد جاء فيه " وشرط اسحق ابن سرى شروطا أوجبها على نفسه بعد أن عقد عقدة نكاحها ... أو ذمية فأمرها بيد امرأته .. تطلقها عليه ما شاءت ... وكل جارية يتخذها عليها .. يكون بيعها بيد امرأته .. ولا يمنعها من أهلها .. ولا يمنع أهلها منها . " العقد الاول رقم ١٥٩ بمجموعة جروهمان أوراق البردى العربية ج ١ ص ٧٣ ، العقد الثانى رقم ١٢١ بمجموعة جروهمان أوراق البردى العربية ج ١ ص ٨٨ — ٨٩ .

العامة واقتصر حديثهم على وصف حفلات الأمراء . فقد أسهبوا فى وصف بذخ الطولونيين فى الاحتفال بزواجهم (١) ، فقد استطاع خمارويه بما هيأه له بيت المال أن يبذل الأموال الضخمة عند زواج ابنته أسماء المعروفة بقطر الندى الى الخليفة العباسى المعتضد فيذكر ابن دقماق (٢) أنه " حمل معها مالم ير مثله ولا سمع به الا فى وقته " . ويذكر المقريزى (٣) أنه " لم يبق خطيرة ولا طرفة من كل لون وجنس الا حمله معها . " فحن هذا الجهاز " دكة من أربع قطع من الذهب عليها قبة من ذهب مشبك فى كل عين من التشبيك قرط معلق فيه حبة من الجوهر لا يعرف لها قيمة ، ومائة هون من الذهب لدق الطيب ، وألف ثمن الواحدة منها عشرة دنانير . " وقد أمر خمارويه أن يبنى لابنته على رأس كل مرحلة قصر أو مكان للراحة تنزل فيه فى طريقها الى بغداد . وقد بلغ مقدار صداقها مليون درهم (٤) . وان كان هذا ليس بالكثير بجانب ما أنفق فى تجهيزها حتى أن جائزة من قام باعداد جهاز كانت أربعمائة ألف دينار . (٥)

وقد أقيمت فى قصر خمارويه الحفلات والمآدب بمناسبة هذا الزواج " واجتمعت النساء فى أحسن ملابسهن العربية وأجمل حليهن وارتدت قطر الندى ثوبا من الحرير الأبيض ووضع على رأسها اكليل من الذهب ، وطرحة موشحة بالجواهر ، وعلى أذنيها قرط ثقيل الوزن على شكل حلقة من الذهب ، وفى أصابعها الخواتم ، وفى معصمها سوار من الذهب المرصع بالجواهر ، وزين وجهها بالأصباغ المختلفة ، ومد السماط وزين بالأزهار ، وجلست العروس فى صدره وعن يمينها والدتها وجدتها عن يسارها ، ووضع فى طرفى السماط قطعتان كبيرتان من الحلوى وعليه صحاف

---

(١) ابن دقماق : الانتصار ج ٤ ص ٦٧ (٢) المصدر نفسه
(٣) المقريزى : الخطط ج ١ ص ٣١٩
(٤) ابن خلكان : وفيات الأعيان ج ١ ص ١٧٤
(٥) ابن دقماق : الانتصار ج ٤ ص ٦٧

ملأى بمختلف أنواع الطعام ثم خرجت العروس من قصر أبيها فى موكب ، واشـــترك الأهالى فى توديعها ؛ وقد تقدم خارويه الموكب ممتطيا فرسه يحف به حرسه المختـــار يلبسون الأقبيـة ويتقلدون السيوف المحلاة بالذهب ؛ ويتبع الموكب جيش من المصريين والأتراك يحملون الدروع والسهام ومن السودانيين الذين كانوا يرتدون الأرديـــة والعمائم السود ". (١)

---

(١) ابن دقماق : الانتصار جـ ٤ ص ٦٧ وما بعدها ،
ابن خلكان : وفيات الأعيان جـ ١ ص ١٧٤
المقريزى : الخطط جـ ١ ص ٣١٩

الملابـــــس

من المعروف أن ملابس الناس تختلف بحسب طبقاتهم الاجتماعية الا أنه قد غلب على الأزياء فى الفسطاط تلك الملابس المصنوعة من الكتان ذات اللون الأبيض ، حتى يقال ان الأقمشة المصرية كانت "كالغشاء على البيض " (١) بينما كان يغلب اللون الأحمر على ملابس أهل برقة المقيمين بالفسطاط الذين استوحوا هذا اللون من حمرة الصحراء فى بلادهم (٢) .

وكانت النساء تفضل لبس الثياب الزاهية الالوان المصبوغة بالطيب والزعفران فى حين كان يفضل الرجال لبس الثياب المصنوعة من الكتان الناعم النقى اللون مثل الدبيقى (٣) .

وكان يأتى الى الفسطاط من تنيس أنواع رقيقة من الثياب "مهلهلة النسيج كأنها المنخل وهى المسماة بالقصب ." (٤) وكان هذا القصب يلون فى تنيس وهو على درجة كبيرة من الدقة وكان يستخدم فى عمل العمائم للرجال وملابس النساء . كما كان هناك نوع آخر أبيض اللون يأتى الى الفسطاط من دمياط .

وكان الشيوخ ورجال الفقه فى الفسطاط يلبسون القلانس الطوال ويبالغون

---

(١) متز : الحضارة الاسلامية ج ٢ ص ٢٥٨

(٢) ابن حوقل : المسالك والممالك ص ٤٣ ،
المطهر المقدسى : البدء والتاريخ ج ٤ ص ٧٢ ،
البكرى : جغرافية البكرى ص ٥

(٣) متز : الحضارة الاسلامية ج ٢ ص ٢٥٩ ،

(٤) ياقوت الحموى : معجم البلدان ج ١ ص ٨٩٠ .

فى طولها حتى أن القضاة فى بعض الأحيان كانوا يبدون استياءهم من منظرها فيمنعونهم من ارتدائها (١) أثناء حضور مجالسهم . ويبدو أن هؤلاء الشيوخ والفقهاء قد حذوا حذو الولاة فى لبسها فيذكر الكندى (٢) : "كان الذى أخذ أهل مصر بلبس القلانس الطوال فى الدخول بها على السلطان يوم الاثنين والخميس .. أخذ بذلك الفقهاء والاشراف وأهل البيوتات" وتدريجيا أخذ الشيوخ يتخلون عن ارتدائها (٣).

كما منع عبد الله بن عبد الملك لبس القلانس ، وكان قد حدث فى عهد يزيد ابن عبد الله أن أخذت الملابس طابعا زخرفيا معقدا ولكن سرعان ما أخذ هذا التقليد فى الاندثار تدريجيا (٤) . وكان أبو جعفر المنصور قد أمر فى عام ١٥٣ هـ / ٧٧٠م بلبس القلانس الطوال والدراريع مكتوب عليها بين كتفى الرجل : " فسيكفيكهم الله "

---

(١) يذكر الكندى أن القاضى بن أبى الليث " جلس فى مجلس حكمه فى المسجد واجتمع أولئك الشيوخ عليهم القلانس فأقبل عبد الغنى وقطر جميعا فضرب رؤوس الشيوخ حتى أقلعوا قلانسهم قال : وأخبرنى محمد بن أبى الحديد قال ... رأيت قلانس الشيوخ يومئذ فى أيدى الصبيان والرعاع يلعبون بها وكانوا بعد ذلك لا يدخلون الى ابن أبى الليث ولا يحضرون مجلسه فى قلنسوة ."

(٢) الكندى : الولاه والقضاه ص ٢١١ ويذكر أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٢ ص ٢٠ أن الخليفة أبو جعفر المنصور قد أمر رعيته بلبس القلانس الطوال المعروفة بالمدينة "وكانوا يعملونها بالقصب والورق ويلبسونها سوداء ."

(٣) يذكر الكندى أنه " لما أمر ابن أبى الليث بطرح القلانس لم يثبت على لباسها الا محمد بن رمح فلم يعارض " كما يذكر فى ص ٤٦١ أن اسماعيل بن اسحق أنشد يقول :

وأخفت أيام الطوال وأهلها ... فرموا بكل طويلة لم يقصر
ما زلت تأخذهم بطرح طوالهم ... والمشى نحوك بالرؤوس الحسر
حتى تركتهم يرون لباسها ... بعد الجمال خطية لم تغفر

(٤) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ١ ص ٢١٠ .

كما أمرهم بتعليق السيوف فى أوساطهم ، وكانت تلك القلانس تدعم بعيدان من داخلها (١) .

والقلانس فى نظر العرب من لباس الفرس ، حتى أن هارون الرشيد لم يرض عن تلك القلانس الطويلة (٢) .

ويذكر المسعودى (٣) أن المعتصم أعاد لبس القلانس تشبها بملوك الاعاجم فلبسها الناس اقتداء به وسميت المعتصميات فكان من زى أهل الفسطاط حوالى عام ٢٣٠ هـ / ٨٤٤ م لبس القلانس الطوال (٤) .

وفى عهد المستعين ٢٤٨ ـ ٢٥٢ هـ / ٨٦٢ ـ ٨٦٦ م صغرت تلك القلانس وان ظهرت الأكمام الواسعة التى يصل عرضها نحو ثلاثة أشبار فكانت تقوم مقام الجيوب تحفظ فيها الدنانير والكتب فكان المهندس يضع فيها ميله ، والصيرفى يجعل فيها ـ رقعه ، والقاضى يضع فيها الكراسة التى يقرأ فيها خطبة الجمعة (٥) .

وعرفت أهل الفسطاط استخدام الفراء فى عهد الاخشيديين (٦) والاهتمام بالتطيب والعطور (٧) .

وبطبيعة الحال كانت هناك أزياء خاصة بالجند الا أن المصادر لا تذكر عنها كثيرا من التفاصيل .

وكان الكتاب يلبسون الدراريع (٨) وهى ثياب مشقوقة من الصدر ، وكان العلماء يلبسون الطيلسان (٩) ، وكان القواد يلبسون الاقبية الفارسية القصيرة . وقد صار القباء لباسا رسميا لرجال الدولة حوالى عام ٣٠٠ هـ / ٩١٢ م .

وكان الاثرياء يلبسون تمعاورداء فوق السراويلات ثم حل الخفتان محل الملابس العربيه (١٠) .

---

(١) الكندى : الولاة والقضاة ص ٢١١ ، الاصفهانى : الاغانى ج ٩ ص ١٢١ . (٢) الجاحظ : البيان والتبيين ج ١ ص ٤٢ (٣) المسعودى : مروج الذهب ج ٨ ص ٣٠٢ (٤) الكندى : الولاة والقضاة ص ٤٦٠ (٥) المسعودى : مروج الذهب ج ٨ ص ٤٠٢ ، ج ٦ ص ٣٤٥ ، ياقوت الحموى : الارشاد ج ٢ ص ٤٩ ، ج ١ ص ٣٩٩ . (٦) ابن سعيد : المغرب ص ٣٤ (٧) يذكر ابن سعيد : المغرب ص ٣٥ ـ ٣٦ أن الاخشيد كان يهوى استخدام العنبر وأنه كان يجمع منه مقادير كبيرة حتى قيل ان خزانة الطيب الذى كان يستعمله حملت فى احدى سفراته فى أكثر من خمسين جملا . (٨) مسكويه : تجارب الامم ج ٦ ص ٣٠٨ (٩) المقدسى : أحسن التقاسيم ص ٢٤٩ (١٠) ابن سعيد : المغرب ص ٣٣ .

المطاعم والمشارب

لعل أول اشارة الى أطعمة أهل الفسطاط هى ما ذكره المقدس عند زيارته للفسطاط فى القرن الرابع الهجرى من أن بها " أطعمة لطيفة وحلاوات رخيصة ، كثير الموز الوطب ، غزير البقول والحطب ، خفيف الماء ، صحيح الهوا . " (١) كما ذكر من أنواع الخضر المعروفة فى الفسطاط القلقاس وكيف كان يقلى بالزيت (٢) ، ومن أنواع الفاكهة الموز والجيمز وأن " أكلهم الدلينس ونقلهم الحمص وجبنهم الحالوم ، وحلواهم النيده (٣) . وأن الترمس كان يملا ويملح ويباع فى الأسواق ويدق ويخمر .

كما يذكر أن السمك من أحب المأكولات الى أهالى الفسطاط وقد لاحظ " أنهم اذا رأوا شاميا قد اشترى سمكا ابتعوه فاذا رمى روءوسها أخذوها " (٤) فيذكر أنهم كانوا يفضلون روءوسه ، والواقع أن استنتاج المقدسى لمسألة تفضيل الروءوس هذه من روءيته لبعض العوام يلتقطونها من مخلفات السوق لا يعنى تفضيلهم لها بل الحاجة هى التى دفعتهم لذلك . كما أنه يذكر أن " من واظب فى الفسطاط على أكل السمك جرب جربا لايفارقه سبع سنين " (٥) وفى الحقيقة أن الأمر لا يعدو أن يكون اصابة بالحساسية أو أحد الأمراض الجلدية البسيطة التى تنتج عن أكل السمك وخاصة فى الصيف .

---

(١) المقدسى : أحسن التقاسيم ص ١٩٧
(٢) المصدر السابق ص ٢٠٤
(٣) المصدر نفسه ص ٢٠٤ طبعة بريل
(٤) المصدر نفسه ص ٢٠٥
(٥) المصدر نفسه ص ٢٠٩

فالمقريزى يذكر أيضا أنه " يصاد فى أيام الخريف من النيل أسماك كثيرة جدا يولد أكلها فى الابدان أخلاطا لزجة وكثيرا ما يستحيل الى الصفراذا صادفت فى الابدان خلطا صفراويا (١) " . كما أنهم كانوا يأكلون السمك مملحا (٢) .

.. ولما كان ذوق الناس فيما يتعلق بمسألة الطعام والشراب من الاشياء التى تتغير تغيرا بطيئا لا يكاد يكون ملموسا ، فانه يمكننا القول بأن ما شاهده المقدسى فى القرن الرابع لم يكن ليختلف كثيرا عن طباع سكان الفسطاط فى الفترات السابقة .

ويذكر عبداللطيف البغدادى فى كتابه الافادة والاعتبار كثيرا من أنواع الاطعمة المعروفة فى الفسطاط مثل الشيدة وهى تصنع من القمح غليظة القوام متوسطة الحلاوة وتباع بسعر الخبز (٣) . وأنه من غريب الطعام المعروف فى الفسطاط خلط الدجاج بأصناف من الحلوى مثل الفستق أو الخشخاش أو ماء الورد ثم يتبل ويسمى الفستقية والبندقية والخشخاشيه أو الوردية . وكثيرا ما يستعملون الفستق فى أطبختهم وحوائجهم " ويتخذون منه هريسة ثم تسمى هريسة الفستق وهى لذيذة جدا ودسمة وموادها لحم الدجاج مسلوق منسر . " (٤)

---

(١) المقريزى : الخطط جـ ١ ص ٤٥ المطبعة الاميرية

(٢) المصدر السابق نفس الصفحة

(٣) عبداللطيف البغدادى : الافادة والاعتبار .

(٤) المصدر السابق ص ٤١ ـ ٤٢ يذكر كيفية عملها بقوله : " أن يمسح اللحم المنسر بالشيرج ويجعل فى الدست بحيث يشم النار ويسكب عليه الجلاب ويضرب حتى ينعقد ثم يلقى عليه الفستق ويضرب حتى يختلط ثم يرفع . "

أما الحلوى المصنوعة من السكر فقد عرف منها أنواع متعددة مثل خبيص البقطين ، وخبيص الجزر والورديه المصنوعة من الورد ، والزنجبيلية المصنوعة من الزنجبيل (١) .

ومن غريب أطعمتهم أيضا رغيف الصينية وهى نوع من الفطائر الكبيرة المحشوة باللحم والفستق (٢) ، وهو غذاء لفرط تكلفته قاصر على المترفين فهو كما يذكر البغدادى " يصلح أن يحمل مع الملوك وأرباب الترف الى متصيداتهم النائية ومتنزهاتهم النازحة فانه وحده جملة فيها تفصيل سهل المحمل ، عسر التشعث جميل المنظر مشكور المخبر يحفظ الحرارة مدة طويلة " (٣)

وكان من أنواع الحلوى التى عرفت فى العصر الطولونى الفالوذج واللوزينج وتصنع بزيت اللوز ، وكان أحمد بن طولون مضرب المثل فى الكرم فيذكر المقريزى أن

---

(١) عبد اللطيف البغدادى : الافادة والاعتبار ص ٤٢

(٢) يصف عبد اللطيف البغدادى طريقة صنعه بقوله : " ومن غريب ما يتخذون رغيف الصينية وصفته أن يؤخذ من الدقيق الحوارى ثلاثون رطلا بالبغدادى ويعجن مع خمسة أرطال ونصف شيرج عجن خبز الخشكنان ثم يقسم بقسمين ويبسط أحدهما رغيفا فى صينية نحاس وقد اتخذت لذلك سعة قطرها نحو أربعة أشبار ولها عرى وثيقة ثم يعبى على الرغيف ثلاثة أخرفة مشوية محشوة الأجواف بلحم مدقوق مقلو بالشيرج والفستق المهروس والأفاوية المطرية الحارة كالفلفل والزنجبيل ويرش عليه ماء الورد ، قد ضيف معه مسك ثم يجعل على الخرفان وبين خلالها عشرون دجاجة وعشرون فروجا وخمسون فرخا بعضه محشوا بالبيض وبعضه محشو باللحم .. فاذا نضج وصار كالقبة وضع عليه ماء الورد قد ضيف فيه مسك وعود ثم غطى بالقسم الثانى من العجين بعد أن يمد رغيفا ويلحم بين الرغيفين فحينئذ ترسل الصينية فى التنور بمراها رويدا رويدا ويصبر عليه ريثما ينضج الخبز ويتورد ويحمر ويمسح بأسفنجة فيرش عليه ماء ورد ومسك ويرفع للأكل " . عبد اللطيف البغدادى : الافادة والاعتبار ص ٤٣ .

(٣) عبد اللطيف البغدادى : الافادة والاعتبار ص ٤٣ .

" مطابخه التى أقيمت فى كل يوم للصدقات فى داره وغيرها يذبح فيها البقر والكباش ، ويغرف للناس فى القدور الفخار والقصاع على كل قدر أو قصعة لكل مسكين أربعة أرغفة فى اثنين منها الفالوذج • والاثنان الآخران على القدر • وكانت تعمل فى داره وينادى من أحب أن يحضر دار الأمير فليحضر وتفتح الأبواب ويدخل الناس الميدان وابن طولون ينظر الناس فى المجلس الذى تقدم ذكره ويتأمل فرحهم بما يأكلون ويحملون • (١)

ولم يكن خمارويه بأقل من أبيه كرما فقد بلغت نفقات مطابخه الذى عرف باسم مطبخ العامة ثلاثة وعشرون ألف دينار فى كل شهر • وقد عين لدار الحرم التى بناها لنساء أبيه الطهاة والخدم وأدر عليهن الأرزاق والأطعمة التى بلغت من الكثرة الى درجة أن الطهاة كانوا يعطون ما بقى منها للعامة (٢) • وفى ذلك العهد رخصت أسعار أنواع الأطعمة الممتازة مثل الفالوذج واللوزينج والقطائف والهرائس وقطع الدجاج ولحم الضأن أو الجدى ، فأصبحت تباع بدرهم واحد أو درهمين •

كما يذكر المقريزى أنه فى عهد الاخشيديين عرف نوع من الكعك المحشو بالسكر والقرص الصغيرة المسماه " افطن له " (٣) والفستق الملبس بالسكر الأبيض المطيب بالمسك •

---

(١) عبداللطيف البغدادى : الافادة والاعتبار ص ٤٣

(٢) المقريزى : الخطط جـ١ ص ٣١٦

(٣) يذكر المقريزى أن " أبا عبدالله محمد بن مفسر قاضى مصر سمع بأن الماذرائى عمل فى أيامه الكعك المحشو بالسكر والقرص الصغار المسماه افطن له فأمر بعمل الفستق الملبس بالسكر الأبيض الفانيد المطيب بالمسك وعمل منه فى أول الحال أشياء عوض لبه لب ذهب فى صحن واحد ، فمضى عليه جملة وخطف قدامه تخاطفه الحاضرون وكان قد سمع فى سيرة الماذرائين أنه عمل له هذا " الافطن له " وفى كل واحدة خمسة دنانير ، ووقف أستاذ على السماط فقال لأحد الجلساء أفطن له وكان عمل على السماط عدة صحون من ذلك الجنس لكن ما فيه الدنانير صحن واحد فلما رمز الأستاذ لذلك الرجل بقوله " افطن له " وأشار الى الصحن تناول ذلك الرجل ـــــ

ومن أنواع الأطعمة التى عرفت فى عهد الاخشيديين " الحماضية " وهى تصنع من الحماض الذى يستخرج من الاترج وهو نوع من البرتقال يلقى به فى العنب الأخضر ثم يضاف اليه ماء الورد (١) .

كما كثرت فى الأسواق الأماكن الخاصة ببيع الشواء وكان معظمه يباع نيئـــا ويخلط بلحم الماعز (٢) .

ويذكر أبو المحاسن (٣) عن كتاب كنز الدرر وجامع الغرر أنه بلغ ما كـــان يعمل فى مطبخ كافور فى كل يوم من اللحم والطيور والفاكهة والحلوى مقاديـــر هائلة .

كما يذكر ابن خلكان عن أحد أعوان كافور أنه قال : " خدمت الأستـــاذ كافور والجراية التى يطلقها ثلاثة عشر جراية فى كل يوم ومات وقد بلغت على يـــدى ثلاثة عشر ألفا فى كل يوم . " (٤)

ويذكر الثعالبى (٥) دعوة بعض الشعراء أصدقائهم الى وليمة يصفونها فـــى قصائدهم شملت ألوانا من الشواء والحلوى والشراب وما تخلل الوليمة من ضروب اللهـــو والسرور وسماع الموسيقى والغناء فضلا عن التفنن فى تزيين السماط بالورود والرياحين .

ــــ منه فأصاب الذهب ورآه الناس وهو اذا أكل يخرج من فمه ويجمع بيده ويحط فـــى حجره فتنبهوا له وتزاحموا عليه فقيل لذلك من يومئذ افطن له . "

(١) ابن سعيد : المغرب ص ٣١ (٢) المصدر السابق ص ٣٣

(٣) أبو بكر عبدالله بن أيبك : كنز الدرر وجامع الغرر (فهرس التاريـــخ بدار الكتب رقم ٢٥٧٨) يذكر أنه بلغ ما كان يعمل فى مطبخ كافور فى كل يوم من ٣ اللحم ألفان وسبعمائة رطل وخمسمائة طائر دجاج وألف طائر حمام ، ومائة طائر أوز ، وخمسون خروفا رميسا ، ومائة جدى سمين ، وعشرون فرخا وخمسمائة صحن حلوى وفى كل صحـــن عشرون رطلا ومائتين وخمسون طبقا فاكهة ، وعشرة أفراد نقل ومائة صحن من الحلوى " .

(٤) ابن خلكان : وفيات الاعيان ج ١ ص ٤٣١

(٥) الثعالبى : يتيمة الدهر ج ١ ص ٣٥٤ ـ ٣٥٥ .

وكان الاغنياء في عهد الاخشيديين في الفسطاط يسرفون في تقديم ألـــوان مختلفة من الطعام في أوان جميلة من الخزف على درجة كبيرة من دقة الصنع وحسن الرونق . (١)

ويذكر القلقشندي أنهم كانوا يستخدمون زيت الزيتون في الطعام ويأكلون الزيتون مملحا (٢) . كما عرفت الفسطاط نوعا من الليمون يسمى التفاحي " يؤكل بغير سكر لقلة حموضته ولذة طعمه . " (٣)

---

(١) يذكر ابن زولاق أن محمد بن طغج سلم والدته خمسة آلاف دينـــار لتحفظها له ولم يكن يملك غيرها وحدث أن كان الاخشيد يأكل وعنده جماعة فوجـــدت أن الاطباق والاواني قد فقدت رونقها وتقشرت " وعلى المائدة غضار وطيافير قـــد تقشرت فاغتمت وأخرجت من الخمسة آلاف دينار مائتي دينار فاشترت مائدة حسنة وغضـــارا صينيا وطيافير جوداء . " ابن سعيد : المغرب ص ٩ .
الغضار : الصحن الكبير من الفخار أو الخزف ، الطيافير : جمع طيفور ويعنـــى الصحن المقعر .
Dozy. Supplement aux Diationnaires Arabes II p. 216, p. 48.

(٢) القلقشندي : صبح الاعشى ج ٣ ص ٣١٢

(٣) المقريزي : الخطط ج ١ ص ٢٧٣ .

عادات الجنائز

تورث المصادر الكثير من أوامر الولاة وأولى الأمر الخاصة بمنع النداء على الجنائز والصياح عليها ، مما يشير الى أن تلك العادات السيئة التى تبعد عن روح الاسلام ، قد أخذت فى الظهور فى المجتمع فى الفسطاط فى النصف الثانى من القرن الثالث الهجرى تقريبا . اذ أننا لا نصادف قبل هذه الفترة شيئا من منع النداء على الجنائز مما يوحى بأن هذه العادات لم يكن لها وجود فى أوائل عهد الاسلام فى القرنين الاول والثانى الهجريين .

ويذكر الكندى (١) أنه حين تولى الحارث بن مسكين القضاء عام ٢٣٧ هـ / ٨٥١ م من قبل أبى جعفر المتوكل " منع النداء على الجنائز " كما أمر والى مصر عيسى النوشرى فى سنة ٢٩٤ هـ / ٩٠٧ م بمنع النواح والنداء على الجنائز (٢) . الا أن هذه النواهى لم تكن لتقضى على تلك العادات السيئة رغم التشدد فى الأمر بحبس النائحات ومنع النساء من زيارة المقابر (٣) والنهى عن شق الثياب على الميت وألا يسود وجه ولا يحلق شعر (٤) .

ومن المعروف أن أول مقابر للمسلمين فى الفسطاط كانت تقع عند مصلى خولان وتمتد لتصل حتى خطة المعافر ، وكان هذا الموضع يسمى بالقرافة (٥) . وقد خصص جزء الى الجنوب منه لدفن الموتى من أهل الذمة (٦) .

---

(١) الكندى : الولاة والقضاة ص ٤٦٩ مطبعة الآباء
(٢) المصدر نفسه ص ٢٦٦
(٣) المصدر نفسه ص ٢١٠
(٤) المصدر السابق ص ٢١١ ، متز : الحضارة الاسلامية جـ ٢ ص ١٩٢ — ١٩٣ . (٥) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة جـ ١ ص ٣٦ ويذكر أنها سميت القرافة نسبة الى طائفة من قبيلة المعافر تدعى القرافة نزلوا تلك المنطقة فسميت باسمهم . (٦) المقريزى : الخطط جـ ١ ص ٤٤٣ — ٤٤٤ ، أبو المحاسن النجوم الزاهرة جـ ١ ص ٣٦ .

وكانت مقابر الفسطاط كما وصفها المقدسي (١) حين زار مصر " غاية فى الحسن والعمارة ترى البلد غبراء والمقابر بيضاء وكان المسلمون يبنون بها القباب " ويجعلـــون عليها الحيطان فتكون كالدور " . (٢)

وقد جرت عادة أهل الفسطاط أن يبيتوا فى المقابر فى كل ليلة جمعة وليلــة النصف من شعبان ، ولذلك كانوا يبنون بجوارها البيوت ويرتبون القراء وكان ينشأ الـــى جانب القبر زاوية أو مدرسة .

وكان شاهد القبر يكتب عليه اسم المتوفى يتبعه اسم قبيلته ثم تاريخ وفاته وذلك فى القرنين الاولين للهجرة ، أما فى القرن الثالث حين قل نسبيا تمسك الفرد بالانتماء الى قبيلته نجد اسمه متبوعا باسم الجهة أو الاقليم الذى ينسب اليه (٣) .

وكانت عادة وجوه القوم وعلمائهم أن يدفنوا موتاهم فى دورهم وينقلونهم بعـــد فترة من الزمن الى المقابر ، ومن أمثلة ذلك ما حدث لمحمد بن على الماذرائى الـــذى توفى سنة ٣٤٥ هـ / ٩٥٥ م .

---

(١) المقدسى : أحسن التقاسيم ص ٢٠٩
(٢) المصدر السابق نفس الصفحة

(3) Stelles Funerraires : T. 2 p. 2.
G. wiet : Precis de l'histoire d' Egypte T. II, pp. 136-137.

الحياة الاجتماعية العامـــــة

ورغم ما أشرت اليه من مقومات اجتماعية خاصة فان السكان جميعا كانـــــوا يشتركون فى مظاهر اجتماعية عامة يحيونها جميعا ، ويحتفلون بها جميعا وهى الأعياد والمواسم والحفلات وضروب اللهو فى المدينة .

الأعياد والمواسم والاحتفالات :

تشير المصادر الى أن المسلمين قد أبقوا على احتفال القبط بأعيادهم الدينية ، بل اشتركوا معهم فى الجانب الاجتماعى المسلى من تلك الأعياد . فشارك المسلمـــون القبط فى الاحتفال بوفاء النيل ، فيذكر المؤرخون (١) أنه كانت توقد القناديل فـــى ليلة وفاء النيل فى كل سنة ويتخذون اشارة عظيمة كبيرة تنصب حولها القناديل وتعلـــق بالحبال وتوضع بمركب وتسير فى النيل يمينا وشمالا وتزف بالطبول وتسمى عروس البحر .

---

(١) يذكر ابن عبد الحكم أنه " لما فتح عمرو بن العاص مصر أتى أهلهـــا الى عمرو حين دخل بؤونه من أشهر العجم فقالوا له : أيها الأمير ان لنيلنا هـــذا سنة لا يجرى الا بها فقال لهم وما ذاك . قالوا : انه اذا كان لاثنتى عشرة ليلة خلون من هذا الشهر عمدنا الى جارية بكر بين أبويها فأرضينا أبويها وجعلنا عليها مـــن الحلى والثياب أفضل ما يكون ثم ألقيناها فى هذا النيل فقال لهم عمرو : هذا لا يكون فى الاسلام فكتب الى عمر : قد أصبت أن الاسلام يهدم ما قبله وقد أرسلت اليـــك ببطاقة فألقها فى داخل النيل فلما قدم الكتاب على عمرو فتح البطاقة فاذا فيها : مـــن عبد الله عمر أمير المؤمنين الى نيل أهل مصر فان كنت تجرى من قبلك فلا تجر وان كـــان الله الواحد القهار الذى يجريك فنسأل الله الواحد القاهر أن يجريك فألقى عمـــرو البطاقة فى النيل قبل يوم الصليب وقد تهيأ أهل مصر للجلاء والخروج منها لانه لا يقـــوم بمصلحتهم فيها الا النيل فأصبحوا يوم الصليب وقد أجراه الله ستة عشر ذراعا . وقطـــع تلك السنة السيئة عن أهل مصر . نقل هذه الرواية عن ابن عبد الحكـــم

كما كان المسلمون يشتركون مع القبط فى صلاة تعرف بصلاة الاستسقاء اذا ما نقص النيل فى موعد الفيضان " فيخرج الناس حفاة وعلى رؤوسهم المصاحف ، واليهود وعلى رؤوسهم التوراة ، والنصارى وعلى رؤوسهم الاناجيل ، ويخرج الأطفال من المكاتب وعلى رؤوسهم الألواح .

ويذكر ساويرس (١) أن المسلمين والقبط صلوا من أجل النيل عندما نقصت مياهه فى ولاية أبى عون على مصر ١٣٢ هـ — ١٣٦ هـ / ٧٤٩ — ٧٥٣ م وكذلك خروج المسلمين مع القبط للاستسقاء فى ولاية حفص بن الوليد الثانية حين اشتد القحط بمصر فخرج حفص مع الناس للاستسقاء ودعا الله وصلى (٢) .

أبو المحاسن : النجوم جـ ١ ص ٣٥ — ٣٦ ، المقدسى : أحسن التقاسيم ص ٢٠٦ — ٢٠٧ ، القلقشندى : صبح الاعشى جـ ٣ ص ٢٩٥ ، ابن الفقيه : مختصر كتاب البلدان ص ٦٥ ويذكر Wiet أنه لا يعقل أن تبقى المسيحية على تلك العادة ان كانت قد وجدت فى عهد الفراعنة كما يذكر أن المسيحيين قد جعلوا للاحتفال بالنيل معنى دينيا فكانت الكنيسة تحتفل فى ١٧ توت بذكرى اعلاء الصليب المقدس .

Wiet : Precis de l' histoire d' Egypte. T. II p. 144 , 177 , 178.

(١) ساويرس بن المقفع : سير الآباء البطاركة ص ١٩٤ — ١٩٦ .

(٢) أبو المحاسن : النجوم جـ ١ ص ٢٩١ ، ١٠ ل تهشر : تاريخ الأمة القبطية جـ ٢ ص ٢٠٣ — ٢٠٤

كما تذكر ا • ل بتشر ما رواه يوحنا شماس خائيل من أنه فى يوم عيد الصليب اجتمع قساوسة الجيزة وجمهور من سكان الفسطاط من رجال وشيوخ وأطفال ونساء وساروا فى احتفال كبير وفى أيديهم الاناجيل والمجامر يفوح منها البخور ودخلوا جميعا كنيسة ماربطرس الواقعة على شاطئ النيل فلم تسعهم الكنيسة على سعتها فظل أكثر الناس وقوفا خارجها ثم حضر البطريرك ورفع الصليب بيمينه وفى يد كل من القسس صليبا وساروا حتى وصلوا الى شاطئ النيل وكان ذلك قبل طلوع الشمس وأخذ جمهور الحاضرين يرددون فى الفضاء بالقبطية " كيرياليصون " أى يارب ارحم واستمرت الصلاة حتى الثالثة وحين استيقظ المسلمون واليهود كان الله قد استجاب لدعائهم وزاد النيل وعجب الوالى واندهش لما حدث (١)

كما كان المسلمون يشاركون القبط فى الاحتفال بعيد الغطاس (٢) يقول المسعودى : " وليلة الغطاس بمصر شأن عظيم عند أهلها لا ينام الناس فيها وهى ليلة عشر تمضى من كانون الثانى ولقد حضرت سنة ثلاثين وثلثمائة ليلة الغطاس فى مصر والاخشيد محمد بن طغج فى داره المعروفه بالمختارة فى الجزيرة الواكبة للنيل والنيل مطيف بها وقد أمر فأسرج من جانب الجزيرة وجانب الفسطاط ألف مشعل غير ما أسرج أهل مصر من المشاعل والشمع وقد حضر النيل فى تلك الليلة الألوف من

---

(١) ا • ل • بتشر : تاريخ الأمة القبطية ج ٢ ص ٢٠٣ — ٢٠٤ •

(٢) المسعودى : التنبيه والاشراف ج ٢ ص ٣٦٤ — ٣٦٥ ؛
المقريزى : الخطط ج ١ ص ٢٩٤ ؛
متز : الحضارة الاسلامية ج ٢ ص ٢٤٢ — ٢٤٣ ؛
ا • س • ترتون : أهل الذمة فى الاسلام ص ١١٥ ويعتقد المسيحيون أنه فى يوم الغطاس عمد يحيى بن زكريا المعروف باسم يوحنا المعمدان المسيح أى غسله فى مياه نهر الاردن حيث اتصل به روح القدس فصار المسيحيون يغطسون أولادهم فى الماء فى ذكرى ذلك اليوم رغم برودة الجو فى ذلك الوقت • ويذكر القلقشندى أن المصريين يقولون : غطستم صيفتم ونورزتم شتيتم • صبح الاعشى ج ٢ ص ٤١٦ •

الناس من المسلمين والنصارى منهم فى الزوارق ومنهم فى الدور الدانية من النيل ، ومنهم على الشطوط لا يتناكرون الحضور ويظهرون كل ما يمكنهم اظهاره من المآكل والمشارب والملابس وآلات الذهب والفضة والجواهر ، والملاهى والعزف والقصف وهى أحسن ليلة تكون بمصر وأشملها سرورا ولا تغلق بها الدروب ويغطس أكثرهم فى النيل ويزعمون أنه أمان من المرض ونشر من الداء ".

وهكذا كان المسلمون يشاركون فى الاحتفال بهذا العيد القبطى ، وجرت العادة أن يركب صاحب شرطة الفسطاط ليلة الغطاس فى مركب كبير توقد بين يديه الشموع والمشاعل فيطوف الشوارع وينادى فى الناس ألا يختلط المسلمون بالنصارى فى تلك الليلة وألا يكدروا عليهم عيدهم ، وذلك أن النصارى كانوا يخرجون فى سحر تلك الليلة الى شاطئ النيل ويغطسون فيه . وكان من التقاليد المعروفة أن الناس يخرجون من كنيسة ميكائيل بقصر الشمع الى شاطئ النيل فى جمع وفير بالقراءة الملحنة والصلبان المشهورة ويصلون ثم يخطب الاسقف فيهم ثم يدعو للسلطان ويضيف يحيى بن سعيد أنه : " كان لأهل مصر وأهل الملل والمذاهب فى هذا العيد من الطيبة والفرح مالا يكون لهم فى غيره من أيام السنة وأعيادها ." (١) كما جرت العادة بأن يضاء سوق الشماعين باضاءة كبيرة وأن تفتح حوانيته الى منتصف الليل حيث يقصدها كثير من الناس . كما كان القبط يحتفلون بعيد الشهيد حيث يلقون فى النيل تابوتا من الخشب فيه اصبع من أصابع أسلافهم الموتى ويزعمون أن النيل لا يزيد فى كل سنة الا بهذا وكان اجتماع الناس لهذا العيد عند ساحل النيل وكان يرحل اليه عالم عظيم " للفجور واللهو والنسق وفيه يصرفون أموالا لا تحصى ولا يبقى مغن ولا مغنية ،

---

(١) تاريخ يحيى بن سعيد الأنطاكى ص ١٩٦ — ١٩٧ .

(٢) المقريزى : الخطط ج ١ ص ٣٤٠ — ٣٤١ .

ولا صاحب لهو ولا بغى ولا نحو ذلك الا خرج لهذا العيد وكان يباع فيه من الخمر خاصة بما يزيد على مائة ألف درهم .» (١)

كما كان العامة من المسلمين يشاركون القبط فى احتفالهم بعيد النيروز وهو أول السنة القبطية بمصر "وفيه تشعل النيران وترش المياه" (٢). ومن عادة القبط فى الاحتفال به أن ينتخبوا رجلا يسمونه أمير النوروز فيطلى وجهه بالدقيق الأحمر ويركب فى الشوارع على حمار وعليه ثوب أحمر أو أصفر ويسير مع جمع كبير ويتسلط على الناس فى طلب رسم رتبه وفى يده دفتر مثل دفتر المحتسب ، فمن لم يدفع الوسم يرش بالماء ممزوجا بالاقذار ، وكان الناس يضرب بعضهم بعضا بالجلود والانطاع ، الفقراء فى الشوارع والاغنياء فى دورهم ورجال الشرطة لا يعترضون على ذلك ، وان خرج أحد من بيته لقيه من يرشه ويفسد ثيابه ويستخف بحرمته فاما أن يفتدى نفسه واما أن ينفضح وكان يرش الناس الماء فى الحارات ، ويجهر المنكر فى الدور أهل الخسارات وكان التلاميذ فى مكاتبهم يهجمون على معلمهم وكثيرا ما يرمونه فى البئر حتى يفتدى نفسه .»

---

(١) المقريزى : الخطط ج ١ ص ٦٨ — ٦٩ .

(٢) يذكر البيرونى : الآثار الباقية ص ٢١٦ — ٢١٧ طبعة سخاو Sahau عن أصل النيروز أنه يرجع الى أن سليمان بن داود لما فقد خاتمه ذهب عنه ملكه ثم رد اليه بعد أربعين يوما فعاد اليه ملكه وأتته الملوك وعكفت عليه الطيور فقالت الفرس : " نوروز آمد " أى جاء اليوم الجديد فسمى هذا اليوم النوروز وأمر سليمان الريح فحملته ورآه خطاف فقال أيها الملك ان لى عشا فيه بيضا فاعدل لا تحطمها فعدل سليمان ولما نزل على الأرض ثانية حمل الخطاف فى منقاره ماء فرشه بين يدى الملك وأهداه رجل جراده فذلك أصل رش الماء والهدايا فى النوروز .»

ويذكر القلقشندى (١) أنهم " يظهرون فيه من الفرح والسرور وابقاء النيران وصب الأمواه أضعاف ما يفعله الفرس ويشاركهم فيه العوام من المسلمين . الا أن أهل مصر يزيدون فيه بالتصافح بالانطاع ، وربما حملهم ترك الاحتشام على أن يتجرأوا على الرجل المطاع ، ولولا أن ولاة الأمر يردعونهم ، ويمنعونهم من ذلك لمنعوا الطريق من السالك وهم مع ذلك اذا ظفروا به لا يتركونه الا بما يرضيهم . (٢)

وفى ولاية أبى القاسم بن الاخشيد (٣) أمر بمنع صب الماء وفى سنة ٣٣٥ ــ ٣٦٣ هـ / ٩٤٦ ــ ٩٧٣ م أمر بابطال هذا العيد (٤) ولكن لم يحدث شىء من ذلك اذا احتفل به فى العام التالى بصورة أكبر .

ومن الأعياد التى شارك عامة المسلمين القبط الاحتفال بها أيضا عيد " أحد الشعانين " وهو عيد قديم من أعياد الأشجار ــ خاصة الزيتون وكان القبط يسمونه " عيد السعف " وكان من عادتهم أن يقطعوا قلوب النخل وسعفه ، وأغصان الزيتون يوم سبت العازر ــ ويضفرونها زيتونه كبيرة بالصلبان ويكللونها بالشموع (٥) ويرفعونها الى محل اقامة البطريرك وتحمل الشجرة الى كل ركن من أركان الكنيسة الأربعة ويقرأ أمامها فى كل ركن من أحد الأناجيل الأربعة ثم يأخذ النساء منها على سبيل البركة ،

---

(١) القلقشندى : صبح الأعشى ج ٢ ص ٤٢٠ .
(٢) المصدر السابق نفس الصفحة
(٣) الكندى : الولاة والقضاة ص ٢٩٤ .
(٤) المقريزى : الخطط ج ١ ص ٢٩٦ ، ص ٤٩٣ ، يذكر آدم متز : الحضارة الاسلامية ج ٢ ص ٢١٥ أن هذه العادات تشبه عيد الكرنفال شبها واضحا لأن أيام الكبس التى تنتهى بها السنة القديمة عند الجميع يكون الأمر فيها لأمير من الغوغاء وهى تسير مع النيروز وتتمشى مع القمر متنقلة فى التقويم " .
(٥) المقريزى : الخطط ج ١ ص ٢٦٤ ويذكر القلقشندى : صبح الأعشى ج ٢ ص ٤١٥ أن كلمة الشعانين تعنى التسبيح وأنه يكون فى سابع أحد من صومهم وهو يوم ركوب المسيح لليعفور " الحمار " فى القدس ودخوله صهيون وهو راكب والناس يسبحون بين يديه " .

وكان البعض يدورون بالزيتونة فى الأديرة ،والطواحين والافران . (١)

كما شارك المسلمون القبط فى الاحتفال بعيد الخروج الى سجن يوسف بالجيزة وكانت عادة العامة أن " يطوفوا قبل الخروج للسجن أسواق البلد بالطبول والبوقات ليجمعوا من التجار ما ينفقونه فى خروجهم ." (٢)

وبالاضافة الى ذلك كانت هناك أعياد أخرى للقبط يحتفلون بها دون أن يحد العرب من حريتهم فى اقامة شعائر دينهم والاحتفال بأعيادهم . فكانوا يحتفلون بعيد الفصح وهو عيدهم الكبير يوم الفطر من صومهم الاكبر (٣) .

وعيد الخميس وهو "عيد العنصره" فى السادس والعشرين من شهر بشنس وعيد الميلاد يحتفلون به فى التاسع والعشرين من كيهك ويجعلون ليلة الأحد ليلة الميلاد فيوقدون الكنائس بالمصابيح ويزينونها . كما تباع الشموع المزدانه بالاصباغ والتماثيل البديعة ، ولا تشير المصادر الى ما يبين اشتراك المسلمين فى هذا العيد مع القبط فيما قبل العصر الفاطمى (٤) .

---

(١) متز : الحضارة الاسلامية جـ ٢ ص ٢٠٧ ،
مجلة المشرق جـ ٨ عام ١٩٠٥ ص ٣٤٢
(٢) المقريزى : الخطط جـ ١ ص ٤٠٥
(٣) يذكر القلقشندى : صبح الاعشى جـ ٢ ص ٤١٥ أنهم " يزعمون أن المسيح قام فيه بعد الصلوات بثلاثة أيام وخلص آدم من الجحيم وأقام فى الأرض أربعين يوما آخرها يوم الخميس ثم صعد الى السماء ."
(٤) المقريزى : الخطط جـ ١ ص ٩٤ ـ ٩٥ ، القلقشندى : صبح الاعشى جـ ٢ ص ٤١٦ .

وكان القبط يحتفلون بخميس العهد وهو قبل الفصح بثلاثة أيام وفيه " يأخذون اناء ويملؤوه ماء ويزمزموا عليه ثم يغسل البطريرك به أرجل جميع النصارى الحاضرين ويزعمون أن المسيح عليه السلام فعل هذا بتلاميذه فى هذا اليوم يعلمهم التواضع . " ويسميه عامة القبط خميس العدس وهم يطبخون فيه العدس بأصنافه المختلفة (١) . وكان القبط يأكلون العدس فى كل يوم جمعه يعتبرونه طعام حداد . كما يحتفلون فى اليوم السابق لعيد الفصح بسبت النور (٢) ، لانهم يعتقدون أن النور يظهر على قبر المسيح فى هذا اليوم فتزين فيه الكنائس . كما يحتفلون عقب عيد الفصح بثمانية أيام بعيد حد الحدود فى أول حد بعد الفطر وفيه " يجددون الآلات وأثاث البيوت ومنه يأخذون فى الاستعداد للمعاملات والأمور الدنيوية (٣) .

ومما سلف يتضح لنا أن القبط فى الفسطاط تمتعوا بحرية تامة فى الاحتفال بأعيادهم الدينية ، وشاركهم المسلمون بعض هذه الاحتفالات من الجانب الاجتماعى السلى منها كالاحتفال بعيد وفاء النيل وعيد الغطاس بعد أن كانت أعياد دينية فقط .

---

(١) القلقشندى : صبح الأعشى ج ٢ ص ٤١٧ .

(٢) القلقشندى : ص ٤١٧ ـ ٤١٨ أن القساوسة فى بيت المقدس يعلقون القناديل فى بيت المذبح ويمدوا عليه شريطا دقيقا من الحديد دهن بالبلسان والزئبق وهما سريعا الاشتعال فاذا صلوا جاء وقت الزوال فتحوا المذبح فيدخل الناس اليه وقد اشتعلت فيه الشموع ثم تشعل النار خفية فتسرى عليه فتتقد القناديل واحدا بعد واحد فيظن الحاضرون أن النار نزلت من السماء فأوقدت القناديل .

(٣) القلقشندى : صبح الأعشى ج ٢ ص ٤١٨ .

أما بالنسبة لأعياد المسلمين فانه من المعروف أن العيدان الدينيان عند المسلمين هما عيد الأضحى وعيد الفطر . الا أن المصادر لم تذكر شيئا عن الاحتفال بهما بشئ من مظاهر الأبهة فى الفسطاط قبل عهد العباسيين الذين اهتموا الى جانب الاحتفال بهذين العيدين بالاحتفال بذكرى المولد النبوى الشريف ، بعد أن كان ذلك بدعة فى نظر المتمسكين بالعادات الاسلامية الأولى . (١)

وقد اهتم أمراء الدولة الطولونية بالاشتراك فى الاحتفال بعيد الفطر وعيد الأضحى بتلاوة القرآن والتسبيح واقامة الولائم .

وفى عهد الاخشيديين كانت الحكومة تشترك فى الاحتفال بعيد الفطر فيقوم الجيش عرضا كبيرا حيث " يجلس الأمير فى منظرة على باب دار الامارة ويمر الجند أمامه فى كامل زيهم وعدتهم ثم يتبعهم حرسه الخاص ثم ينصب السماط لأفراد الشعب فيأكلون ويحملون ما يريدون من ألوان الطعام " (٢) .

وكانت العامة تستعد للاحتفال بهذا العيد منذ أواخر شهر رمضان بشراء ما يحتاجون اليه من ثياب وطعام . وكان كافور فى عيد الأضحى يسلم أحد رجاله ويدعى أبو بكر المحلى بغلا محملا بالذهب وجريدة تتضمن أسماء بعض الأشخاص لتوزع عليهم هذه الأموال ويصف أبو بكر ذلك بقوله : " كان يمشى معى صاحب الشرطة ، ونقيب يعرف المنازل وأطوف من بعد العشاء الأخيرة الى آخر الليل حتى أسلم ذلك الى من تضمنت اسمه الجريدة ، فأطرق منزل كل انسان ما بين رجل وامرأة وأقول : الأستاذ أبو المسك كافور الاخشيدى يهنئك ويقول لك : اصرف هذا فى منفعتك . " (٣)

---

(١) متز : الحضارة الاسلامية ج ٢ ص ٢١٨ ،
د . محمد جمال الدين سرور : تاريخ الحضارة الاسلامية فى الشرق ص ١٨٤ .

(٢) ابن سعيد : المغرب ص ١٦

(٣) المصدر السابق ص ٣٤ .

ولا شك أن مشاركة الولاة للأفراد في الاحتفال بهذين العيدين كان يضفي جوا من البهجة على المجتمع في ذلك الوقت كما كان الاثرياء يقدمون هدايا من المال حين يزورون الفقراء (١) .

أما الاحتفال برأس السنة الهجرية فلم يكن عيدا ذا صفة شعبية عامة بل ظل عيدا في قصر الخلافة ودار الامارة في الفسطاط وان اعتاد الناس أن يهادوا بعضهم بعضا فيه (٢) .

كما كان الاحتفال بشهر رمضان الذي يبدأ باستطلاع رؤية الهلال والاحتفال بظهوره يحتل جانبا هاما من الاحتفالات الاسلامية (٣) . فكان قاضي الفسطاط يخرج لرؤية الهلال والناس معه كما سيأتي ذكره عند الحديث عن المواكب العامة والاحتفالات .

المواكب العامة والاحتفالات :

كانت هناك الى جانب أعياد القبط والمسلمين مناسبات أخرى تحتفل بها الحكومة والناس معا وتحاط بمظاهر العظمة والابهة . كالاحتفال برؤية هلال رمضان الذي يصفه الكندي بقوله : " خرج عبد الله بن لهيعة في نفر من أهل المسجد تعرفوا بالصلاح فطلبوا الهلال فكانوا يطلبونه بالجيزة ، فهو أول القضاة حضر في طلب الهلال ثم تعدوا الجسر في زمن هاشم بن أبي بكر البكري وطلب الهلال في جنان ابن أبي حبش ثم كانت القضاة على ذلك حتى كان ابن أبي الليث في طلبه في أصل المقطم . " (٤)

---

(١) ابن زولاق : أخبار سيبويه المصري ص ٣٣ ـ ٣٤

(٢) المقريزي : الخطط ج ١ ص ٤٩٠ ـ ٤٩٣ ، متز : الحضارة الاسلامية ج ٢ ص ٢١٧ .

(٣) الكندي : الولاة والقضاة ص ٣٧٠

(٤) الكندي : الولاة والقضاة ص ٣٧٠ .

وهكذا كان القاضي يذهب بصحبة جماعة من كبار الشيوخ لرؤية الهلال عند سهل المقطم ، وكان هذا الاحتفال من أهم ما شارك به الولاة في الفسطاط الأفراد فضلا عن الاحتفال بالعيدين الفطر وعيد الأضحى .

ولم تعرف الفسطاط خلال عصر الولاة الأمويين والعباسيين تلك المواكب والاحتفالات الرسمية التي شهدتها بقدوم أحمد بن طولون .

ذلك أن أحمد بن طولون حين جعل لنفسه كيانا مستقلا وشخصية متميزة قلد كثيرا من مظاهر الملك فكان هو وابنه خمارويه يخرجان في مواكب رسمية حافلة للصيد أو التنزه أو الاحتفال بعيد من أعياد الدولة .(١) " وكان يزيد من هيبته أولاد الحوف وشناترة الضياع وكانوا من قطاع الطرق ضخام الأجسام .. اتخذهم حرسا له ، وكانوا يلبسون الأقبية وجواشن الديباج يتمنطقون بالمناطق العريضة الثقيلة ، ويتقلدون السيوف المحلاة ويسير خلفهم طوائف العسكر المختلفة يتلوهم ألف من السودان لهم درق من حديد محكم الصنع وعليهم الأقبية والعمائم السود فيخالهم الناظر بحرا أسود لسواد لونهم وسواد ثيابهم ، ويزيدهم بهاء درقهم ووهج سيوفهم والبيض التي تلمع على رؤوسهم من تحت العمائم فاذا مضى السودانيون قدم خمارويه وسار منفردا عن موكبه بمقدار نصف غلوة سهم ويحف به حرسه المختار وهو ممتط فرسا فاذا سار الناس جميعا وبينهم الجند في صمت عميق وكأن على رؤوسهم الطير " .

---

(١) المقريزي : الخطط ج ١ ص ٣١٨ .

كما كانت حلقات السباق التى كانت تقام فى عهد خمارويه لا تقل عن الاعياد بهجة واحتفالا حيث يركب الجند والعسكر بالسلاح وكان الناس يجلسون لرؤيتها كما يجلسون فى الاعياد .

كما كان الاخشيد يخرج فى موكب عظيم للعرض ليلة عيد الفطر وقد ذكر ابن سعيد (١) ما نصه : "ولما كان آخر شهر رمضان ركب الاخشيد .. فحضر ختم الجامع وصلى وأوتر وهو فى وجوه عبيده فى دراغة بياض ، ومن بين يديه مائة فراش بحاملة شمعة ثم أصبح الناس للعرض وجلس فى المنظرة التى على باب دار الامارة ومرت العساكر ، فلما انفض العساكر ركب غلمانه فى أحسن زى بالتجافيف (٢) والحواشى الى العشاء ."

وكانت هناك أيام خاصة لعرض الجيش ، فكان ولاة الطولونيين يخرجون فى ذلك اليوم فى موكب حافل فيمتطى الوالى حصانا مطهما ويتقلد سيفا ، وتفتح أبواب القصر على مصراعيها ، ويخرج منه الوالى من باب خاص فى الوسط ويسير فى موكب تحفه المهابة وتعلوه العظمة ، واذا جاء العصر جلس الوالى فى مجلس خاص يشرف منه على النظام المتبع فى توزيع الصدقات . وكانت تنصب الموائد وتقام الولائم فى العهد الطولونى ، فيجتمع كبار رجال البلاط والخاصة من قوادهم ورجال الوفود القادمة من بغداد وسامرا .

---

(١) ابن سعيد : المغرب ص ١٢

(٢) الدراعة : جبة مشقوقة . التجافيف : آلة للحرب تلبس كالدرع
زكى محمد حسن : كنوز الفاطميين ص ٥٦ ،

Dozy : Dictionnaire des Noms des Vetements pp. 171, 178

وفى عهد الاخشيديين كان عرض الجند يتم بعد استعدادات كبيرة فيظهر القواد والجند بمظهر غاية فى الفخامة ويجلس الاخشيد فى المنظرة على باب دار الامارة ، فاذا انتهى العرض ركب غلمانه وهم اذ ذاك مزودين بالدروع .

كما كانت الحكومة فى العصر الاخشيدى تشارك فى الاحتفال بفتح الخليج (١) وكان الاخشيد يخرج فى موكب رائع ليلة التاسع والعشرين من رمضان ليحضر الختم والدعاء فى جامع عمرو . (٢) وكان الأمراء الاخشيديون يخرجون لصلاة الجمعة فى موكب كبير ويصطف العامة على الجانبين لمشاهدته ، وان كان البعض يكره تلك المواكب لأنها تصرف الناس وتشغلهم عن أعمالهم (٣) . وقد انتقد سيبويه المصرى ازدحام الناس حول موكب الاخشيد الى صلاة الجمعة وعبر عن ذلك بقوله : " هذه للأصلع البطين المسمن البدين أما كان يكفيه صاحب ولا صاحبان ، ولا حاجب ولا حاجبان ولا تابع ولا تابعان . " (٤) فهو ينتقد كثرة عدد المحيطين بموكب الاخشيد من الاتباع والأصحاب والغلمان ، مما يدل على فخامة تلك المواكب وعظمتها .

---

(١) المقريزى : الخطط ج ١ ص ٤٧٠ ، ٤٩٣ ،
القلقشندى : صبح الأعشى ج ٣ ص ٥١٨ ، ٥٢١ ، ج ٨ ص ٣٢٨ ، ٣٣٠ . (٢) ابن سعيد : المغرب ص ٣٥ .
(٣) ابن زولاق : أخبار سيبويه المصرى ص ٢٨
(٤) المصدر السابق ص ٢٨ ،
د . سيدة الكاشف : مصر فى عهد الاخشيديين ص ٣٢٢ .

وسائل اللهو في المدينـــــة

==

ذكر أبو المحاسن (١) أنه في السنة الثالثة من ولاية قرة بن شريـــــك توفي بمصر " طويس المغنى صاحب الألحان ، وهو أول من غنى بالألحان في الاسلام ". وهذا ان دل على شيء فانما يدل على ازدهار فن الغناء بالفسطاط ولم يصلنا الشعـــر الخاص بمجالس الخمر في عصر الولاة ، لكن الكندي (٢) يشير الى أن العلويـــين حين خرجوا بمصر أيام الوالي يزيد ابن حاتم أرسل الوالي الى أصحابه فجعلوا يأتونـه سكارى فقال لهم : " ان نضوحكم الليلـة لكثير " وخشى الوالي على بن سليمان عاقبـة انتشار الخمر بين المسلمين فأمر بمنع الملاهي والخمور في أيامه (٣) .

كما كان بالفسطاط خلال عصر الولاة قيان ومغنون فيحدثنا الكنـــــدى أن القاضي العمرى " كان يحدو بأطراف الغناء على مغاني أهل المدينة ويبرز كثيرا في مجالسه ولا يتحاشى أن يقول هذا غنى به ابن سريج وهذا جيد غناء الغريض ، ولم يكن بمصر مسمعة الا ركب اليها وسمع غناءها ، وربما قوم ما انكسر من غنائها . (٤)

وقد هجاه خصومه لذلك ، وأخذوا عليه باعتباره قاضيا كلفه بالغناء واعجابــه بسماع العود والمزمار وشرب الخمر في حين أن خلفاء العباسيين في بغداد كانـــوا يلهون ويمجنون ويظهرون اللهو والمجون ويشاركهم في هذه الحياة الشعراء والندماء .

---

(١) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة جـ ١ ص ٢٢٥

(٢) الكندى : الولاة والقضاة ص ١١٣

(٣) المصدر السابق نفس الصفحة

(٤) الكندى : الولاة والقضاة ص ٣٣٩ .

وخلال عصر الطولونيين والاخشيديين سجل لنا الشعراء كثيرا من ألوان اللهو والمجون الذى شهدته تلك الفترة ، فاذا كانت جماعة أبى نواس قد أخذت شهرتها فى بغداد فقد ظهرت فى الفسطاط جماعات من هذا النوع كثيرة ، ساعد على وجودها بذخ الأمراء واسرافهم وأخذهم بحياة النعيم ، وشرب الخمر والاسراف فيها وسماع الغناء . فعلى الرغم مما ذكره المقريزى من تمسك أحمد بن طولون بالدين حيث اتخذ لنفسه حجرة " يقربه فيها رجال سماهم المكبرين يبيت منهم فى كل ليلة أربعة يتعاقبون الليل يكبرون ويسبحون ويقرأون القرآن تطريبا بالالحان ويتوسلون بقصائد زهدية " . الا أن خمارويه كان يجلس للشرب مع خطاياه فى الليل " وقيانه تغنين فاذا سمع أصوات هؤلاء يذكرون الله والقدح فى يده وضعه بالأرض وأسكت مغنياته (١) .

هذا فضلا عن أن أحمد بن طولون كان يخرج مبكرا كل يوم لسماع قراءة الائمة فى المحراب وكان يشرب الخمر ويسمع الغناء وكان " كثيرا " المغنى الخاص لابن طولون (٢) .

كما عرف خمارويه باللهو والمجون والبذخ فى الحياة والاسراف فى الشراب حتى أنه كان يشرب " أربعين رطلا من نبيذ مصر المعروف بالشبروى " ومن يشرب منه رطلا يستطيع أن يشرب من غيره أرطالا " . (٣)

---

(١) المقريزى : الخطط ج ٢ ص ١٠٩

(٢) يذكر ابن الدايه أن أحمد بن طولون قال لكثير المغنى " اشتهى صوتا ما سمعته منذ خرجت من سر من رأى فقال وما هو ياسيدى فقال هذا البيت :

ألا شفيتم غليلا لا أفارقه نفس فؤادك من ذى غله صادى

فحملنى النبيد وما استهوانى من تقريب ابن طولون وايناسه على أن قلت : أنا أحسنه نفرح ابن طولون واندفعت أغنية اياه فطرب طربا شديدا ثم صفق بيديه فسبقته الى سخف الطرف وقمت فرقصت على ايقاع اللحن فزاد سروره . " سيره ابن طولون ص ٨٠

(٣) التنوخى : نشوار المحاضرة ص ٢٦١ .

كما كثرت مجالس الغناء فى عهد أولاد أحمد بن طولون حيث كانت تقام الحفلات وتجمع الجوارى وتنثر الدنانير الذهبية على المغنيات (١) .

ومن الالات الموسيقية التى عرفت فى أيام الطولونيين العود والدف والصاجات النحاسية ، وتوضح الصور الخشبية البارزة التى اتخذها خمارويه ، والتى تمثله ومغنياته فى أشكال بلغت حد البهاء والدقة مدى اهتمام الطولونيين بالغناء والموسيقى كأحد وسائل اللهو .

كما يذكر ابن سعيد (٢) أن محمد الماذرائى الذى تولى الوزارة فى عهد الاخشيد "أقام مأدبة جمع فيها المغنيين من الرجال والنساء ." كما كان الناس يتجلون فى مجالسهم الخاصة ومآدبهم على سماع المغنيين والمغنيات وان كان بعض أهل الورع والتقوى من الفقهاء يتحرجون من سماع الغناء (٣) .

وقد شارك الشعراء أمراءهم فى هذا اللهو فكانوا يجلسون فى جلسات سمر يتبادلون الشعر والغناء . فالشاعر المصرى عبدالله بن محمد بن أبى الجوع من شعراء الاخشيديين ، صادق أبى الطيب المتنبى فى مصر ، ودعا بعض اخوانه لتلك الجلسات فى قصيدة بقوله :

اما غناء واما عجائب عنه تروى (٤)

---

(١) المقريزى : الخطط ج ١ ص ٣٣

(٢) ابن سعيد : المغرب ص ٢٩

(٣) الثعالبى : يتيمة الدهر ج ١ ص ٣١٤

(٤) الشابشتى : الديارات ورقة ١٢٦ مخطوط بدار الكتب رقم ١٧٥٦ .

وكان كافور من محبي مجالس الغناء ، ويروى ابن سعيد (١) أنه أمر بجماعة من السودان كانوا يضربون على الطبول .

وكان الشعراء وغيرهم من أصحاب اللهو يذهبون الى الأديرة مثل دير القصير ودير نهيا ، ودير مارحنا ، ويصفون نزهتهم بها ولهوهم . فقد ذكر أحد شعراء الاخشيديين وهو أبو هريرة بن أبى العصام :

كم لى بدير القصير من قصف مع كل ذى صبوة وطرف

وكان يقرب دير مارحنا على شاطئ بركة الحبش بئر تعرف ببئر نجاتى عليها جميزة يجتمع الناس اليها ويشربون عندها (٢) .

ويذكر الشابشتى أن ابن البصرى وهو أحد شعراء الاخشيديين كان يذهب الى هذا الدير " فكان اذا سار مع أقوام من اخوانه قال لهم : صفوا لى موضعكم حتى ألحق بكم ، وكان مليح المجالسة كثير النادرة . "

---

(١) ابن سعيد : المغرب ص ٤٨ كما يذكر أن الاخشيد سخط مرة على " مقبل " المغنى فحبسه فطلب من الفقيه أبى بكر الحداد أن يشفع فيه عند الأمير وقبل الاخشيد شفاعته ، ووعد بأن يطلق سراح المغنى ويبعث به الى ابن الحداد ، فلما انصرف ابن الحداد دعا الاخشيد مقبلا فقال له : وتربة طغج لئن خالفتنى لاردتك الى الحبس فقد شفع فيك ابن الحداد فخذ العود فامض وغن له فركب مقبل الى ابن الحداد بالعود فدخل اليه وشكره وقال له : " قد أمرت بأمر لا أدرى والله كيف أفعله ففطن ابن الحداد وقال : والله ما سمعت قط الا فى دور الناس مقبل ، وجاء الى دار الاخشيد وحلف أنه حمل العود . " ابن سعيد : المغرب ص ٢٨ .

(٢) الشابشتى : كتاب الديارات ورقة ١٣٠ مخطوط بدار الكتب رقم ١٧٥٦ .

وقد وصف دير طرخنا بقوله :

يا حامل الكأس أدرها واسقني   فقد ذعر الشوق فؤادى فانذعر
أما ترى البركة ما أحسنها   اذا تداعى الطير فيها فصفر (١)

كما وصف ابن فضل الله العمرى " دير نهيا " بالقرب من الجهزة حيث كان يخرج اليه كثير من أهل الفسطاط بقوله انه " من أطيبها موضعا برهبانه وسكانه ، وله فى النهل منظر عجيب لأن الماء يحيط به من جميع جهاته ويزيد فى حسن متنزهاته ، فاذا تصرف الماء أظهرت أرضه غرائب النوار وعجائب الزهور المشرقة الانوار وله خليج ينساب انسياب أرقم وعليه شطوط كأنها بالديباج ترقم ". (٢)

كما وصف الشعراء مجالس الخمر واللهو بل كانوا يتهاونون بالدين فى بعض أشعارهم (٣). اذ انهمك شعراء الاخشيديين فى وصف اللذات واللهو ومجالس الخمر فان ذلك صورة للمجتمع فى ذلك الوقت من انغماس فى اللهو بتشجيع من أمراء البلاد ،

---

(١) الشابشتى : كتاب الديارات ورقة ١٢٨ .
(٢) ابن فضل الله العمرى : مسالك الابصار ج ١ ص ٣٦٢ وقد وصف ابن البصرى هذا الدير بقوله :

يا للديارات الملاح وما بها   من طيب يوم مر لى بتشوق
يا دير نهيا ما ذكرتك ساعة   الا تذكرت الشباب بمفرقى

(٣) قال شاعر الاخشيد الشهير سعيد بن فاخر المعروف بقاضى البقر :

حى على الكأس فى الصباح   مطرحا نصح كل لاح
يارب دعنى بلا صلاح   يارب ذرنى بلا فلاح

ابن سعيد : المغرب ص ١٠٣ .

ذلك لأن الشعراء الذين صدر عنهم هذا الشعر كانوا على صلة وثيقة بالأمراء الذين أرادوا أن يتمثلوا بالخلفاء العباسيين فى لهوهم واسرافهم ، وشاركهم الشعراء والكتاب ذلك .

كما عرفت الفسطاط أنواع مختلفة من وسائل اللهو كان أهمها الرياضة ومن بينها اللعب بالصوالجة وهى " ضرب الكرة من فوق ظهور الخيل والاجادة فيها أن يضرب اللاعب الكرة ضربا متصلا وأن يتوخى الضرب للكرة تحت مخزوم الدابة من قبل لبتها فى رفق وألا يستعين بسوط وألا يؤثر فى الأرض بالصولجان أو يكسره أو يعقد قوائم دابته وأن يراعى عدم ايذاء من يجرى معه فى ميدان اللعب ، وأن يحسن الكف للدابة فى شدة جريانه وأن يتجنب طرد النظاره والجالسين على حيطان الميدان ، وذلك كان عرض الميدان ستون ذراعا حتى يتسع للجرى وللمشاهدين " (١)

وقد اهتم ابن طولون بهذه اللعبة فجعل فى قصره ميدانا فسيحا خصصه لهذه الرياضة ، كما عنى بحلبات السباق فخصص مكانا لعرض الخيل سماه المنظر ، وصف ابن قتيبة (٢) هذا العرض بقوله : " انه من عجائب الاسلام الأربعة وهى : هذا العرض ورمضان بمكة ، والعيد بطرسوس ، والجمعة ببغداد ".

وكانت طلبات السباق عند الطولونيين بمثابة الأعياد لما كان يصحبها من اقامة الزينة وركوب الغلمان والعساكر بالعدد الكاملة ، وكان الناس يجلسون لمشاهدة

---

(١) ابن قتيبة : عيون الأخبار ص ١٦٦ ـ ١٦٧ ،
متز : الحضارة الاسلامية ج ٢ ص ١٩٠
(٢) المصدر السابق نفس الصفحة .

السباق فاذا حان وقته أطلقت الخيل الى غايتها ، وقد أشاد كل من المقريزى وأبى المحاسن بتلك الحفلات الرياضية الطولونية وأعجبوا بنظامها وترتيبها (١) . كما أجرى الاخشيد حلبة سباق تشبهها بالطولونيين . غيرأن الفقهاء اشترطوا ألا يلعب طلبا للمال الا أنه فى عام ١٩٠ هـ / ٨٠٦ م كان السابق يأخذ حصان المسبوق (٢).

كما كان الصيد من الرياضات المحببة الى وجوه القوم فى عهد الاخشيديين يقول ياقوت (٣) : " كان الوزير جعفر بن الفضل بن الفرات يهوى النظر الى الحشرات من الافاعى والحيات والعقارب .. وكان فى داره قاعة لطيفة مرخمة فيها سلل الحيات لها قيم فراشا حاو من الحواة ومعه مستخدمون برسم الخدمة ، ونقل السلل وحطها وكان كل حاو فى مصر وأعمالها يصيد له ما يقدر عليه من الحيات ويتباهون فى ذوات العجب من أجناسها . "

كما يذكر المقريزى أن خمارويه كان لا يسمع بأسد الا بعث فى طلبه حتى أنه بنى فى قصره موضعا للسباع وعمل به بيوتا لهم (٤) . وكانوا يذهبون للصيد عند منطقة الاهرام فاذا رأوا أسدا هم عليه رجال باللبود فيمسكون به وهو سليم ثم يضعونه فى قفص من خشب محكم الصنع وعند العودة تجتمع العامة لمشاهدة الاسد .

---

(١) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة جـ ٣ ص ٦٠

(٢) الكندى : الولاة والقضاة ص ٤٥٢ — ٤٥٣

(٣) ياقوت الحموى : معجم البلدان جـ ٧ ص ١٧٠ — ١٧١ ،

(٤) المقريزى : الخطط جـ ٢ ص ٣١٩ .

وكان من بين وسائل اللهو أيضا اللعب بالخيال ، فكان الناس يخرجـــــون في بعض الأعياد ويطوفون الشوارع (١) بالخيال والتماثيل والسماجات .
كما كان هناك مقلدون يسمى الواحد منهم الحاكية ، وكان التقليد والمحاكاة أحد وسائل التسلية التى كان يفضلها سكان الفسطاط (٢) .

---

(١) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة جـ ٢ ص ٦٠

(٢) الشابشتى : كتاب الديارات ورقة ١٥ مخطوط بدار الكتب .

عيوب المجتمع في الفسطاط

والمجتمع الفسطاطي رغم الصور الجميلة التي أشرت اليها كانت له عيوبه شأن المجتمعات الأخرى .

ولعل من أبرز عيوب هذا المجتمع في الفسطاط ظاهرة انتشار حانات الخمور والملاهي ، هذا وان لم تشر المصادر صراحة الى وجودها الا أن الأوامر المتكررة من الولاة باغلاقها توحي بمدى انتشارها (١) خلال القرنين الأول والثاني الهجريين . فكان بعض الأمراء يعقدون مجالس الشراب واللهو ، ويذكر التنوخي (٢) أن خمارويه اذا " قعد للشرب يشرب أربعين رطلا من نبيذ مصر المعروف بالشبروي ومن يشرب منه رطلا يستطيع أن يشرب من غيره أرطالا . "

وكذلك كان بعض رجال القضاء مولعين بالغناء والطرب واللهو فيذكر الكندي (٣) أن القاضي العمري بلغ من حرصه على حضور مجالس الغناء والطرب للمغنيين والمغنيات أنه ربما " قوم ما انكسر من غنائهم ".

---

(١) يذكر الكندي أن أيوب بن شرحبيل ٩٩ هـ — ١٠١ هـ أمر بتعطيل حانات الخمور فكسرت بأمر عمر بن عبد العزيز وفي ولاية علي بن سليمان ١٦٩ هـ — ١٧١ هـ أمر باغلاق الملاهي ومنع بيع الخمور . " الولاة والقضاة ص ٦٨ ، أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ١ ص ٢٣٨ ، ج ٢ ص ٦٢ ، ١٣٢ . كما يذكر الكندي أن العلويين " خرجوا بمصر أيام الوالي يزيد بن حاتم فأرسل الى أصحابه فجعلوا يأتونه سكارى فقال لهم : ان نضوعكم الليلة لكثير . " الولاة والقضاة ص ١١٣ .

(٢) التنوخي : نشوار المحاضرة ص ٢٦١ .

(٣) الكندي : الولاة والقضاة ص ١١١

وكان يحدث أثناء الاحتفال ببعض الأعياد القبطية الكثير من ضروب المنكر والمحرمات وذكر المقريزى عند حديثه عن الاحتفال بعيد الشهيد ما نصه : " يخرج عامة أهل مصر على اختلاف طبقاتهم وينصبون الخيم على شطوط النيل ، وفى الجزائر ولا يبق مغن ولا مغنية ولا صاحب لهو ، ولا رب ملعوب ولا بغى ولا مخنث ولا ماجن ولا خليع ولا فاتك ولا فاسق الا ويخرج لهذا العيد فيجتمع عالم عظيم لا يحصيهم الا خالقهم وتصرف أموال لا تنحصر ، ويتجاهر هناك بمالا يحتمل من المعاصى والفسوق وتثور فتن وتقتل أناس ويباع من الخمر خاصة بما يزيد على مائة ألف درهم فضة . " (١)

كما يذكر أن سوق الشماعين كان يضاء ليلة الاحتفال بعيد الغطاس باضاءة كثيرة " وتفتح حوانيته أبوابها الى نصف الليل وكان يجلس فيها البغايا ويطلق عليهن اسم " زعيرات الشماعين) يرتدين ملابس خاصة تميزهن وهى ملاءات الطرح ، وفى أرجلهن سراويل ذات لون أحمر . " (٢)

وهذه الصورة التى يقدمها المقريزى عما يحدث أثناء الاحتفالات القبطية تدل على مدى انحلال بعض عناصر المجتمع فى الفترة التى عاصرها المقريزى وهى وان كانت فترة متأخرة الا أنها توضح لنا ما كان يصاحب تلك الأعياد من مظاهر الفسق ، وبالتالى يمكننا فى ضوء ما ذكره المقريزى وما ذكره الكندى ومن النصوص التى أشرنا اليها أن تقرر أن مجتمع الفسطاط مع اضطراد نموه واتساعه فقد بساطته الاولى وعرف الكثير من ضروب اللهو . وهو فى هذا ليس بفريد فتلك شيمة جميع المجتمعات المتطورة .

---

(١) المقريزى : الخطط جـ ١ ص ٦٨ ـ ٦٩

(٢) المصدر السابق جـ ٢ ص ٩٦ .

ومن الغريب أن المقدسى (١) حين زار الفسطاط أشار الى أن " مشايخها لا يتورعون عن شرب الخمور ، ولا نساؤها عن الفجور " قد يكون فى قوله هذا كثيرا من المبالغة ، ولكنه يصور لنا انحراف المجتمع الفسطاطى فى عصره .

كما عرف المجتمع فى الفسطاط بعض مظاهر الشذوذ الأخرى متمثلا فى جماعات المؤنثين فيذكر الكندى (٢) أن " يزيد بن عبدالله حين قدم مصر أمر بسجن المؤنثين ونفيهم ، كما أمر تكين فى يوم الاحتفال بعيد النيروز بجمعهم وأمر بالتشهير بهم فى شوارع الفسطاط وسط أصوات الطبول والمزامير " .

كما كانت الأديرة التى تنتشر بالقرب من الفسطاط مقصد الكثيرين للتنزه والتسلية حتى فى غير أيام الأعياد ليس فقط بين القبط أو اليهود بل والمسلمين أيضا ، فيجتمع فى قاعات شرابها وبساتينها أهل البطالات واللهو (٣) . وقد أمر خمارويه بأن تبنى لهم فى أعلى دير القصير طبقة لها أربع طاقات على الجهات الأربع (٤) .

كما عرف مجتمع الفسطاط الميسر كأحد وسائل اللهو والتسلية متمثلا بصورة خاصة فى الرهان على سباق الخيل رغم أن الفقهاء قد اشترطوا " ألا يلعب طلبها للمال " (٥) وكان الولاة يصدرون الكثير من الأوامر بتعطيل حلقات سباق الخيل . (٦)

---

(١) المقدسى : أحسن التقاسيم ص ٢٠٠

(٢) الكندى : الولاة والقضاة ص ٢٠٢ ، ٢٠٣ ، ص ٢٦٩

(٣) الشابشتى : كتاب الديارات ص ١٨ أ مخطوط بدار الكتب

(٤) أبو صالح الأرمنى : تاريخ الشيخ أبو صالح الأرمنى ص ١٤٩ أ

(٥) الكندى : الولاة والقضاة ص ٤٠٢ ، ٤٠٣

(٦) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٢ ص ٣٠٩ ، الكندى : الولاة ص ٢٠٣ .

وكانت مراقبة دور القمار ومنعها من أهم مهام المحتسب (١) ، وكان بالفسطاط شيوخ يسمون " المطعمين " لهم راتب من دور القمار ليجلبوا الناس اليها ويطمعونهم فى اللعب (٢) . وقد ذكر ابن سعيد أن الاخشيد أمر بهدم دور القمار والقبض على من بها وكان من بينهم شيخ مقامر (٣) .

كما كانت الرشوة من بين عيوب المجتمع فى الفسطاط فيحدثنا الكندى فى أكثر من موضع عن قضاة وولاة يرتشون ويعمون عن الحق ، فيذكر أن موسى بن مصعب والى مصر من قبل المهدى " عاد الى الرشوة فى الاحكام وجعل خراجا على الأسواق (٤) .

---

(١) الماوردى : الأحكام السلطانية ص ٤٠٤ طبعة انجرو .

(٢) ابن سعيد : المغرب ص ٣٠ ، الكندى : الولاة والقضاة ص ٢٩٧ ؟

(٣) يذكر ابن سعيد : المغرب ص ٣٠ أنه " أدخلت على الاخشيد جماعة من المقامرين وعرضوا عليه وفيهم شيخ له هيئة فقال : هذا الشيخ مقامر ؟ فقالوا : هذا يقال له المطمع فقال الاخشيد : وايش المطمع قالوا : هو سبب عمارة دار القمار ذلك أن الواحد اذا قمر ما معه قال له : العب على ردائك فلعلك تغلب فاذا ذهب رداؤه قال له : العب على قميصك حتى تغلب به كل شىء حتى يبلغ الى نعليه وربما اقترض له ولهذا الشيخ جراية يأخذها على ذلك كل يوم من متقبل دار القمار فضحك الاخشيد وقال : ياشيخ تب الى الله وحده من هذا فتاب وأمر له الاخشيد بثوب ورداء وألف درهم وقال يجرى عليه فى كل شهر عشرة دنانير فانصرف الشيخ شاكرا ، فقال الاخشيد : ردوه وقال : خذوا ما أعطيناه وابطحوه فضربه مائتى عصا ثم قال : خلوه أين هذا من تطميعك . "

(٤) الكندى : الولاة والقضاة ص ١٢٥ .

وفى عهد الاخشيديين كان كبار المشرفين على الادارة المالية يختلسون أموال الدولة بما يقدمون من بيانات زائفة عن أوجه الصرف حتى يتمكنوا من جمع الاموال لاعطائها رشوة للوزراء ورجال البلاط وسائر كبار الموظفين (١) .

وكان الامن فى مدينة الفسطاط يضطرب أحيانا وكانت الفوضى تصل بالمدينة الى الحد الذى يصفه أبو المحاسن عند قدوم يحيى بن داود من قبل المهدى سنة ١٦٢ هـ / ٧٧٨ م بقوله : " وجد السبل بها مخيفة لكثرة المفسدين وقطاع الطرق فأخذ أبو صالح هذا فى اقماع المفسدين وأبادهم وقتل منهم جماعة كثيرة ، فعظمت حرمته ، وتزايدت هيبته فى قلوب الناس .. فكان يمنع الناس من غلق الدروب والابواب وغلق الحوانيت حتى جعلوا عليها شرائح القصب لمنع الكلام من دخولها فى الليل وهو أول من صنع ذلك فى مصر فكان ينادى فى مصر ويقول : " من ضاع له شىء فعلى أداوءه ، ومنع حراس الحمامات أن يجلسوا فيها وقال من راح له شىء فأنا أقوم لديه من مالى فكان الرجل يدخل الحمام فيضع ثيابه ثم يقول يا أبا صالح أحرس ثيابى ثم يدخل الحمام ولم يكن به حارس ، ويقضى حاجته على مهل ويخرج فيلقى ثيابه كما هو لا يجسر أحد على أخذها ." (٢)

فهذا النص بقدر ما يوضح مدى استتباب الامن فى ولاية يحيى بن داود يعطينا صورة من صور الفوضى التى سادت فى الفترة التى سبقت ولايته من السرقه وقطع الطرق والقتل ، وانعدام شعور الناس بالامن . والواقع أن ما حدث فى عهده من استتباب للامن كان نتيجة لصرامته فى تنفيذ العقوبات والضرب على أيدى المفسدين .

---

(١) هلال الصابى : تاريخ الوزراء ص ٣١١ ـ ٣٢١ ، ابن الاثير : الكامل فى التاريخ جـ ٨ ص ٥٤ ، أبو المحاسن : النجوم الزاهرة جـ ٣ ص ٢١٣ .

(٢) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة جـ ٢ ص ٤٤ .

وفى عهد الطولونيين لم يكن الأمن دائما مستتبا رغم قوة الدولة وهيبتها وهيمنتها على زمام الأمور ، فقد عرف نوع من المجرمين استخدموا نباتات خانقة فى تهديد ضحاياهم حتى يسلبوهم ما يملكون (١) . فضلا عن استبداد الجند واتباع الأمراء .

ورغم استتباب الأمن فى عهد الاخشيديين بصورة لم تعهدها الفسطاط منذ فترة طويلة ، الا أن السكان كانوا يعانون من عسف الجند وما يقومون به من السلب والنهب فقد أصبحت الفسطاط مرتعا للجيوش العديدة التى وفدت اليها من بغداد لقتال الفاطميين والدفاع عنها .

ويقودنا الحديث عن الأمن وعن الخارجين عليه الى الحديث عن السجون رغم أن المصادر لا تكاد تذكر شيئا عنها خلال عصر الولاة ، الا أننا نعلم أن أحمد بن طولون ترك ثمانية عشر ألف شخص يهلكون بداخلها (٢) . وقد عهد أحمد بن طولون لموظف كبير ممن خدعوه وكسبوا ثقته بادارة السجون وهو أبو مصلح موسى الذى يذكر ابن الدايه أنه أخذ مائة دينار رشوة نظيرا اطلاق سراح أحد المسجونين ثلاثة أيام ليمكنه من الاتصال بشخص يسعى له فى الافراج عنه، أحمد بن طولون .

---

(١) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة جـ ٢ ص ٤٤ .

(٢) متز : الحضارة الاسلامية جـ ١ ص ٥٤ .

خاتمـــــــــة

==

هكذا كانت صورة الحياة الاقتصادية والاجتماعية فى مدينة الفسطاط منـــــذ تأسيسها وخلال عصرى الولاة الأمويين ثم العباسيين حتى نهاية عهد الاخشيديين •

يتضح لنا من خلالها أن عمرو بن العاص أدرك أهمية الموقع الذى اختـــاره لعاصمة مصر الاسلامية حيث يسهل منه الاتصال بين مصر ومقر الخلافة وكذلك بين أنحاء مصر كلها بعد أن فقدت الاسكندريـة كل ميزاتها كعاصمة على أثر تبعية مصر لبـــلاد العرب •

وقد طبع العرب الفسطاط بطابعهم القبلى فاستقروا على شكل قبائل اختطت كل قبيلـة لنفسها خطـة مستقلة حول مسجد عمرو قلب المدينة ومحورها • وكان العـرب القحطانيون يشكلون الغالبيـة العظمى من سكان الفسطاط ،وكانت قبائل قريش أكثـر القبائل العدنانيـة وكان مجموع القبائل كلها مائتين وأربعة وأربعين قبيلـة •

وبينا أن الموضع الذى نزل به جند العباسيين الذى سمى العسكر فى ذلـــك الفضاء الذى كان يقع شمالى الفسطاط فيما وراء جبل يشكر ، وبنوا فيه دارا جديـــدة للامارة لم يغير من الوضع القائم فى الفسطاط شيئا ، فلم تكن العسكر سوى امتـــداد طبيعى للفسطاط ونموا لها نحو الشمال الشرقى • كما شهدت الفسطاط امتدادا آخـر حين أسس ابن طولون القطائع الى الشمال الشرقى من العسكر •• وامتدت عمـــارة الفسطاط حتى شملت العسكر والقطائع وأصبحت مدينة كبيرة بامتداديها العسكـــر والقطائع •

كما بينا أن مساكن الفسطاط كان يبنى بعضها باللبن والبعض الآخر بالحجارة ، وكان ببعضها حمامات خاصة ، وكان بالدار فنائين متجاورين مستقلين وربما يكون ذلك لحجب النساء عن الغرباء وكان معظم الدور ذا طابق واحد وبمرور الوقت صار تعدد الطوابق أمرا معتادا .

كما كان المسجد الجامع مركز الحياة فى المدينة ففيه مجلس القاضى وحلقات الدروس وازدهرت به المدارس الفكرية المختلفة وكان أعمر مكان فى المدينة حتى بعد انشاء العسكر والقطائع .

كما ازدهرت حوله الأسواق المكشوفة كأسواق العرب التى عرفوها فى بلادهم ونقلوها الى الأمصار الجديدة .. كما عرفت الفسطاط القيساريات وهى أسواق مسقوفة تعلو دكاكينها بوائك وتشتمل على عدة أبواب وكان ببعضها حمامات .

ويتبين من الحفريات التى أجريت فى أطلال مدينة الفسطاط والتى كشفت عن أبنية ترجع لعصر العباسيين والطولونيين ما يمكن أن يفيد فى تخطيط بعض القيساريات فقد تضمنت الدور المكتشفة قاعات كانت تتخذ كمحال ذات فتحات على الطريق تعلوها عقود وكانت تلك المحال تقع أغلب الأحوال فى شمالى الدار مما يشير الى احتمال كونها مخازن تجارية أقيمت على الطريق وهى تشبه فى هذا القيساريات أو الوكالات حيث يمكن أن نعتبر الأدوار العليا أماكن خصصت لسكنى التجار الوافدين .

كما عرفت الفسطاط نظاما دقيقا لامداد المنازل بالمياه العذبة من الآبار المنقورة فى الصخر عن طريق قنوات من الفخار تتكون من أنابيب أسطوانية يتصل بعضها ببعض .

هذا عن الفسطاط من حيث موقعها وخططها وبيوتها ومرافقها العامة أمـــا عن حكومتها فكانت تتمثل فى أمرائها وشرطتها ودواوينها • وقد أوضحت أنه لم يكـــن بالفسطاط فى بداية عهدها دار امارة خاصة بل كانت الدار التى يقيم بها الوالى بمثابة دار امارة • وقد ظل هذا الوضع قائما حتى آخر الدولة الأموية وان كان عبد العزيز بـــن مروان قد بنى لنفسه دارا فى الفسطاط فى خلافة أخيه عبد الملك اتخذها مقرا له ثم مقـرا لامراء مصر من بعده •

أما عن الشرطة فكان الوالى هو الذى يعين صاحب الشرطة المسئول عن تطبيق القوانين وتنفيذ العقوبات ونلاحظ أنه منذ بداية استقرار القبائل فى خططهـــــا بالفسطاط أن عمرو جعل لكل قبيلة محرسا للهيمنة منه على النظام وحراسة القبيلة • كمـا أنه منذ انشاء العسكر كانت هناك شرطتان بالفسطاط سميت شرطة العسكر بالشرطـــة العليا على أساس أنها تقع الى الشمال من شرطة الفسطاط التى سميت بالشرطة السفلى لأنها تقع الى الجنوب منها •

أما عن الدواوين بالفسطاط فنرى أن تسجيل أسماء القبائل التى اختطـــت بالفسطاط منذ تأسيسها والحاقها بالديوان وافراد دعوة خاصة لكل قبيلة أول ما عرفت الفسطاط من نظام ادارى • وقد أخذ ديوان الانشاء فى الازدهار منذ بداية عهـــد أحمد بن طولون وبداية ظهور شخصية مصر المستقلة ولم يكن له قبل ذلك شأن يذكر • بينما كان لديوان الخراج مبنى مستقل منذ تأسست القطائع وانتقلت دار الامارة مـــن العسكر اليها فأبقى الطولونيون دار الامارة بالعسكر وجعلوها ديوانا للخراج •

وتتناول دراستنا للحياة الاقتصادية فى مدينة الفسطاط النظم المالية وتشمل موارد المدينة وأهمها الجزية وهى ضريبة الرأس التى فرضها العرب على أهل الذمة من المسيحيين واليهود • ومقدارها ديناريين عن كل بالغ باستثناء النساء والأطفـــال والمسنين • والمصادر التاريخية تؤيد ما ورد فى أوراق البردى اذ تشير الى أن الجزية

كانت من ثلاث فئات : أولها فئة الموسرين والثانية من الطبقة الوسطى والثالثة دون ذلك • وكان يعين لجبايتها اثنان أحدهما من اليهود والآخر من النصارى • كما كانت الزكاة تؤخذ من المسلمين ويقوم الولاة بجبايتها ويسلمون الأهالى ايصالا أو براءة تثبت تأدية ما عليهم من زكاة كما أثبتت ذلك أوراق البردى •

وكانت الضرائب التى فرضت على التجار والصناع تمثل مصدرا ثالثا من مصادر الدخل للمدينة • وكذلك ضريبة الارث التى تستحق على تركة المتوفى حيث كان لهذه الضريبة ديوان خاص فى الفسطاط أطلق عليه اسم " ديوان المواريث " وكان عطاء الجند من أهم مصروفات المدينة فضلا عن رواتب الموظفين • وكان لديوان الخراج فى الفسطاط ولعامل الخراج أهمية كبرى اذ أنه المهيمن على الادارة المالية وهو مسئول أمام الخليفة مباشرة لا أمام الوالى ومن ثم فهو ينافس الوالى سلطاته • وكانت مهمته حمل خراج مصر الى خزانة الخلافة كما يتولى الانفاق على الولاية • وكان بديوان الخراج السجلات التى يدون فيها تقديرات الخراج وكان أصحاب الكور فى أنحاء مصر يتصلون بعامل الخراج لتأدية الضرائب الواجبة على الكورة • وكان يعقد فى جامع عمرو بن العاص زمن الولاة العباسيين مزاد برئاسة عامل الخراج لتقبل الأرض أو ضمان خراجها وذلك بأن يتقدم من يضمن دفع جزية معينة لمنطقة معينة أو يلتزم بتنفيذها • وكان بعض الولاة العباسيين يقومون بضمان الخراج أحيانا •

أما عن تجارة الفسطاط فقد بينت أهمية موقعها فى انتعاش الحركة التجارية بها • وخاصة فى القرن الثالث حيث دعم أحمد بن طولون مركز مصر الاقتصادى باصلاح العملة وسكه للدينار الأحمدى • وبينا أن الأسواق كانت تخضع لرقابة موظف يسمى " العامل على السوق " الذى يتمتع ببعض السلطات القضائية والتنفيذية ويزود ببعض الأعوان • ويبدو أن هذه الوظيفة هى الأصل فى وظيفة المحتسب •

أما وحدة الوزن فى الفسطاط فكانت الوطل وكذلك القدح .

أما عن العملة فى الفسطاط فقد بينا أن الدينار البيزنطى الذهبى كان وحدة التعامل عند الفتح وظل كذلك طوال عهد الخلفاء الواشدين . كما عرفت الفسطاط التعامل بالفلوس منذ عهد الأمويين كما أثبتت ذلك حفريات الفسطاط وذلك بخلاف ما ذكره المقريزى من أنه يرجع نشأتها الى عهد الكامل الأيوبى ، فقد كشفت مجموعة من الفلوس البرونزية تحمل أسماء ولاة أمويين . وقد ظلت الفسطاط تتبع العملة الأموية التى كانت تضرب على الطراز البيزنطى الى أن ظهرت أول عملة عربية فى عهد الخليفة عبد الملك بن مروان ٦٥ ـ ٨٦ هـ / ٦٨٥ ـ ٧٠٥ م .

كما ظلت الفسطاط تتبع عملة العباسيين وكانت تضرب العملة فى دار الضرب بالفسطاط بنفس سكة العباسيين . وكانت أول دنانير تحمل اسم والى مصر وتسك فى الفسطاط تلك التى ضربها على بن سليمان بن على العباسى ١٦٩ هـ ـ ١٧١ هـ / ٧٨٥ ـ ٧٨٧ م .

وكانت دار الضرب فى الفسطاط مجاورة للمسجد الجامع وظلت تصدر العملة باسم ولاة مصر منذ ذلك الوقت . وكان يقوم بالاشراف عليها " متولى دار الضرب " وكان يعهد للقاضى بالاشراف عليها كما تحدثت عن الطرق التى كان يتم بها سك العملة سواء من الدنانير أو الدراهم أو الفلوس .

كما بينت أنه قد استخدم فى الفسطاط الى جانب النقود السفاتج وهى رقاع يكتبها التجار للصيارفة بقيمة المبالغ التى يأخذونها ، وتكون قابلة للصرف فى أى بلد

لأى من عملائهم فكانوا فى هذا يقومون بدور البنوك • واستخدمت الصكوك أيضا وهى أمر بدفع مقدار معين من النقود الى الشخص المدون اسمه فيه •

كما تحدثت عن الصناعات التى ازدهرت فى الفسطاط كصناعة النسيج والحصر والأبسطة والخزف والزجاج والخشب • وعرضت لمستوى المعيشة فى الفسطاط الذى كان يتذبذب صعودا وهبوطا •

وفى دراستى للحياة الاجتماعية تحدثت عن عناصر السكان من العرب الذين استقروا فى الفسطاط على شكل قبلى وأثر عملية الارتباع فى بداية الاختلاط بينهم وبين المصريين الذى انتهى بالاندماج بينهما الى الحد الذى لم يجعل لاسقاط المعتصم للعطاء عن العرب رد فعل عنيف بسبب اختلاط دمائهم وتفرق العصبية •

كما كان الموالى يمثلون عنصرا ثالثا من عناصر السكان فى الفسطاط وهم من الفرس والترك وعرضت لوجودهم فى الفسطاط منذ الفتح فى أقليات لم تكن ذات تأثير واضح على الحياة فى المدينة • ثم لازدياد نفوذهم فى عهد الطولونيين والاخشيديين من بعدهم •

ثم تحدثت عن أهل الذمة وبينت أنه استقرت فى الفسطاط منذ تأسيسها جماعات من القبط بل كان لهم بها عدة كنائس • وقد ظفر أقباط الفسطاط بنفس التسامح الذى ظفر به الاقباط فى مصر عامة • وحافظوا على شرائعهم الخاصة وان كان قد سمح لهم بالاحتكام الى القضاة المسلمين • وتولوا كثيرا من المناصب الهامة • وكذلك كان الحال مع اليهود •

وبينت المقومات الاجتماعية الخاصة التى تفردت بها العناصر وهى الزواج والملابس والمطاعم والمشارب وعادات الجنائز •

كما كان السكان يشتركون جميعا فى مظاهر اجتماعية عامة يحيونها ويحتفلون بها وهى الأعياد والمواسم والحفلات • وقد أبقى المسلمون على احتفال القبط بأعيادهم الدينية بل اشتركوا معهم فى الجانب الاجتماعى السلمى منها كالاحتفال بعيد وفاء النيل وعيد الغطاس وغيرها •

كما كانت هناك الى جانب أعياد القبط والمسلمين مناسبات أخرى تحتفل بها الحكومة وتحاط بمظاهر العظمة والأبهة كالاحتفال برؤية هلال رمضان •• عند جبل المقطم والاحتفال بفتح الخليج •

كما بينت وسائل اللهو فى المدينة فقد كان بالفسطاط خلال عصر الولاة قيان ومغنون وان لم يصلنا الشعر الخاص بمجالس الخمر والغناء فى عصر الولاة • كما كان الحال فى عهد الطولونيين ثم الاخشيديين ، حيث شارك الشعراء أمراءهم فى اللهو وبخاصة الذهاب الى الأديرة والتنزه بها • هذا فضلا عن وسائل اللهو الأخرى كحلبات السباق والرياضة •

وأبرزت بعض عيوب المجتمع فى الفسطاط ومن أهمها ظاهرة انتشار حانات الخمور والملاهى وما يحدث مع ضروب المنكر أثناء الاحتفال ببعض الأعياد القبطية كما عرف المجتمع الميسر كأحد وسائل اللهو هذا فضلا عن الرشوة التى استشرت لدى كثير من الولاة والقضاه •

وبعد فهذه صورة الحياة الاقتصادية والاجتماعية فى مدينة الفسطاط فى الفترة التى حددتها للدراسة •• ولعلنى أكون قد وفقت فى ابرازها •

مصادر البحث

المصادر العربية :

١ — ابن الاثير : علي بن أحمد بن أبي الكرم ت ٦٣٠ هـ / ١٢٣٨م
الكامل في التاريخ — القاهرة ١٢٠٩ هـ ١٢جزءا .

٢ — الادريسي : صفة المغرب وأرض السودان ومصر
ليدن ١٨٦٤ — ١٨٦٦

٣ — الازرقي : توفى ٢٠٤ هـ / ٨١٩ م أو ٢١٩ هـ / ٨٣٤ م
أخبار مكة وما جاء فيها من الآثار
المطبعة الماجدية بمكة ١٣٥٢ — ١٣٥٧ م

٤ — الاصطخري : أبو اسحق ابراهيم بن محمد الفارسي الاصطخري
توفى في النصف الاول من القرن الرابع الهجري
المسالك والممالك — القاهرة ١٩٦١ م

٥ — الاصفهاني : أبو الفرج ت ٣٥٦ هـ / ٩٦٧ م
كتاب الاغاني — القاهرة ١٩٢٧ — ١٩٣٦ م
جـ ١ — ١٠ طبعة دار الكتب

٦ — أ . تبلر : فتح العرب لمصر ترجمة محمد فريد أبو حديد

٧ — البكري : عبد الله بن عبد العزيز ت ٤٨٧ هـ
معجم ما استعجم — جغرافيه — القاهرة ١٩٤٥

٨ — البلاذري : أحمد بن يحيى بن جابر ت ٢٧٩ هـ / ٨٩٢ م
فتوح البلدان — القاهرة ١٣٥٠ هـ / ١٩٣٢ م

٩ — البلاذري : أنساب الاشراف

أ . جروهمان : أوراق البردي العربية بدار الكتب المصرية
(جزءان)

١٠ـ البلـــوى : سيرة أحمد بن طولون دمشق سنة ١٣٥٨ هـ

١١ـ البيرونـــى : أبو الريحن محمد بن أحمد ت ٤٤٠ هـ / ١٠٤٨م
الآثار الباقيــة عن القرون الخاليــة طبعة سخاو

١٢ـ تبشر : تاريخ الأمة القبطيــة وكنيستها

١٣ـ الثعالبى : أبو منصور عبدالملك الثعالبى ت ٤٢٩ هـ /١٠٤٧م
يتيمة الدهر ـ القاهرة ١٣٥٣ هـ

١٤ـ الثعالـبى : لطائف المعارف ليدن سنة ١٨٦٧م

١٥ـ الجاحظ : أبو عثمان عمرو بن بحر ت ٢٥٥ هـ / ٨٦٩م
الجاحـظ : كتاب التبصر بالتجارة ـ القاهرة ١٣٥٤ هـ / ١٩٣٥م

١٦ـ الجهشيارى : أبو عبدالله محمد بن عبدوس ت ٣٣١ هـ/ ٩٤٣م
الجهشيارى : كتاب الوزراء والكتاب ـ القاهرة ١٩٣٨م

١٧ـ د. حسن ابراهيم حسن : تاريخ عمرو بن العاص ـ القاهرة ١٩٢٦م

١٨ـ د. حسن أحمد محمود : حضارة مصر الاسلامية ـ العصر الطولونى
مطبعة النهضــة ١٩٦٠

١٩ـ ابن حوقـــل : أبو القاسم محمد بن حوقل البغدادى ـ توفى
أواخر القرن الرابع الهجرى .
المسالك ـ والممالك ـ نشر دى غويه ١٨٧٠م

٢٠ـ الخطيب البغدادى : أحمد بن على ت ٤٦٣ هـ
تاريخ بغداد ١٤ جزء القاهرة ١٩٣١

٢١ـ ابن خلكان : شمس الدين أبو العباس ت ٦٨١هـ / ١٢٧١م
وفيات الأعيان ـ بولاق ١٢٨٣ هـ

٢٢ـ ابن الدايــة : أحمد بن يوسف المعروف بابن الداية ت نحـــو
سنة ٣٩٩ هـ / ٩٥١م . سيرة أحمد بن طولون
القاهرة ١٩٤١م

٢٣ـ ابن دقماق : ت ٨٠٩ هـ / ١٤٠٦ ـ ١٤٠٧ م
الانتصار لواسطة عقد الأمصار ج ٤ ، ج ٥

٢٤ـ زكى محمد حسن : الفن الاسلامى فى مصر ج ١ القاهرة ١٩٣٥ م

٢٥ـ زكى محمد حسن : بعض التأثيرات القبطية فى الفنون الاسلامية فى مجلة جمعية الآثار القبطية ـ القاهرة ١٩٣٧ م

٢٦ـ ساويرس بن المقفع : توفى أواخر القرن الرابع الهجرى أواخر القرن العاشر الميلادى
سير الآباء البطاركة باريس ١٩٠٧ ـ ١٩١١

٢٧ـ السبكى : طبقات الشافعية القاهرة ١٣٢٤ هـ ٦ أجزاء

٢٨ـ ابن سعد : كاتب الواقدى ت ٢٣٠ هـ / ٨٤٥ م
الطبقات الكبير ـ ليدن ١٩٠٥ ـ ١٩٢١ م
٨ أجزاء

٢٩ـ ابن سعيد : ت ٦٧٣ هـ / ١٢٧٥ م
المغرب فى حلى المغرب نشر د . زكى محمد حسن
الجزء الأول من القسم الخاص بمصر ـ مطبعة جامعة القاهرة ١٩٥٣ م

٣٠ـ سعيد بن بطريق : ت ٣٢٨ هـ ـ ٩٤٠ م التاريخ المجموع على التحقيق والتصديق ـ بيروت ١٩٠٥ ـ ١٩٠٩ م

٣١ـ السمعانى : عبدالكريم محمد ت ٥٦٢ هـ
"الأنساب" ـ ليدن ١٩١٢ م

٣٢ـ ابن سلام : أبو عبيد القاسم ت ٢٢٣ هـ
الأموال ـ القاهرة

٣٣ـ السيوطى : عبدالرحمن بن أبى بكر جلال الدين ت ٩١١ هـ / ١٥٠٥ م

حسن المحاضرة فى أخبار مصر والقاهرة ـ القاهرة ١٣٢١ هـ

٣٤ ـ د . سيدة الكاشف : مصر فى فجر الاسلام ـ القاهرة ١٩٤٧ م

٣٥ ـ د . سيدة الكاشف : مصر فى عصر الاخشيديين القاهرة ١٩٥٠ م

٣٦ ـ الشابشتى : كتاب الديارات
مخطوط بدار الكتب المصرية رقم ١٧٥٦

٣٧ ـ أبو شجاع : محمد بن الحسين بن عبد الله ابراهيم الوزير أبو شجاع ت ٤٨٨ هـ / ١٠٩٥ م
ذيل تجارب الأمم طبعة اميدوز

٣٨ ـ ابن الصابى : هلال بن الصابى ـ أبو الحسين هلال بن الحسن ابن أبى اسحق ابراهيم الصابى ت ٤٨٨ هـ / ١٠٥٦ م ، تحفة الأمراء فى تاريخ الوزراء ـ القاهرة ١٩٥٨ م

٣٩ ـ أبو صالح الأرمنى : " تاريخ " المعروف بكنائس وأديرة مصر
طبعة اكسفورد ١٨٩٥ م

٤٠ ـ صالح أحمد العلى : التنظيمات الاجتماعية والاقتصادية فى البصرة
مطبعة المعارف ببغداد ١٩٥٣ م

٤١ ـ الطبرى : أبو جعفر محمد بن جرير الطبرى
ت ٣١٠ هـ ـ ٩٢٢ م
تاريخ الأمم والملوك طبعة القاهرة ١٣٥٨ هـ / ١٩٣١ م ٨ أجزاء

٤٢ ـ ابن عبد الحكم : أبو القاسم عبد الرحمن بن عبد الله عبد الحكم
ت ٢٧٥ هـ ـ ٨٨٨ م طبعة ليدن ١٩٢٠ م

٤٣ ـ ابن عبد ربه : أحمد بن محمد ت ٣٢٨ هـ
العقد الفريد ـ القاهرة ١٩٢٨ م ٣ أجزاء .

٤٤ـ عبدالرحمن فهمى : النقود العربية
الموسسة المصرية العامة للتأليف والنشر
١٩٦٤م

٤٥ـ عبدالله خورشيد : القبائل العربية فى مصر فى الثلاثة قرون الأولى للهجرة ٠ دار الكاتب العربى ١٩٦٧م

٤٦ـ على بهجت : حفريات الفسطاط مطبعة دار الكتب سنة ١٩٢٨

٤٧ـ عبداللطيف البغدادى : كتاب الافادة والاعتبار

٤٨ـ ابن الفقيه الهمدانى : أبو بكر أحمد بن محمد الهمدانى ـ توفى أواخر القرن الثالث الهجرى
مختصر كتاب البلدان ـ ليدن سنة ١٨٨٥

٤٩ـ ابن قتيبة : عبدالله بن مسلم ت ٢٧٦ هـ
عيون الأخبار ـ دار الكتب بالقاهرة ١٩٣٠م

٥٠ـ قدامة بن جعفر : ت ٣٣٧هـ / ٩٤٩م
كتاب الخراج ، مخطوط بدار الكتب المصرية رقم ٢٥٠٠

٥١ـ القلقشندى : أحمد بن على ت ٨٢١ هـ
صبح الأعشى فى صناعة الانشاء ـ القاهرة ١٩١٣ ـ ١٩١٩

٥٢ـ الكندى : أبو عمر محمد بن يوسف المصرى ت ٣٥٠ / ٩٦١م
كتاب الولاة وكتاب القضاء طبعة ليدن سنة ١٩١٢م

٥٣ـ الماوردى : أبو الحسن على بن محمد بن حبيب البصرى البغدادى ت ٤٥٠ هـ / ١٠٥٧م
الاحكام السلطانية ـ القاهرة ١٢٩٨ هـ

٥٤ـ متز (آدم) : الحضارة الاسلامية فى القرن الرابع الهجرى :
ترجمة محمد عبدالهادى أبو ريده (جزآن)
القاهرة ١٩٤٩م

٥٥ـ أبو المحاسن : جمال الدين يوسف بن تغرى بردى ت ٨٧٤ هـ / ١٤٦٩ م ، النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة دار الكتب ١٩٣٠ م ، الجزء الاول والثانى .

٥٦ـ المسعودى : على بن الحسن ت ١٣٤٦هـ/ ١٩٢٥م مروج الذهب ومعادن الجوهر ـ القاهرة ١٣٤٦هـ / ١٩٢٥م (جزءان)

٥٧ـ المسعودى : التنبيه والاشراف . ليدن ١٨٩٣ م

٥٨ـ مسكويـــه : أبو على أحمد بن محمد ت ٤٢١ هـ / ١٠٣٠ م تجارب الأمم .

٥٩ـ د . محمد جمال الدين سرور : تاريخ الحضارة الاسلامية فى المشرق دار الفكر العربى ١٩٦٧ م

٦٠ـ محمد رمزى : القاموس الجغرافــى

٦١ـ محمد كامل حسين : فى الأدب المصرى الاسلامى ـ طبعة القاهـــرة سنة ١٩٥٦

٦٢ـ المقدسـى : شمس الدين أبو عبدالله محمد ت ٣٨٨هـ / ٩٩٧م ، أحسن التقاسيم فى معرفة الاقاليـم ليدن سنة ١٩٠٦

٦٣ـ المقريزى : تقى الدين أحمد بن على ت ٨٤٥ هـ / ١٤٤١ م المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والاثار ـ بولاق ١٢٧٠هـ (جزءان)

٦٤ـ المقريزى : البيان والاعراب عما بأرض مصر من الاعـــراب القاهرة ١٣٥٦ هـ

٦٥ـ المقريزى : شذور العقود فى أخبار النقود ١٣٥٦ هـ

٦٦ـ منصور بن بعرة الذهبى الكاملى : كشف الأسرار العلمية بدار الضرب المصرية تحقيق الدكتور عبدالرحمن فهمى ١٩٦٦م

٦٧ـ ماسينيون : خطط الكوفة
٦٨ـ ابن منظور : محمد بن مكرم ت ٧١١ هـ
لسان العرب ـ القاهرة ١٣٠٧ هـ ـ ٢٠ جزءا
٦٩ـ ناصر خسرو : ت ٤٨١ ـ ١٠٨٨ م
سفرنامة نقله الى العربية د . يحيى الخشاب
القاهرة ١٩٤٥ م .
٧٠ـ النويري : ت ٧٣٢ هـ / ١٣٣١ ـ ١٣٣٢ م
نهاية الأرب في فنون الأدب ـ ج ١ ـ طبعة
دار الكتب
٧١ـ وكيع : محمد خلف ، توفى أوائل القرن الرابع الهجرى
أخبار القضاة ـ القاهرة ١٩٥٠ م
٧٢ـ ياقوت الحموى : شهاب الدين أبو عبدالله الحموى الرومى ت ٦٢٦ هـ
/ ١٢٢٩ م
معجم البلدان ـ القاهرة ١٩٠٦ (١٠ أجزاء)
٧٣ـ يحيى بن آدم القرشى : توفى ٢٠٣ هـ
كتاب الخراج ـ ليدن ١٨٩٥ م
٧٤ـ يحيى بن سعيد الأنطاكى : ت ٤٥٨ هـ / ١٠٦٦ م
صلة كتاب سعيد بن بطريق المسمى " التاريخ
المجموع على التحقيق والتصديق ـ بيروت ١٩٠٩ م
٧٥ـ اليعقوبى : أحمد بن أبى يعقوب بن جعفر ت ٢٨٢ هـ /
٨٩٥ م ، كتاب البلدان ـ ليدن ١٧٩٢ م .

المصادر الأجنبيـــة :

1. Bell : Translations of the Greek aphrodito papyri.
2. Casanova : Reconstruction de la Ville de Fustat.
3. Combe. E. T, J. Sauvagét : Repertoire chronologiaue d'Epigraphi arabe.
4. G. Wiet : Stellés Funeraires T. I, II.
5. G. Wiet : Histoire de la Nation Egyptienne T. IV: l'Egypte Arabe.
6. " " : Precis de l' histoire d' Egypte.
7. Grohmann : Arabic Papyri in the Egyption library.
8. Lavoix : Catalogue de monnaies Musulmanes.
9. S. Lane Poole : Egypt in the Middle ages Vol. 2.
10. S. Lane Poole : Arabic coins, London.
11. Miles : Rarly Arabic glass weights and stamps. New York 1948.
12. Weill J. D. : Catalogue du Musée Arabe.
13. R. E. Wycherley : How the Greek built cities.
14- Quatremere : Recherches sur la langue et la literat[ure] d'Egypte.
15- Butler : The Ancient Coptic churches of Egypt vol. 2.
16- Creswell : Early Moslem Architecture. II.